رواية

حريق الاخيلة



إدوار الخراط

حريق الأخيلة

إدوار الخراط

رواية

لا وقت للنوستالجيا
شهوات الروح غير مقسومة
والمعني اللا محدود تنيِّن شربت معه الراح

إدوار الخراط

١ - سرير محترق

كان كامل الصاوى أرســتقراطي الهيئــة أرســتقراطي السلوك.

كان زميلا لنا في الجامعة، ولكنه كان مترفعا عنا جميعا، متحفظا، ومنعزلا تقريبا.

دائما عنده، على رقبته الرفيعة الطويلة، بابيون رشــيق صغير، يتغير لونه من الأسود إلى الأحمر الداكن إلى المــنقط بنقط صفراء دقيقة حسب تغير لون بدلته، ويلتف بعناية حــول ياقة صلبة الشكل ناصعة البياض، كان البابيون عنــده مهمــا جدا، كأنه شعار، أو رمز، أو استعلان.

وفي سنة الليسانس ربى لحية مخروطية خفيفــة، علــى غرار لحية تروتسكي، وكانت نظارته أيضا مدورة يحيط بهــا إطار ذهبي رفيع، والسيجارة مذهبة الفم معلقة دائما في ركــن فمه، مشتعلة أو مطفأة أو جديدة بكرا، على السواء.

يقرأ هيجل بعناية ودأب، ويتنازل أحيانا فيحــدثنا عــن الفلسفة الهيجلية ونحن نتمشى في شوارع محــرم بيــه بعــد المحاضرات، أنا وقاسم إسحاق وفتوح القفاص، نناقشه بجديــة

كاملة، ويجادله فتوح القفاص بحماسة واندفاع وهو يشوح بيديه ويتفتف ويتناثر الرذاذ من فمه في حميا المقارعة والمنازلـــة، ويشتم بصوت عال كل " الجهلة والأغبيـــاء "، ولكـــن كامـــل الصاوى ينصت إليه باهتمام وهدوء، ثم يرد عليه بلهجة باردة، ومنطق. لم نكن نأخذ مجادلات فتوح القفاص – مع تشويقها – على محمل الجد حقا.

وكان كامل الصاوى يحب المشى في الشوارع، وحده أو مع اثنين ثلاثة من " الأصدقاء " – لم يكن له حقـــا صـــديق – ويظل حذاؤه الأجليسيه مع ذلك لامعا مصقولا.

كان بيتهم في أحد شوارع محرم بيه الجانبيـــة الهادئـــة، زرته مرة واحدة لم تتكرر، مع قاسم إسحاق الذي كان قريبـــا إليه أكثر من أي أحد، على تحفظ من كامل الصـــاوى طـــول الوقت، لا يريم، بينما كان قاسم على طريقته النوبيـــة مرحـــا متفتح القلب ودوداً لعله أكثر تبسطا واحتضانا للناس – حتى – مما تسمح به ظروف العمل الثوري الذي كنا غارقين فيه، أما كامل فهو مقفل تماما على نفسه، نموذج مثالي لقواعد الأمان.

نسيت اسم الشارع على الفور، كأنما عن عمد.

صعدنا السلالم الساكنة، لا أصوات، ولا روائح الطبيخ البلدي الشهية، ولا وش الوابور وزياط الأولاد، ولا اسكت يا واد اسكتي يا بت يا مقاصيف الرقبة من وراء الأبواب، لا نكهة تقلية الملوخية ولا فوحة الفلفل الأخضر المقلي، ولا دقات الهون لعمل الكفتة، ولا نفحات تسبيكة البامية، السلالم خافتة النور، صامتة، في عز الظهر، موحشة، مثل سكنى القبور، قلت لنفسي: كيف يطبخون؟ ماذا يأكلون؟

كان للباب جرس بارز من الصينى أبيض مكور على شكل الكمثري

– كل بيوتنا لها أبواب بلا أجراس كهربائية، نخبط عليها.

فتحت لنا الباب خدامة صغيرة السن صغيرة الجسم (لم تكن كلمة " شغالة " معروفة على أيامها، " خدامة " هي الكلمة الأصح والأصرح والأكثر مطابقة لمقتضى الحال) وجاء وراءها مباشرة كامل الصاوى، يلبس الروب دى شامبر الحريري بألوانه القلابة بين الأرجواني والبنفسجي الفاتح، على القميص والبابيون، والجزمة والشراب، الطقم كله، كاملا،

شياكة طبيعية ومعتادة عنده، أما نحن فكنا نستقبل بعضنا بعضا بالجلابية، أو البيجاما، وبالكتير بالقميص والبنطلون والشبشب أو الصندل.

كان قاسم قد حكى لي، باختصار، أن كامل فقد أباه منذ طفولته، وليس له أخوة أو أخوات، ترك له هذا البيت الملك، وأرضا في البحيرة، وأن أمه في عز شبابها بعد، وألمح قاسم بإيجاز، لأنه في الغالب لم يكن يعرف أكثر مما قال، وبإعجاب أيضا – ألم يكن ثوريا؟ – أنها " متحررة " تخرج وتدخل بلا حرج في أتومبيلات الصديقات اللاتي يأتين إليها مع الشوفيرات، أو اتومبيلات الأصدقاء الذين يقودون سياراتهم الباكار أو الفورد بأنفسهم، يسهرون ويتعشون ويشربون في المونسينيور أو باستروديس أو سكارابيه، أليست الطبقة الوسطى وحدها هي التي تتمسك بمواضعات الأخلاق البالية، أما الطبقة الأرستقراطية، أو البروليتاريا، فانهم متحررون، أو كما قال، قال إنها كانت تترك كامل كثيرا وحده،ترعى شؤونه الخدامة الصغيرة، في البيت الموحش الذي أحسسته معتما وخاويا على ازدحامه بالكراكيب البورجوازية الغالية: البيانو

الألماني الضخم، جاثم في الصالون، لامع السواد، مصقولا، مشحونا بطاقة متفجرة كامنة تحت غطائه المقفل، عليه تماثيل رخامية لجياد ترمح وهي في جمودها صافنة الساقين تخطف الريح بأعرافها، وغزالة تجرى أمام صيادة عارية الساقين ترميها بالسهام – أهذه " ديانا "؟ أم أية صيادة متحررة منطلقة وراء شهوات الطراد والقنص؟ – وعلى الجدران صور من الكانفاه – لم أعرف اسمه إلا بعد ذلك بسنوات – لمروج خضراء وأكواخ لها سقف من القرميد الأحمر ونهر بنى متجمد في جريانه المشغول بالخيوط الحريرية ماكرة الصنعة، وفي الأركان ترابيزة صغيرة مدورة من الأبنوس توهجه مدفون تحت مفارش مشغولة بالكروشيه الأنيق المكوي بدقة. جلسنا على كراسي الطقم المذهب، كانت صلبة غير مريحة، ظهورها منحوتة بنقوش بارزة لتلافيف أغصان وعناقيد صغيرة، وأوراق شجر مطلية بذهب باهت مقشر في بعض المواضع عند احتكاك الكراسي بالحائط فيما أظن – لم تكن هذه الأسرة غنية جدا إذن؟ – لكن السجادة، طبعا، عجمى

كثيفة الوبرة تصاعدت منها هبوة تراب خفيفة جدا عندما غاصت فيها أحذيتنا التي لم تكن – يعني – نظيفة جدا .

قال لي القاسم إسحاق: كامل جاء إلى الثورة لا عن إحساس بالظلم الاجتماعي، أو تمرد على الفقر والمهانة في مجتمعنا، ولا حتى عن إحساس خلقي بضرورة العدالة والكرامة، بل لأسباب عقلية، علمية بحتة، موضوعية. الثورة بحاجة إلى هذا النوع من المثقفين الذين لهم أصول بورجوازية أو ارستقراطية واختاروا الانضمام إلى صفوفنا.

كانت " صفوفنا " عندئذ، عمليا، نحو دستة من " الثوريين" أو أكثر قليلا.

بعد ١٩٥٠، وبعد أن خرجت من المعتقل، محبطا ويائسا، وخضت غمار حب محبط ويائس، ترك قاسم اسحق " صفوفنا " التي كانت قد انفرط عقدها، على أي حال، وانفضت. انضم إلى حد تو، وسجن وعذب في سجون عبد الناصر ومنافيه، ثم فتح مكتبا للمحاماة في أ سوان، ومات بسرطان في المخ، وأفتقده كثيرا، حتى الآن.

انفتح باب على الصالون وهبت نفحات عطر خفيفة ولكن نفاذة، تحمل أنوثة وخلاعة خفية، تدعو للاضطراب، متلبثة في الأركان الداخلية للبيت عند الأبواب المغلقة التي تفضى إلـــى مكامن العيش الحميمة، خمنت – هكذا دون أن أعرف – أنهـــا عطر باريسي حريمي.

حملت إلينا اللمونادة الخدامة التي فتحت لنا الباب.

كانت هذه ناهدة، صدرها صغير ولكن ناتئ البروز خلف حمالات عريضة للمريلة البيضاء المنشاة، على فستان حريري الملمس مشجر واضح أنه كان من ملابس ستها وقصره الخياط أو ضيقه، و واضح أن ستها تقمعها، وربما ســيدها الصـــغير كامل بيه يستغل صباها أيضا، كانت نظرتها إليه مما لا تخفي دلالته، مزيج من الخضوع الروحى واعتزاز الجسم الصـــغير بما يستطيع أن يمنح.

كل شيء في الشقة الفخمة – رثة الفخامة – وفق الـــنمط بالضبط، ضقت به ذرعا وكدت أصيح به:

– ياه ... هو بيتكم كمان طالع من كتاب.

على أيامها كنا قد فرغنا، من زمان، من قراءة قصـص محمود كامل المحامي، أو محمود تيمور، وكنا قد عرفنا، من هذه الكتابات، أجواء تلك البيوت " الاستقراطية " وأسرارها وما فيها من ميلودراميات الأرامل الطربوات اللعوبات والخادمات المستذلات، المعتزات مع ذلك بما لديهن من عطايا الجسم التي ليس مثلها عند الفتيات " بنات الناس " المكبوتات. هل كنا قرأنا أيضا بلزاك وستاندال وموباسان وأضرابهم، دعك طبعا من شارلس ديكنز أو ثاكرى أو فيلدنج ونحوهم.

اتفقنا على هذه الجلسة على أن يقتصر التعامل مع كامل الصاوى على وقاسم اسحق وحدنا، واعتبرنا ثلاثتنا " خلية مركزية " وقال كامل بلهجته التي فيها خنة قليلة، وهو ينظر إلى آخر الصالون من وراء نظارته مذهبة الدوران:

– ما فيش داعي، منطقيا، لأكتر من كده، ومن الناحية الموضوعية أنا حاعمل بحوث في الفلسفة الثورية، تبقوا تستفيدوا منها، وإذا كنتم عايزين ترجمة، ممكن برضه..

سألته: هل يعزف على البيانو؟ فقال دون مبالاة: ساعات، لما أكون زهقان شوية، فالس من شتراوس، نوكتيرن من شوبان، حاجة كده، عزف هواة يعني.

هواة، بالطبع، في الموسيقى وفي الثورة سواء.

في ١٥ مايو ١٩٤٨ اعتقلتني حكومة النقراشي، عشية حرب فلسطين الأولى، مع مئات من كل أصناف " الخطرين " أو " المشبوهين " سياسيا، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وجاء للمعتقل بعد ذلك من جماعتنا يسرى محمد يوسف، وفريد اسكاروس، وعبد الرؤوف نصر الله، وشوارتز، وقاسم إسحق، لم يعتقل كامل الصاوى، ولا فتوح القفاص، ولا أحمد النمس، أفرج عن زملائنا كلهم بالترتيب، بعد فترات متراوحة، وبقيت وحدي، ذهبت إلى معتقلات هاكستيب والطور ثم عدت إلى أبو قير وكنت من أواخر الذين خرجوا في فبراير ١٩٥٠، استيقظت و وجدت أن المعتقل خاو تقريبا، مفتوح الأبواب على الصحراء، الطريق المسفلت كان أمامي ليس فيه أحد، وركبت الأتوبيس، بثلاثة تعريفة، إلى محطة الرمل ومنها بالترام إلى بيتنا، بستة مليم، ومعي شنطة ورق مقوى على

شكل الجلد مربوط بحزام، رافقتني طول التنقلات، وبنظارة مكسورة مربوطة بسلك، وكانت الجزمة بوزها مفتوح وواسعة، قضيت فترة الاعتقال كلها إما بالصندل أو بالجزمة الكاوتش، وكان الناس في الشوارع وفي الأتوبيس والترام لا يكادون يلتفتون إلي، وأنا أتحرك بحرية لأول مرة منذ عشرين شهرا، وكأنه ليس للحرية طعم ولكني كنت أملأ صدري بهواء مفتوح، ليست عليه حراسة.

وفقدت الاتصال تماما بكامل الصاوى، لم أره قط بعد ذلك، وإن ظل هذا الشبح الغريب يراودني بين الحين والحين، من بين أشباح كثيرة.

اسكندرية ٣ مارس ١٩٣٤ .

عزيزي وفيق

لست أدري .. هل يحق لي أن أكتب لك الآن ... أنني أشعر دائما بشعور أحمق ... أن خطاباتي تقابل لديك بنوع من الاهمال الخفيف ... " ليته كان اهمالا خطيرا " .

ولكن نفسي تفيض دائما .. تطفح بما فيها ... لست أجد من أكلمه .. فصبرا جميلا..

لا تهمك تلك المشاعر الزجاجيـــة الهشـــة الحمقـــاء .. ولتستعد أنت .. لتقبل ما سأكوم على رأسك من نفايات..

عزيزي...

لعلك تذكر ... أو لا تذكر.. أني سألتك مرة – وكان ذلك في دمنهور – كيف يكتب توفيق الحكيم مسرحياته دافقة بصور " الحياة " .. الحياة العملية بتعبيراتها الدارجة البارعة .. على رغم انه – كما يقول – معتكف في برجه العاجي ... عزوف عن المجتمعات .. البريئة وغير البريئة منهـــا .. علـــى حـــد تعبيره.

ولعلك تذكر – أنا أذكر جيدا – انك أجبتنـــي: أن هـــذا الصنف من خلق الله .. يحيا .. ليس كسائر الناس ... بل يحيا حياتين .. احداهما صاخبة .. عادية.. تافهة.. بين النـــاس .. والأخرى .. هادئة .. ساهمة .. منزوية بين أربعـــة جـــدران عاجية بين كتب وموسيقى .. وتأملات ذاهلة طويلـــة حالمـــة ممتعة .. هكذا أجبت .. أو ما يقرب من ذلك.

نعم ... لقد عادت تلك الصـــورة القديمـــة.. صـــورتك متحمسا تتكلم بمثل هذا الكلام... في شارع مـــزدحم... قـــذر

.... مترب .. في ظهيره خانقة .. دمنهورية . وفي يدك زجاجة بها دواء من الصيدلية وفي اليد الأخرى بنطلون مكوى ... وقميص جديد . أقول – وعفوا عن كل هذه الثرثرة – كنت اقول إن تلك الصورة .. بكل تفاصيلها .. جاءت تفرض نفسها عليّ .. على ذاكرتي أقصد.. وترتسم أمامي في عناد .. وإصرار . بعد عودتي من زيارة اليومين والليلتين أعني من زيارتك في القاهرة بالطبع حين استصرختني أن أجيء، بحق الله، قبل أن " تنهى كل شيء ".

(يمكنك أن تشطب الثلاث كلمات الأخيرة .. بالنيابة عني) .. القصد من كل هذا الهذيان أن أقول إنني كنت أقول أن تلك الصورة ظلت ترتسم أمامي .. بعد تلك الزيارة بلا سبب ولا معني ولا تلميح وتلك ايها العزيز مشكلتنا أعني مشكلتي .. مسألة الحياتين هذه..

لماذا أبدو .. في غالب الأحيايين .. أبله متعثرا مرتبكا أو سمجا أو غريبا؟ ذلك أنني احاول – في غباوة منقطعة النظير – أن أحيا حياة واحدة .. رائعة منسجمة صافية محلقة..

يا للغرور ... " أنا " أريد أن أحيا حياة واحدة .. أن هذا ليستلزم شيئا آخر .. غير " أنا " ..

ما الذي – مثلا – يجعل من بعض الناس أفرادا عظماء .. انسانيين ... بكل ما تحوى الكلمة أو الكلمتان من معان؟ هو أنهم نجحوا في أن يحيوا حياة واحدة .. في أن يفرضوا " حياة الروح " على بضع ا لعشرات من السنين التـــي عاشـــوها .. شخص كسقراط ... لماذا كان عظيما وخالدا.. وجبارا يرتفـــع على القرون .. وتنسرح بين قدميه .. مدى الأجيال الطوال .. إنسانية كيسحة زاحفة... تتطلع إلى أعلى.. إلى الوجه الـــدميم .. المشوه .. الذي يحمله على كتفيه والـــى الـــذراع العاريـــة المنفلتة من ردائه الاغريقي القديم، مشيرا إلـــى عـــالم آخـــر جديد.؟ لماذا.؟ لسبب واحد.. انه عاش فلسفته ولم يكتبها .. إنه علم بالواجب . وبالفضيلة .. وبالخضوع لحكم العقل.. عـــاش يعلم بهذه الأشياء كائنة ما كانت قيمتها – في كل مكان.. في أي وقت وكيفما استطاع في السوق في المنزل .. في الشارع وعلى الرصيف وفي مطبخ بيته، وعلى عتبة الهيكـــل، وبـــين الحقول، وأمام المحكمة، ففي كل مكان يذهب إليـــه ســـقراط،

كنت تجد " بضاعة " سقراط .. المحتوية على " الفضيلة " و "العقل " و " الواجب " محزومة كلها.. في ردائه الاغريقي .. الذي لم تغسله زوجته منذ أمد طويل والذي تنقلت منه ذراع عارية، عجفاء لوحتها شمس اليونان. ثم لما طالبته الفضيلة، وأخواتها.. أن يضحى حياته. لم ين،، ولم يتردد، كان في استطاعته أن يفر .. وأن يرشو سجانيه، أو أن يفلت من أيدى القضاة ولكن انني اشك في انه لو فعل ذلك ثم عاد يبحث في ردائه الاغريقي عن حزمة الفضيلة والواجب والعقل، أشك في أنه كان يجدها .. ولكنه.. كان مخلصا وكان عظيما.. لقد أسلم الحزمة إلى الإنسانية .. وشرب كأس السم وهو يبتسم، لأنه كان عبدا امينا مخلصا، أخذ الدينار من سيده، وأعاده إليه، ثلاثة دنانير كما يقول المسيح ....

والمسيح ..؟ لماذا استطاع عابر السبيل، بردائه المنسوج المكون من قطعة واحدة، لم تخطها ابرة،، هذا النجار الذي لم يكن يرى إلا برفقة المجذومين .. والبرص ., والعميان وصيادى السمك .. وحثالة اليهودية، لماذا استطاع أن يفرض

نفسه، على إنسانية دامت عشرين مائة عام.. لماذا؟ لأنه عاش فلسفته هذا هو كل شيء.

آه .. على ذكر صيادي السمك..

ألا ترى معى .. أنه من السهل جدا أن يعتنــق المــرء "الاشتراكية " ويعجب " بالاشتراكية " ويتحمس لها. ثم يأتي في صباح قاهري من شتاء بارد على باب منزل ما يأتي " ليشخط " في أحد بائعي السمك التعساء، وليصرخ فيه. " بأنهـا بيعـة وليست خناقة " يصرخ بلهجة بورجوازية، نصف ارستقراطية (أي ارستقراطية كسيحة .. بنصف رجلْ) يصرخ فيه مـرة وأخرى ودون أن يستمع لعذر البائع المسكين علـى رغـم أن الأخير محق.

آه من هؤلاء البورجوازيين ...

نعم.. هذا من السهل جدا اؤكد لك ..

وعلى فكرة هذا الشخص نفسه يقرأ موليير . فيستحسـن أن يقرأ روايته: (Le Bourgeois Gentihomme) فهـا هنا شخص عظيم يفضح بيئة موبوءة، متعفنة، منتنة، تعـيش فيها تلك الطبقة الوسطى.

نعود لمشكلة الحياتين ففي هذه المشكلة قد نجد جوابـــا.. حين نتساءل لماذا لم ينبغ في الأدب العربي.. في مصر علـــى الأقل شخص عظيم.. يستطيع أن يفرض صوته على أســـماء العالم المتحضر.

نعم... لأن أدباءنا .. أغلبهم يعيشون في " أبراج عالية " ويتكلمون كلاما كثيرا.. عن خلق القادة، ومسئوليات الـــزعيم الروحي، وعظمة الكاتب .. وثقل الوقر الذي يحمله الفنـــان.. على كاهليه النحيفين .. ثم.. وفجأة.. وبلا وساطات.. ينزلقون من هذه الأبراج.. ليعيشوا بين النـــاس.. زائفـــين كالنـــاس.. يذهبون إلى مقر الوظيفة.. ويلبســـون الطربـــوش للـــرئيس.. ويتثاءبون في سهرات " الأهـــرام ".. ويتشـــدقون بأحاديـــث النساء.. وأعداء النساء.. وحبائب النساء.... !

لننظر مثلا إلى مخلوق كتولستوى.. يتنازل عن أملاكه.. ولقبه وثروته.. وعائلته.. وحياته القديمة التي درج عليها منـــذ نعومته.. يهجر كل ذلك.. في سبيل مبدأ.. ليموت على قارعة الطريق كمتسول.. كمـــا يمـــوت الشـــحاذون.. والعبـــاقرة..! لننظر.. إلى مثل هذا الإنسان .. ثـــم.. ثـــم لنهـــز رؤوســـنا

ونتثاءب .. ونغوص في أوحالنا.. أكثر.. فأكثر.. ماذا يهمنا من كل ذلك؟ هل تعرف يا صديقي.. لماذا نعجب.. غالبا.. بالمحبين الصادقين؟

يمكنك أن تعرف هذا.. على الضوء الذي اجتهدت أن ألقيه .. في هذه المسألة..

اننا نعجب بهم.. لأنهم يفرضون حياتهم الداخلية.. على حياة المجتمع الفاسدة.. لأنهم يسهرون طوال الليل.. ويبكون طوال النهار .. و " يسرحون " ويحملقون إلى الناس.. ويلبسون طربوشين أحدهما فوق الآخر .. ويلبسون فردة من حذاء أ سود .. وفردة أخرى من حذاء أصفر فاقع زاه ..

لأنهم يحيون حبهم.. لهذا هم عظماء .. ولهذا هم يحققون قمة الحياة الإنسانية ..لأنهم – في هذا الطور – يصبحون انداد الفنان . والمتصوف والفيلسوف.

ولكن ... هل تعرف أي ضعف إنساني فينا جميعا؟ نعم؟. انك تعرفه.

وأوضح مثال لذلك.. هو تلك المأساة الصغيرة.. التي تحدث كثيرا في حياتنا المصرية الاجتماعية.. فالفتاة – مثلا –

التي تكون قد درست في مـــدارس.. راقيـــة – فرنســـية فـــي الغالب– تلك الفتاة الأنيقة.. الجميلة.. الهيفاء.. التـــي تحـــب الفن.. و " الجمال " والتي تعجب بالشعر. وتقـــرأ كـــل كتـــب توفيق الحكيم.. على سبيل المثال.. تلك الفتاة التي تتذوق تلـــك الحلاوات الرائعة.. على قمم الحياة.. وهناك عينـــات كثيـــرة جدا في المجتمع المصري الحالي.. لهذه الفتاة التي تكون فـــي الواقع.. لا تفعل شيئا.. أكثر مـــن أداء وظيفـــة " الحيـــاة ".. الوظيفة القديمة القديمة.. انظر إلى تلك الفتاة – بعينها – بعـــد أن تكون قد زوجت ... لفتى أنيق راق.. تجدها قـــد مالـــت.. قليلا.. قليلا.. إلى السمنة.. وتجد عنايتها، قد أخذت شيئا فشيئا تنقص وتضمحل بالأناقة، وبالجمال، وتجد قصـــائد الشـــعر.. ورسائل الحـــب.. قـــد ربطـــت بشـــريط أزرق ســـماوى أو أرجواني.. ودفعت إلى آخر الدرج.. وتجد أشعار على محمود طه وإبراهيم ناجى.. قد علتها طبقة خفيفة من الغبار.. وتجدها رويدا رويدا .. تضيق بأحاديث الفلسفة.. والفن.. وسحر الحب والحياة.. وتميل أكثـــر فـــأكثر إلـــى أحاديـــث المجتمعـــات

والمراقص.. والخطوبـــات.. وأخبـــار التيـــزات والأبلـــوات والتانتات.

ثم.. بعد عشر سنوات.. تعال نبحث عن فتاتنا.. عاشـــقة الفن.. والحب.. والجمال.. تجدها قد أصبحت سيدة " عظيمة " ضخمة. إما متأنقة أناقة التكلف و الكبريـــاء.. تضـــع علـــى وجهها.. غالبا.. نصف دكان " الجمال " وتتحدث كثيرا.. عن أشياء تافهة.. عن حلى فـــي الغالـــب.. وأصـــناف الـــدهانات الجديدة.. وإما " ست بيت ".. تلد.. وتحلب لصغارها.. وتعنى ببيتها.. وسمنها.. وزيتها...

نعم هذه هي المأساة الصغيرة.. التي تحدث كثيـــرا بـــل ودائما.. مأساة تغلب المجتمع بزيفه.. ورياءه.. ونقماته.. على الحياة الروحية.. الضئيلة.. المحتاجة إلى الكثير من الغـــذاء، والوقود.. ذلك الوقود الذي قد لا يقل عن كومة كبيرة هائلـــة من الهشيم.. تجد فيها أعواد كتب عليهـــا أشـــياء كالآتيـــة: " المجتمع".. " الأسرة ".. " صداقات الناس ".. " الكبريـــاء ".. "الراحة ".. " اللذة " .. كلها تقدم للنار.. وتحترق لينبـــت مـــن ألسنة اللهب نبات شيطاني ممتع الجمال .. !

من السهل جدا يا صديقي .. أن يعيش المرء كالنـــاس.. يعمل .. ويبحث عن اللذة.. والتســـلية.. ويحـــب.. ويكـــره.. وينافق.. ويشرب الخمر.. ويحضر دور اللهو الرخيص.. ثـــم يأتي آخر النهار ليقرأ كتابا .. ويســـمع موســـيقى.. ويكتـــب رسالة.. انها تكون حياة سهلة.. لذيـــذة.. ولكـــن.. لكنهاحيـــاة ميتة.. حياة ستموت.. لأنها ليست أكثر من مركب تفاهـــات.. أما الحياة الأخرى.. الحياة التي نحترق لكى نحياها.. الحيـــاة الحقيقة.. أين هي؟.. إنها تحتاج لشيء أكثر مما فينـــا.. إنهـــا تحتاج لتضحيات هائلة.. إنها تصرخ بنا.. لكي نحمـــل ثقـــل صليب.. مهبظ.. مخيف.. ساحق.

هل تصدق.. إنني أشعر بندم مر.. وبأسف لاذع.. حينما أحدث زميلا.. أو اقرأ جريدة.. أو أجلس في مجلـــس عـــائلي عادي.. أو أذهب إلى دار سينما.. أو أكتـــب محاضـــرة.. أو أخرج لأمشى في الشمس قليلا؟ وأنني أشعر بيأس.. وبخيبـــة مريرة.. حينما أنام.. وحينما أستيقظ.. وحينما آكل.. وحينمـــا أحيا.. باختصار..؟ انني أحس في عمق مخيـــف قاتـــل.. أن هناك شيئا آخر، غير كل هذا يطلب مني، في صوت مميـــت،

أن أحيا فنى..أو أن اموت.. شيئا.. عميقا.. قويـــا.. جبـــارا.. حقيقيا.

نعم أن العلاقات بيني.. وبين الحياة ليست على ما يرام.. هناك سوء تفاهم كبير، ولذلك فأنا لست مسرورا من نفســـي – وأصدقك القول – على الإطلاق..!

عزيزي..

أشكرك.. فقد كنت أشعر بسأم تافه، وبضجر راكد تنمـــو عليه الطحالب.. ولكني قضيت وقتا مسليا..لا بأس به في كتابة هذه التفاهات.. ولذلك فأنا أشكرك.. كما تقضي قواعد اللياقـــة والذوق السليم..

أما الكتب التي تطلبها مني .. فلن أبعث لك منها ســـوى كتاب برناردشو، لأنك في حاجة إليه.. هو وحده.. ولكن ليس الآن.. وإنما.. في وقت آخر.. قريبا بالطبع.

مسألة أخرى... أن العنوان الذي أعطيته لك تغير الآن.. وأصبح عنواني:

٩ شارع ابن زهر، المتفرع من شارع راغب باشا – الاسكندرية – ابن زَهْر أو زُهَر أو زِهَر أو زَهرٍ.. أو سمه ما تشاء...!

في الختام.. أحظر عليك حظرا باتا أن تكتب لي.. أو تتصل بي بأي شكل كان.. وفي أية صورة كانت.. لست أريد أن أسمع عنك خبرا.. أفاهم؟.. نعم.. لعل هذا الكلام يفلح.. لعلك تحس..

لقد حفى قلمي من التوسل إليك أن تكتب لي.. على جناح السرعة.. ومن التضرع.. والالحاف.. والإصرار.. والإلحاح.. والرجاء الحار.. الباكي.. الدامع.. المحزون.. الملهوف..! وذلك كله بدون فائدة.

فلعل الحظر.. والمنع.. والتحريج.. والتحريم.. والاعراض.. وإظهار الملل المتثائب الهادئ الخامد.. اللامبالي.. المتحجر.. الميت.. لعله ينفع.. بحق الأولياء الصالحين..!

تحياتي إلى جانيت.. وصداقتي..

باريس في ١٤ مارس ١٩٨٤..

عزيزي الأستاذ ..

تحياتي وأطيب تمنياتي لك وللأخ العزيز الأستاذ شفيق خله وللأخ الأديب المصقع الدكتور عبد الستار عكاوي.

وشكرى وتقديري لتحيتك الرقيقة في رأس السنة، واعتذاري عن سوء أدبي لتأخرى في الرد، لكنني أرجو أن تسامحني بمجرد تخمين الحوسة الكبيرة التي تنوشني يمينا ويسارا، حتى قررت أن أعتزل بالمعاش المبكر خلال عامين على الأكثر، لكي أخرج من اليونسكو على قدمي – لا على ظهري.

طبعا أبلغت رسالتك للأخ العزيز وفيق راقم، فسال منه ما نعرفه جميعا من شهد طيب مصحوب بالصياح و " الانشراح " أعني ما تعرفه عنه من ذلاقة لسان وتدفق بما يحلو ويروق من القاموس المنتقي، وبلغ من ضجيجه أن تآمرت على إيفاده إلى نيويورك في نهاية العام الماضي، ويبدو أنه انبسط هناك جدا، لأنني تلقيت منه خطابا واحدا من العسل المصفي، وبعده الصمت العميق.

أرجو أن تكون بخير وبصحة جيدة، وغير متـــأثر بمـــا يجتاح آسيا وأفريقيا من مخاضات طالت واستطالت وأينعـــت وأورقت وأزهرت حتى أدارت رؤوسنا.

وأمل أن نلتقي قريبا بإذن الله

ودمت للمخلص

محمد حسن عبيد

كنت قد التقيت بمحمد حسن عبيد في مكتبه باليونيســـكو في باريس، وعندما زارني في ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٨٣ في بيتي بالقاهرة عرفت انه اصبح رئيس قسم الترجمة العربية في اليونيسكو، وشربنا كأسين أو ثلاثة، وضحكنا كثيرا، مزاج عيد الميلاد، والشجرة السامقة في الأنتريه تلفها عقـــود المصــــابيح الصغيرة الملونة تومض وتنطفئ، وتومض وتنطفئ، وعلــــى أغصان الشجرة شرائط الزينة الفضية المتهدلة، وندف القطـــن الثلجي، ودمى بابا نويل الصغيرة، والكريات الهشة المجوفـــة المصنوعة من زجاج رقيق، فضية وذهبية وحمراء، والجرس الفضي، والنجوم الزاهرة يعلوها جميعا نجم المجوس الهادي،

وقد صفت ربطات الهدايا، وتكومت، ملفوفة بــالورق اللامــع الملون.

وكان معنا الدكتور عبد الستار عكاوي، مدملجا، مدورا، مدموكا، وقد فرغ من شكاته الأبدية من عقوق الجامعة، ونهز الأساتذة، وتفاهة المناهج، وعزوف القراء عن الفلسفة، وتأخر الحقوق المستحقة، وتعثر أوراق الإعارة لجامعة الكويت، وما لا نهاية له من المظالم والمواجع، فضلا عن صعوبة سلم الفن المراوغ الجميل.

وجاءت سيرة وفيق راقم فقلت لعبيد إنــه يســتحق منــا التأييد والمساندة بعد أن عاد من سوريا، وهو يبحث عن مورد يعينه على الاستقرار هو وعائلته الكبيرة في لندن وإنــه كمــا نعرف جميعا مترجم حاذق عتيد، ومضت الشهور حتى جاءني خطاب عبيد.

وكما يحدث كثيرا، لم ألتق به بعد ذلك، فيما أظن.

أما وفيق فقد تواتر عمله في الأمم المتحدة، ثلاثة شهور كل سنة، على الأقل، فيمــا عــدا الاســتدعاءات الاســتثنائية للجلسات غير العادية.

الاسكندرية في ٣١ / ٣ / ١٩٤١ .

بني النجيب

أحييك تحية المقدر لوفائك، المعجب بنبوغك ونيلك قصب السبق في مضمار العلم والأدب والأخلاق، واهنئ بك المستقبل الزاهر الذي ينتظرك، حقق الله يا بني لك الآمال.

ولا يسعني إلا أن أسجل إعجابي بأدبك بهذه الأبيات:

بنثر ساحر الألباب قلتـه	سحرت الناس يا بالأزهار زنتـه
مضى عبد الحميد وقد نشـدنا	فتى يحيى كتابته فكنتـه
شفانا ما بطرسك من ريـاض	بها ورد الربيع لنا نثرته
يكاد النحل يسبقنا إليـه	ليرشف منه معنا ما غرسـته
أهنئ يا بني بك المعالي	وديوان الكتابة إذ رفعتـه
وشكرا يا بني على وفاء	لمن لم ينس عهدك قد رعيتـه

عبد الحميد بدر

هأنا قد نسيت تقريبا عبد الحميد افندي، مــدرس اللغــة العربية في مدرسة النيل الابتدائية بغيط العنب، لا أكاد أذكــر إلا وجها سمحا ودمثا وإنسانا حلو الشمائل كما يقال، وكان بلا شك يحنو على محاولاتي الأولى في الإنشاء وطبعا كنت تلميذه المفضل، في النحو والإملاء لا أكاد أخرم حرفا.فهل كنت قــد أرسلت له " أشعاري " المتعثرة الأولى بعد أن تركت فصــله بسنتين أو ثلاثة؟ لماذا؟ هل كنت أحب فيه بــديلا لأب كــان غريبا عن كل ما اكتب من حماقات واندفاعات وتفيقهات؟

قصيدته لي ختام وختم وتصريح لي بالنسيان، أو يكاد.

وليست هذه سيرة ذاتية، بمعني ما، وإنما أريدها أن تكون رواية، يعني.

فلماذا اقتحام هذه القصيدة العتيقة؟ ولماذا ظهــور عبــد الحميد افندى بدر، فجأة، وأنا أحكى حكايات لا صلة لها به؟

قلت: ما من حسرة هنا، ولا تفجع، ولا أسى.

قال: ألم يكن هذا الزمن جميلا؟ خاصة الآن وقد مضى، وأنت تسترجعه.

قلت: لم يكن هذا الزمن جميلا، بل هو جميل الآن، ما زال، وسيظل، إنه ماثل، لم ينفض، أنا لا أسترجع شيئا، كيف استرجع ما هو حاضر راهن؟ كم من مرة خرجت لكم قائلا: يا ناس. هذا كله ليس الماضي، بل الآن. لكنكم تظلون أسرى التواريخ.

قال: التاريخ لا يدحض.

قلت: بل مخادع، لا أعرف التاريخ، وأنا أقول ١٩٤١، ١٩٨٤، ١٩٤٥، ليست هذه إلا منارات تضيء بحرا بلا شاطئ ولا مرسى، تيه الموج بلا نهاية، ليس فيه مسار، مراكبي تمخره بلا توقف وهي رابضة بلا حركة، فأين التاريخ؟ وأين الحزن الموهوم؟

قلت: التوجع سمة الصبا والمراهقة التي لا تحول.

قال: يا شيخ؟

فقلت: ليس ثم شيخ يتذكر، أو يتحسر، وليس ثم فتى انحسر ظله، بل هما واحد وهما كثير.

قال: هذه، ربما، مجرد طريقة، في الكلام، لعلها توشية، أو استعارة.

قلت: لا طنطنة، لا أقنعة.

قلت أيضا: أبعد هذا مكاشفة؟

قال: لا بأس بهذا كله دفاعا.

قلت: هل تسللت إلى نغمة اعتذار، أو تفسير، أو تبرير؟

قلت أيضا: لا دفاع، ولا اعتذار، ولا تبرير.

أقول: هذا دمي.

ليس لي معبد ألوذ به.

كان وفيق في غرفة الاستقبال الضيقة في بيته، في آخر كينتيش تاون، الضوء شحيح نوعا ما، وهناك عدة كتب مجلدة مذهبة الحواف، تزين الصالون وتشغل حيزا من خزانة بلورية الزجاج، أعداد متناثرة من الانسكلوبيديا بريتانيكا ومختارات تقليدية من الشعر وروايات أمريكية من قبيل " ذهب مع الريح ".

وكانت شيرويت صغرى بنات وفيق مخطوبة أيامها لسارجنت في الجيش الإنجليزي، يأتي ليزورهم ويتعشى عندهم ليلة السبت، ويقضي مع البنت يوم الاحد.

والبنت جالسة على الصوفا، تحت ساعة كبيرة، وقد ثنت ساقيها تحتها، ولبدت في حضن خطيبها، على الطريقة الأوروبية، تداعبه ويملس عليها ويقبلها في فمها، خطفا، وأبوها ينظر اليهما بشيء من الرضى، والغيظ المكتوم ربما، والغيرة ربما، ولا ينبس بحركة ولا نأمة، يا عم نحن الآن في لندن، في الربع الأخير من القرن العشرين، فماذا في ذلك كله؟

وسألني وفيق عن الحال في مصر ! ومن غير أن ينتظر إجابة انطلق يعدد سيئات مصر وسوءات الحياة فيها، ولم يكن قد وضع قدمه على أرضها منذ أن غادرها قبل خمسة عشرة عاما أو نحوها، وتكلم عن القمامة، والإهمال، والذباب، والرشوة، لم يذكر حمى القتل، والقتل المضاد إذ لم تكن موجة العنف، والتعصب الأعمى، والظلامية، والسعي اعتسافا إلى الاستئثار بالسلطة، تحت زي الدين وتسترا بقناعه، قد اندلعت بعد على أرض الوطن، بكل شراستها ووحشيتها، وإن كانت قد تطايرت لها شرارات، هنا أو هناك، لكنه تحدث عن الرثاثة، والديكتاتورية، والفساد، وتكميم الأفواه، وقمع الحريات وخبث الناس، إلى آخره، ورددت عليه وأنا أحاول التحكم في نبرة

صوتي، وفي منطقي، بما معناه أن الناس فـــي مصـــر أكـــرم وأكثر أصالة ودفئا منهم في أي مكان آخر، أو على الأقل في أوروبا، وأنهم في البيئـــة المناســـبة يبـــدعون، ويلتزمـــون، ويتفوقون، وأن الوطن أكبر وأبقـــى مـــن أي نظـــام للحكـــم، واستدعيت ثورة ١٩١٩ وانتفاضات الطلاب في ٣٥ و ٤٦ و ٦٨، وتكلمت عن ١٨ و ١٩ يناير، وقلت إن العساكر ســـرقوا منا ثورة ١٩٥٢، وإن كان جمال عبد الناصر قد غيـــر وجـــه المجتمع وله رغم كل شيء أمجاد كثيرة، إلى آخر مـــا يقـــال عادة في مثل هذا المجال، لكنه قاطعني باحتداد واحتدام صارخ عالي النبرة جدا، وكانت يده ترتجف بكأس الويسكى فتترجرج قطع الثلج فيه وترتطم بزجاج الكأس، وفجأة قالت شـــيرويت، بالإنجليزي طبعا: دادي، لماذا تتحدث الآن عن ذلـــك البلـــد؟ تركته أنت من زمان، لا شأن لك بهؤلاء الناس، لا تهتم بهـــم. وربت السارجنت على كتفها بسرور وتحبيذ.

وطبعا حز في نفسي كلامها عن " ذلك البلد " الذي كانت قد ولدت فيه، والذي دفن فيه جدها الصعيدي نـــاظر محطـــة صفط الملوك العتيد، وجدتها المرهفة التي قطعت ســـاقها فـــي

بيت كوبري القبة، ولد ومات فيه أجدادها واسلافها، ألهذه الحجة العاطفية التقليدية قيمة؟ لماذا يحز في كلامها؟ فكرت انه كان على وفيق أن يبث فيها وفي أولاده الآخرين حب " ذلك البلد " أو على الأصح " البلد القديم " كما يقول غيرنا من الذين نزحوا إلى الغرب، بما تحمل تسمية " البلد القديم " من اعتزاز وما توحى به من آصرة الانتماء. أما " ذلك البلد " بما توحى به تلك اللهجة المتعالية..

استأذنت بعدها مباشرة، وتركت بيت كينتيش تاون، أظن أنه قد تصادف مجرد صدفة أنني لم أعد إليه بعد ذلك.

عرفت بعد ذلك بكثير أن البنت لم تسعد في زواجها بالسارجنت وأن المشاكل والمتاعب من جراء ذلك كنت تنوء بكتفى عم وفيق العجوز، حزنت قليلا على الرغم من كل شيء، كانت شيرويت في مقام بنتي – وإن كانت لا تكاد تذكرني – وكانت سمراء مسمسمة عذبة التقاطيع وإن كان فيها شيء من غرور أبيها وصلابة مظهره، ولم اقل: تستاهل، خلها تشوف ما يجرى لها في " هذا البلد .. " (كأنما كانت متاعب الزواج لا يمكن أن تحدث – يعني – في أي بلد).

في نيويورك كان وفيق يلتقى بي – على سبيل الصدفة – في ردهة مبنى الأمم المتحدة، كنت للمرة الأولى والأخيرة قد قبلت التعاقد معهم لفترة ثلاثة شهور في أثناء انعقاد الجمعية العامة، وكان هو ربما في سنته السابعة أو الثامنة أو نحوها من تواتر هذا العقد، من أواخر سبتمبر إلى نهاية ديسمبر من كل عام. كان يسلم على ببرود، بالإنجليزي، ويمضى دون أن يتوقف معي لحظة، حتى. أو تقريبا. لم يقل لي مرة تعال نشرب قهوة، دعك من أن يدعوني إلى بيته هناك أو للخروج في المساء، أو حتى للغداء في فترة الظهر في مطعم قريبا مثلا. وعرفت من صديق مشترك استغرب هذا كله وسأله، صراحة، أن حجته كانت أنني غادرت لندن، ذلك العام العتيد، بعد حكاية سبت السارجنت الذي لم أتعش معهم فيه، دون أن أتصل به حتى. بينما كان قد أعد لاقامتي هناك شقة ابنه الذي كان أيامها خارج لندن. وبدت تلك الحجة عندى لا قوام لها. فدعوته إلى فنجان قهوة في كافيتريا الأمم المتحدة، وجلسنا هناك في الدفء المريح، وفي هدوء بعد الظهر، نطل على مياه الهدسون التي تجرى باردة من وراء الزجاج، والرياح

تهب بالشجرة الوحيدة البعيدة على الجزيرة الصغيرة غير المأهولة، والصنادل تسرى بلا صوت تحمل بضاعة مغطاة بالمشمع المندى اللامع، وطائرات الهليكوبتر تنطلق في مساراتها تعلو وتنزل في قوس بعيد، قلت له إنني لا أريد أن أقول كلاما عاطفيا حتى لو كان هذا الكلام يصدر فعلا عن عاطفة حقيقة، هل احتاج أن أذكرك كيف كنا قريبين جدا؟ وأيام الاسكندرية؟ قلت إنني لن أكرر مثل هذا الكلام مرة أخرى. كنت أنتظر منه شيئا آخر غير هذا الذي يحدث، إلى آخره إلى آخره.

فقال: وماهذا الذي يحدث؟ لا شيء هناك غير منتظر. كل شيء عادي وطبيعي. فقلت في نفسي: لا أيأس من صداقة عريقة أحسها في نفسي غير زائلة، ها هي ذي تزول أمامي. لماذا؟

قلت: أليس ذلك كله محزنا قليلا؟

يوميات:

٢٠ يونيو ١٩٤٥.

نحن غرباء، غرباء تربطنا لحظة ويضرب بيننا أبد من الزمان. هذه هي النغمة الكبيرة التي تدوى وتصرخ في أيامي.. وعندما أذكر كيف كنا نقضي معا تلك الساعات الطويلة، بازاء البحر، في الظهر وفي الغروب، عندما أذكر ذلك الإيمان الذي كان يملأ حياتي إذ ذاك. الإيمان بالحب والفهم.. ترتفع تلك النغمة القديمة. المسيطرة. تدوى في عتمة الوحشة. خارج الأسوار. تدوى وتملأ ليلى بالشكاة العميقة الجريحة. كعواء حيوان تتركه القافلة.. ثم تمضي وتترك الصمت. الصمت. انزواء الاستسلام. كحيوان يرتمي على باب الكهف القديم – وقد هجرته القافلة – يضع رأسه على الأرض وينظر إلى السماء ..

كلمات. كلمات. جنون الأغاني العتيقة. جنون الدموع التي تهلهلت. وتلك القسوة. قسوة الغرابة. قسوة الحائل الصلد الذي بنته الأيام طبقة بعد طبقة – فارتفع بين الروحين – لا يلين – ولا يهتز. بل يرتفع بقسوة. ذلك الشيء الغريب الجامد بين الغرباء.

وكنت في غباوة محبة قديمة انظر إلى الصيف وفي نفسي أمنية رقي.. أن يأتي الغروب المشمس وأن نرى أحدنا الآخر كل يوم – أو على الأقل كل يوم والآخر نخرج في الغروب نمشى في طريقنا معا – في رقة الشمس الذاهبة ونتحدث. ونفهم أحدنا الآخر.. ونبنى أحدنا الآخر .. حلم تكنه في أحشائها محبة قديمة.

ولكن الشيء الغريب.. الشيء الغريب .. في قسوة جامدة.. يقف حائلا بين غرباء.

عندما ذهبت أول أمس، قلت لوفيق ذات مرة: على فكرة، ألم تقرأ بعض القصص؟ كنت قد كتبتها من زمن، وبيضتها، ولم يكن عندى نسخة أخرى منها. قصصي المباركة في السماء والأرض.. وفي لهجة حادة جارحة أجابني: أنه ادعاها لنفسه يا سيدي، وباعها في مصر للجرانيل.

وفُجِئْت.

كنت متعبا ولم أستطع في أول لحظة أن أفهم ثم ذهبت الكلمة بعيدا في النفس.. اللهجة التي قيلت بها ذهبت تحز في الأغوار.. وترسخ هناك. ثقل آخر في العتمة.

إذن فهو يعتقد أنني احتفظ عنه بتلك الافكار: إنه ادعاهـا لنفسه وباعها في مصر – كما لو كان هذا يهمنـي – ولكـن الشيء الغريب.. تلك القسوة الجامدة العمياء.

وفي المحطة قال في غمرة الحديث: يا لها مـن حيـاة حزينة!.. وأجبت في ثقل أبدا يا أخي دي حياة جميلة جـدا.. وامتدت ظلال الشيء الغريب مرة أخرى وأحسسـت بجمـود اللعنة.. عندما رد قائلا: أيوه ما هو أنا بتظاهر أن الحيـاة دي حزينة..باستدر " العطف " وأشياء أخرى من هذا القبيل. ولـم يعرف. لم يحس. لم يخطر بباله قط أنني عندما قلت إن الحياة جميلة كان في الكلمة ثقل في الإحساس بالوحشة لا يحتمل. أن الكلمة كانت تأييدا لكلمته هو أنني لم يخطر في بالي قط إلا أن أؤمن على كلمته.. بطريقة خاصة.

ولكننا غرباء .. نحن في هذا الركن من الوجود. غرباء لا نفهم بعضنا بعضا ولا نعرف بعضنا بعضا.. منفيـين فـي أنفسنا.. مدفونين في تراب البؤس الـذي بلـى ... والـدموع المهلهلة.

وفي المساء، كان يحدث أحمد صبرى يأخذ منه ميعـــادا للغد. ولكنه لم يشر إلى بكلمة، وذهب ذلك الصمت الذي تـــلا أتفاقهما على الميعاد، ذهب كطعنة أخرى، وانقطع الحيوان في نفسي عن عوائه لأن كل شيء قد نساه وارتمى على الأرض، ونظر بعينين جافيتين إلى ظلمة الغسق.

وانزويت.. انزويت في الظلمة.. كأنني لم أرد أن أنفجر. لأن الدموع أشياء رثة لا معني لها. ولكنه أعطى ميعادا هـــو بنفسه.. ميعاد اضطر أن يعطيه من اجـــل خـــاطر المعرفـــة القديمة..بعد ثلاثة أيام.

غرابة الأيام.

وفيق... لو كنت تعرف أي عمق من الحاجة في نفسي.. أي عمق من الحاجة إلى رفيق.. الحاجة إلى إنسان اعرفـــه .. لكي يعرفني. لكي أهمس له بأغاني القديمة. أعاني أي عمـــق من الوحشة. مع الشعور بالانزواء. بالانسحاق في الظلام.

هأنذا تتمزق نفسي بحثا عن رفيق. لأنني لست أطيق هذه الوحشة. لست أطيق أن أموت في شقائي العتيق..

لست أقوى أن أرتمي على الأرض أخيرا بجانب جدار كهفي. وأنظر وحيدا إلى ظلمة السماء. والى القافلة الغريبة. بينما أنا قد نستني قافلتي. وتركتني للجروح التي جفت دماؤهــا. ومــا زالت تنزف بعد.

لو كنت تعرف يا صديقي لما ارتفع ذلك الشيء الغريب فإن لك في النهاية النفس التي تستطيع أن تفهم وأن تعــرف.. أن تحب.. لأنك الرفيق. الذي عرفته عندما كنت اتفتح للحياة. ولن تنسى الحياة الفجر الذي تفتحت فيه. لن تنساه. لن تنساه.

ذلك الشعور عندما أنظر حولي في كل هذا العالم.. فــلا أجد أحدا يذكر أنني ما زلت موجودا... أنني مــا زلــت فــي حاجة للإنسان الذي بليت أقدامي في البحث عنه .. والذي لــم أجده ..لأنني أنا نفسي قاس وشقي. لأنني أجعل نفسي كريها.. لأن المحبة فيّ – كما يبدو – هشة لا تقوى على شيء.

هشة ؟ كلا.. كلا إنها مبثقة من غور الحاجة إلى الحيــاة نفسها. لست أستطيع أن أعيش. لست أستطيع على الإطلاق.. إذا لم تكن في نفسي محبة للإنسان. محبة للرفيــق. ولكنهــا

محبة منكمشة في ذاتها منزوية في ظلمة الكهف لأنها منسية.. لأنها تحترق في صمتها.. لأن أحدا لا يهتم.

لست جديرا بشيء... هذا هو التفسير الوحيد .. لست جديرا بشيء...

هذا المرض القديم.. ولست أستطيع أن أعوى في المساء قليلا.. ذلك العواء عواء الحيوان في البرية..لا أحد يحسه لا أحد يسمع.. ولكنه يرتفع متمزقا من الروح تنزعه من العمق الجروح النابضة القديمة. التي تجف.. ولكنها تحز في النفس وتدمى مرة أخرى هذا الإنسحاق. هذه الدموع الرثة.. أما آن لها أن تمضى الآن؟ أما كفاها؟ والبرية موحشة... فارغة.. وأنا خارج الأسوار في الظلمة.. (كم يبدو ذلك كله الآن زائف النبرة، مع كل صدقة وحرارته، ومع إحساسه – حتى في ذلك الحين – بإسراف العاطفية ونواحها المنفر) .

في ١٩٤٦ تخرج كامل الصاوى، معنا، وبينما ظلت سنة تقريبا بلا عمل، غرقت خلالها في النشاط الثوري حتى استبد بكل لحظة من يومي وبشطر كبير من الليل أيضا، وأنا مع ذلك لا أني أواصل ارسال خطابات طلبات العمل وأتلقى

جوابات الاعتذار المهذب، عرفت انه عين معاون نيابـة فـي الجمرك، فور تخرجه بترتيب " جيد " فقط .

أصبح إذن جزءا من السلطة، من أجهزة القمع القـانوني أو المقنن، هل نسى هيجل، وتروتسكي، والفلسفة الثورية؟ كان هذا هو المنتظر، طبعا. وتم الانقطاع.

وبعد سنة أخرى فقط، قبيل أن أعتقل مباشرة، قرأت في " الأهرام " أن الأستاذ كامل الصاوي، معاون نيابة الجمـرك بالاسكندرية، قد لقى ربه إثر حادث إليم، فقد غلبته سنة مـن النوم وهو يدخن سيجارة، واتضح من التحقيقات أن السـيجارة المشتعلة سقطت على السرير، وتوفى سيادته محترقا في شرخ الشباب بينما المستقبل الزاهر ينتظره، رحمه الله رحمة واسعة.

صدمني الخبر، وهزني، رغم كل شيء.

راودتني أفكار شاردة عن احتمـالات مـوت متعمـد، مقصود عن وعي أو غير وعي. أهي فضيحة جنسـية؟ هـل كانت بطلتها الأم الأرملة المتحررة، أم الخادمة التي تضـخم بطنها؟ أم هو شق عميق لم يبرأ بين الثورى القديم وبين رجل السلطة، وخطر لي أن حسه الخلقي الكامن ربما يتيقظ فجـأة،

تغلب على " موضوعيته " العلمية، ودفعه إلى حافـــة النـــار، فتردى، أم لعله قد علا؟ هل كان النوم (أو الموت) قد غافله فعلا؟

ظل سريره المشتعل يؤرقني شيئا ما، ويحيرني.

قربان الموت، الأخيــر علـــى شـــاطئ " الجـــانج " أو "الستايكس " سواء، هل لقيته نمِفْيِةّ.. النهر العـــارم الـــذي لا غلاب له والذي يصب في غيابات الظلمـــة، قاطنـــة الغـــرب النائي، على حواف الليل في مأواها المظلـــل بجبـــال معتمـــة شامخة، سريرة المرتفع وأحطاب الوقـــود عطـــري الرائحـــة وأعواد البخور وترانيم التعبد والتذكر باصوات رتيبة النغم في الحر الذي يسحق الحس ويعطل الفكر.

ألسنة اللهب متطايرة تصعد إلى العنان والدخان والعبـــق الأبيض به شرائح دسمة سوداء يفلت من بين النيران صـــوت أجيج الاشتعال وفحيح اللظي لا يكاد يخفى طقطقـــة العظـــام المهيضة التي تتقوض في الحريق ولا لزوحة الأوصال التـــي تذوب في حنوطها تحت هرم الكومة المتقدة.

سرير كامل الصاوى في غرفـــة نومـــه البورجوازيـــة الضيقة في محرم بيه قد احترق به بصمت، دون نجـــدة، دون ترانيم، وانطفأ من تلقاء نفسه، وترك البقايـــا وســـط الرمـــاد وجذجذات متفحمة من القطن والقماش والأســـلاك المتلويـــة، تحت المصباح الكهربائي الذي ظل مضيئا في نـــور النهـــار، تدحرجت نظارته الذهبية الإطار وسقطت على الأرض وبقيت سليمة وصافية، مات وحده، دون حب، دون مجد.

قالت لي: لو كنا في الهند فلن أكون أنا الذي أحترق معك على سرير موتك. ليس مكاني على سريرك الأخير المشتعل.

قلت: مكانك اشتعال آخر، حى أبدا، ليس له انطفاء.

٢ – وسوسة الهواجس الراسخة

" أقسم جسمي في جسوم كثيرة "

وأزداد غنى بالقسمة. في التشتت كمال. البـــدد يضـــمني إلى ذاتي.

أما شهوات الروح فهي غير مقسومة.

شهوات الروح تفح وتتلوى. ثعابين بين أنقاضها.

لا ضربات السنين تقــوى عليهــا، ولا قــبلات الحــب البغضاء الدامية.

ولا حريق الأخيلة.

للروح أيضا مخالبها.

ناشبة في لحمي.

ناشبة.

والصليب الداخلي ثقيل على كتفي الداخليتين المرهقتين.

الطريق إلى جلجثتي زلق وعر الانحدار.

قدماي العاريتان مجرحتان، قطرات الدم تتحجر بمجــرد أن تنز من الجروح الدفينة، وتتدحرج تحتي، لا تصل إلى قاع.

قلت أليست هذه استعارات، وأماكن، ومجازات، قديمة بالية؟ لماذا تحملها حتى الآن؟ قلت.

قلت في العالم ألم لا يطاق حمله.

هل خطر ببالك لحظة أن تحمله؟

وأنسى وجع أسناني، وأنسى مسرات بائدة، بينما الساعة تدق العاشرة.

أحاول أن أنسى كذلك نشوات غير معترف بها أصلا، وحسرات أخرى، الحذاء ضيق عند مقدمة قدمي،فتاة منذ أربعين سنة، لم تقل لي " أحبك " .

أنفاس الحلم قريبة من وجهي، حارة، أشم بخار أحشائي.

أتخبط – ولا أتوه – في أروقة العلاقات القديمة المتشابكة الحنايا، في ممرات النفس الداخلية، شباكها الملتوية صخور، حية، تنبض، بينما القمر يسقط أمامي، أنقاضا، والنجوم الهالكة.

أوهام سامقة مبنية صروحا من الخيال العتيق، تحترق.

مسوخا جافة العظام، شاهقة، تحترق، تحترق.

على الورق الأبيض المسطر (اثنين وثلاثـــين ســطرا للصفحة).

وبقلم رفيع السن، أسود، غير طيع.

امرأة رينوار عارية تنظر إلى بعينين مفتوحتين.

موسيقى الجاز من الستينيات

وأذان الظهر، ورائحة الأرز المسلوق، على النار، مـن يميني أقول لنفسي: لست محاصرا. لا. لا..

هل أنا في قلب حصار من نوع ما؟

هل كان بيتهم آخر بيت في شارع سد، هادئ، قصـير؟ وهل كان رملي التربة، غير مسفلت؟ ويتفـرع مـن شـارع الرصافة الأرستقراطي المظلل بشجر وارف عريق؟

وهل كانت غرفته لها شرفة فيها زروع صبار؟ (لم أكن أعرفها، كانت تسحرني) هل كانت هذه الشرفة في تاني كات مباشرة، تطل عبر الشارع الرملي الخاوي، نقي الهواء، علـى حديقة لها سور حجرى (أحجاره بيضـاء، رماديـة غيـر مستوية الحـواف) ووراء السـور غيطـان مزروعـة ذرة، وبقدونس، وجرجير، وملوخية، وأشجار توت ومنجة وكافور؟

ومع وثقافة القربي لم يكن أحد منا يعرف – أو يســتطيع – أن يسأل عن جوانب شخصية من حياة ســامى . (وحتـــى الآن لا أحد يسأل، كأن السؤال اقتحام لا مبرر له، لمنطقة غير مسموح بالدخول إليها، أصلا، هل هذا صحيح؟).

لم نعرف – مثلا – أن له أخوات، وليس له أخــوة، إلا بعد ذلك، وكنا نتناقل همسا وفي غير يقين (هل كان قدال هو الذي قال لي؟) أن والده كان ناظر محطة في ســكك حديــد السودان، وأن سامى ولد في الخرطــوم، وإن والدتــه كانــت فرنسية، وأنها ماتت عند ولادته أو في طفولته المبكرة، ولــم يتزوج أبوه بعدها، فهل هذا صحيح؟

كان سامى – وربما لا يــزال – يحــوط علــى حياتــه الخاصة، كأنه ينفينا عنها، يتحصن وراء سور مــن الــتحفظ والسر، لا أحد يتخطاه إلى الحقول الداخلية، لا أحد.

جغرافيا الروح لا خريطة لها.

وكان والده – وما زال، بعد أن بارحنا كل هذه السنين – مهيب الحضور ودمث اللقاء معا، طويلا، جسيما في غير تكتل ولا ترهل، داكن السمرة، خطــوط وجهــه أمينــة صــارمة

الاستقامة، هكذا أذكره، بعد كل هذه السنين، كان يلــوح لـــي برجا حانيا وآمنا ولكنه منيع.

أما سامى فقد كان – وما زال – رقيق الجســم، أشــقر، شفاف الوجه تقريبا ولكنه دقيق التقاطيع، أنيقا في غاية الأناقة والبساطة، منذ أن عرفته، ويبدو كما لو أن كل شـــيء فيــه – قسمات وجهه وخطرات حديثه، ونسق ملابسه، سواء – مختار بعناية، كلها، بحساب وذوق، وكلها مأخوذة بأطراف أصـــابع مرهفة الحس، وقوية التملك، في آن، وكـــان، منـــذ الصـــبا، يستطيع أن يكون صادا، قاطعا، ويستطيع أن يكـــون مرحبـــا، مضياف الروح.

ومنذ الصباح كان يملك أداة عقلية حادة النفـــاذ وعميقـــة الوقع، ترفدها مقدرة تكاد تكون خارقة على متابعـــة الأمـــور حتى غايتها، ودأب في الدرس، وصبر على مشقته، حصـــافة في النظر وقدرة على الإحاطة.

لذلك كان يرهبنا قليلا.

وكان يبدو – ولعله ما زال – بالفطرة أو بدرية للـــنفس أوشكت أن تكون سجينة ثانية؟ – مترفعا عن صغارنا اليومي

وعبثنا المجاني وتخبطنا الصبياني – حتى الآن؟ – بين الحماقة واليأس والصخب.

فأي يأس داخلي أكثر عمقا، وأنضج لوعة منـــا جميعـــا، كان يسكن روحه؟

الاسكندرية ٣ أغسطس ١٩٤٢

عزيزي...

لماذا تأبى أن نلتقي أحرارا كبيرى القلوب في أفق الفكر الصامت؟

ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنســـاني الـــذي ارتجف له؟

ولم تجعل من إيمانك الإنساني درعا لقلبك؟

هناك مسئولية تحيا وحيدا معها فـــلا تجعلهـــا تشـــعرك بانفصاوحدتك .. لأن من تراهم ينبذونك، أنت تحيا لهم، فاجعل من آلامك عيدا لكل إنسان وهو يتردد الألم في آفاق كل نفـــس ما لم يكن إنسانيا؟

أنني أريد أن أكشف لكم جميعا عن ذلك الجلال الذي يتردد بين العدم واللانهاية. وأرغب – لو استطعت – أن أجعل من نفسي أرغفة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا هذا النزوع الإنساني الحار كالصلاة الذي يدفعنا إلى وضع عدالة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفاني.

إنني إذ أحدثك أحدث فيك فضيلة الحرية التي حدثتك عنها.

ومن يدري؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كلية ولعل الفناء هو الذي يدفعني إلى تملس الجانب الخالد في كل إنسان.

أجل ... كثيرا ما يكون الفناء لنا بصيرة.

أريد – بحبي – كل إنسان أن يكون كالمعبد، نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبنوع من الإلزام الخلقي.

سلمى

هل أقول الآن – لماذا؟ – أن هذه الرسالة، على أكثر من مستوى، عاشت، ومازالت تعيش في قلبي، كأنها أتتني بالأمس، كأنها الآن.

كنا نقرأ في شرفة بيت شارع أبو المجد ترجمات لشـعر بودلير، هل كان سامي هو الذي ترجمها مـن الفرنسـية، أم كانت منشورة، أم كانت من عمل ناصف وصفي؟

في تلك الأيام كان ناصف وصفي، ومصطفى الحجـار، يكادان يشارفان الكائنات الأسطورية، في حسنا، على تـراوح بل وتناقض بينهما. كانا اكبر منا جميعا بسنوات قلائـل، فـي تلك السن كانت حاسمة، وكانا في أواخر سنى الجامعة، قسـم الفلسفة، ويتقنان الفرنسية، ويعرفان الألمانيـة، وقـد درسـنا اليونانية واللاتينية على أيدي أسـاتذة لا يضـارعون، وفـي الفلسفة، يوسف كرم ونجيب بلدي وأبو العلا عفيفي، وعلـيهم درس سامي أيضا، بعد ذلك، وكان فـي الاسـكندرية عندئـذ جامعة حقيقية، أما كازانييف الفيلسوف الشاب بطل المقاومـة الفرنسية ضد النازي، وجرينييه أستاذ ألبير كـامي، وليـدل، وانرايت (صاحب " السنة الأكاديمية ") فلعلهم جـاءوا فيمـا بعد، أم أنني أخلط بين التواريخ؟ ما هم، وهو أنا عقلي دفتـر. كما لا أني أقول؟ ولعلني أيضا أخلط بين الأشخاص، منـابعهم ونوازعهم سواء.

وعندما التقيت بمصطفى الحجار، أول مـــرة، راعتنـــي المقاربة بينه وبين سامي، صدمني التشابه، بل التطابق أحيانا، بين طرائق كلامهما بل وبعض العبارات المتكـــررة ولـــوازم الحركة والإشارة والتلويح بالذراع والصمت عن إكمال الجملة في موقع حيوى منها والإغراق فجأة في ســـهوم " فلســـفي" لا يجرؤ أحد على اختراقه، وهكذا، مع تراوح بين حيوية الحجار وامتلائه فيزيقيا وتدفقه وحسيته الصاخبة وضحكته المجلجلة – كان ابن بلد من بحري – وبين رهافت سامي وتحفظه وترفعه شيئا ما.

أما ناصف وصفي فقد كان شيئا آخر بالمرة، ولعله كان آفاقا قليلا أو كثيرا، ولعله بعد ذلك قد شارك – أو تورط – في عمليات مريبة، أو على الأقل غريبة، وعلى مســـتوي دولـــي، هل كانت عمليات تجارة أم تهريب سلاح؟ أم تدلس أو تسريب وثائق؟ أو – ربما – مخدرات، وهل تزوج ناصـــف وصـــفي يهودية عاش معها في باريس سنوات طويلة، أم فقـــط عـــاش معها دون زواج؟ أم أن ذلك كله من محض خيـــالي والتبـــاس ذكرياتي وتخليط أوهامي؟ جلست معه مرة على قهوة ريـــش

بعد ذلك بسنين – بصدفة بحتة – وحدثني طـويلا وبحـرارة وذلاقة لسان عهدتها من الصبا، وقوة اقناع لولا أنني أعرفهـا وأحذرها لرحت ضحية لها، عن سفره إلى المحـيط الهـادى لتصوير فيلم عن الحياة البحرية في الأعماق، وعن المعـدات التكنولوجية التي أعدها لهذه المهمة – كأنها مهمة جاسوسية – وبدا لأول وهلة انه سـيطرح علـى فكـرة مشـاركته فـي "المشروع" لولا أنه حدس أنني أولاً غير مقتنع، بل منكر مع أنني صامت، وثانيا أنني مفلس أعيش أنا وعائلتي مـن اليـد للفم، كما يقال.

وربما كان ذلك كله من وهمي.

كان سامي، ونحن في الثانوي، يحب أن يقف على " قمة" المبنى الأول في المدرسـة، علـى حافـة حـوض الزهـور المخضوضر اليانع، وحده، شعره الأشقر يتوهج في الشـمس، مغمورا في تأمل ينفى عنه كل شيء خارجي.

وكان أبرز رسامي " الجمعية الفنية " وأوضحهم موهبـة ومقدرة، رسومه عندئذ – والآن – مشرقة، مضيئة من الداخل ولها منطق حساسية خاصة لا شأن له بمنطق الخارج، بينمـا

كنت في حصة الرسم أكوم الألوان الكثيفة المضطربة على ورقتي البيضاء، وأخلط الخطوط، وأضيع نسب المنظور وغير المنظور.

لليوميات بقية.

الثانية عشرة ليلة ٣ ابريل ١٩٤١

كتبت قطعة أخرى.. أو صورة أدبية..أسميتها " حلم ليلة" ...... فإلى أين سوف تسوقني الأحلام.. إلى أين؟.. إن لي حنينا، طاغيا، إلى.. عينين ساحرتين.. ألا ويح القلب، إن بي حنينا.. إنني أحلم..

الحادية عشرة مساء يوم ٤ ابريل ١٩٤١

قضيت الصباح في المدرسة متنقلا بين أنحاء المعرض، وبعد الظهر في الخارج متنقلا بين أنحاء الشوارع والطرقات، ولقد أخلف جورج، لعنه الله، ميعادا ضربه لي وتركني أحرق الأرم (يعني إيه؟) حوالي ساعة على جمر الانتظار العقيم... ولكني لست في قابلية للاكثار من الكتابة فقد كتبت أربع صفحات خطابا لسمير، تعس أيها القلم.

الحادية عشرة مساء ٥ ابريل ١٩٤١

أذكر بالأمس .. فقد ضـــللت طريقـــي بـــين آلاف مـــن المخلوقات البشرية تنصب انصبابا من أبواب ملعب البلدية .. دارت عيناي بين هذه السيول الإنسانية الهادرة المتدفقة.. التي تطن وتصخب.. همسات.. ضحكات.. أحاديث.. كلها تتجمـــع لكي تتصاعد في لجة واحدة من الضوضاء.. التي تترك المرء حيرانا بل مرتاعا.. ثم عدت إلى المنزل وفي رأسي حطام من شتى الأفكار وفي عيني بقية من نظرة ساهمة محملقة .. وفي قلبي.. ثقل وحزن وشبه انقباض.. هذه هـــي الحيـــاة.. تلفـــظ الملايين من أبواب القدر.. لتتركهم في سحب من الضوضـــاء والضجيج.. والسخف والحيرة والضلال.. قد نجد هنا أو هناك في وسط هذا الغمار.. شيئا يتمثل فيـــه الجمـــال.. زهـــرة.. لمحة.. عبيرا متصاعدا.. ولكن سرعان ما يطغي عليه الموج الهادر.. ثم يتفرق هنا وهناك زبدا متطـــايرا تـــذروه الريـــاح وقطرات متساقطة.. تبتلعها الرمال قضيت الصباح أيضا بـــين رحاب المعرض.. وقد قابلت وفيـــق.. فمرحنـــا.. وعبثنـــا.. وضحكنا.. حقا أنني لأحاول بذلك أن أخفى رغبة في البكاء.. تماما كما قال وفيق.. وضاع منا جورج ..بعد أن نالته نظـــرة

مسمومة من.. ولكنه اختفى فجأة.. كما يفعل الفلاسفة " اللـــي بصحيح..!! " .

حقا كم هناك فالحياة شوائب كدرة تعكر بعض صـــفوها، وتلقى ظلها الأسود المعتم المقبض على أشعة نورهـــا.. فـــي المعرض صورة رسمها سامي تمثل الربيع، وهي حقا بديعة.. فتاة تتأمل باقة أزهار، على وجهها مسحة من " روح الربيع " خفة، سمو، جمال نقى صاف، نضارة، شباب متجدد يكاد يعبق عطره، أليس هذا هو الربيع؟ وفي عينيها نضرة عميقة عمـــق الحياة، متأملة، راضية، ساهمة، فيها عجب وفيهـــا طرافـــة، وفيها سحر آخذ بالألباب.

لست أدرى، من وضع أمام هذه الصـــورة.. مخلوقـــا لا يستحق هذا اللقب.. يدعي أنه فنان.. ولست أدرى أيضا بـــأى حق تحت السماوات كان يشرح فكرة الصـــور المعروضـــة.. أقسم لو أن راسميها سمعوه لمزقوا شعورهم وملابسهم.. بعـــد أن يمزقوا صورهم..!! وهكذا عكر هذا السمج تلـــك الهالـــة القدسية التي تنبعث من الفن..

أن بي ظمأ شديدا.. يلهب شفتي.. ويرمي بـــالجمر فـــي عيني.. ظمأ قاتل.. إلى كل شـــيء.. إلـــى الجمـــال.. إلـــى العلم..إلى المعرفة.. إلى .. إلى ... إلى كل شيء.. أنني أريد أن ألتهم.. أنني كالنار.. أريد وقودا دائمـــا.. وإلا احترقـــت.. وهأنذا احترق شيئا فشيئا.. أنني استمد من أعماق نفسي صورا وأحلاما وأخيلة.. أستخرج من ظلامها.. ووحشتها.. أنســـا.. وأتعيض بما أخلقه عما حولي.. إنني أخلو إلى نفسي.. وفيهـــا عوالم بأكملها.. مليئـــة بـــالأنوار.. والظـــلال.. والعطـــور.. والأغنيـــات.. واللمســـات والصـــيحات.. والكائنـــات الحيـــة العجيبة..والاشياء الخفية الرائعة.. والأشباح.. والشـــياطين.. والملائكة.. والاشواك والزهور.. أنني أحب الصمت دائمـــا.. لأخلو إلى هذه العوالم الخفية.. بعيدا.. بعيدا.. عـــن النـــاس.. ولكن عندما أضيق بها.. على سعتها أنصرف إلى العبث والى الجنون.. أن الله وضع في كل نفس جنانا وفراديس غنـــاء.. و وضع بجانبها جحيما وجهنما حمـــراء !.. وهأنـــذا أتخـــبط بينهما.. حائرا ضالا.. أريد أن أنطلق إلى الوجـــود الأكبـــر

الفسيح.. وفي نفسي وجود آخر واسع غريب مظلم.. من لـــي بيد رحيمة منيرة.. تقودني في غمار ظلامه.

الحادية عشرة مساء ٦ ابريل ١٩٤١

قرأت اليوم " جان دارك " لجورج برناردشو، مســرحية من الأسس التي وطدت عليها شهرته ودعم خلوده، فهو مـــن غير شك في صف العباقرة الذين يفرضـــون علـــى الزمـــان وجودهم فرضا.. وما أظنه كان يغلو حين قـــال متهكمـــا، أو جادا، حينما دعى إلى الإذاعة عن شكسبير إنه وحده الثاني بعد شكسبير..

قرأت كتابا .. وشممت وردة.. ورأيت أناســـا.. وأكلـــت جبنا ! ! ! ها ها ها !!.

(و للرسائل، فيما أظن، دور في هذه الكتابة أيضا)

" حضرة الفاضل.. افندي ..

منزل الحاج بدوى أبو الخير، الرحباية، شبرا، دمنهور، والظرف عليه طابع فاروق شابا مونقا بـــالطربوش، بـــاللون الأخضر الفاتح، ستة مليمات.

عزيزي...

انقطعت أخبارك عني مدة طويلة فتراني لا أعرف لـــك مستقرا بالذات ولكني أرجو ألا أكون قد حدت عن الصـــواب وأنا أكتب لك الآن.

لقد كان بالأمس (السبت) الكشف الطبي لطلبة كليتــك وطلبة الطب، ولم يشاهدك أحد هناك، فقلقت للأمر وخشــيت جهلك للأمر.

باكر (الاثنين) يأتي دورنا في الكشف الطبي فأرجو أن أعرف منك ما أنت فاعل وعسى أن تحضر بنفسك حتى تتمكن من دخول ملحق الكشف الطبي.

أرجو أن تهتم بالمسألة جدا وأني لمنتظرك.

سلمي

٤ – حارة أبو المجد – محرم بك

(من غير تأريخ ولكنه في ١٩٤٢ بالتأكيد)

(فهل كان هذا الخطاب قبل، أم بعد خطاب والده)

الاسكندرية – حارة أبو المجد ٤ (الرصافة)

محرم بك

٢٣ / ٧ / ١٩٤٢

ولدي العزيز

بعد التحية والاحترام رجاني ولدي سامي أن أكتب إليك هذا ردا على كتابك إليه – وبالطبع يسوءك معنا أن تعلم بمرضه فقد أصيب بالتيفود من أوائل الشهر الحالي فعولج بالبيت نحو عشرة أيام وعندما بدأ دور النقاهة وهو أخطر الأدوار أرسلته إلى هناك وهو الآن نزيل مستشفي الأمراض المعدية من نحو عشرين يوما على أن هذا الدور الأخير قد مر على ما نحب جميعا وهو الآن تحت الرقابة الشديدة خوفا من المضاعفات وهي خطيرة – على أن العاديين يظنون انه شفى وقد يكون ذلك حقا من بعض النواحي.

هذا مجمل الحالة شرحتها لك كأخ يهمه الاستفسار عن حال أخيه

وأرجو أن اكون بهذا قد قمت بالواجب

أني يا ولدي ختاما أقدم لك تحياتنا وشكرنا ودمت لوالدك

محمود محمد علي

والظرف، هذه المرة، لحضرة الشاب الأديب.. افندي.. المحترم، وعليه طابعان لونهما الآن وردي باهت، كل منهما

بثلاثة مليمات، وبنفس صورة فاروق الفتي، وأختـــام البريـــد المستديرة الكبيرة واضحة التاريخ، بالحروف الإنجليزية jL p 730 42 23JL أما خطابي إلى وفيق فقد كان مؤرخـــا، من الداخل، ١٦ / ٧ / ١٩٤٢.

عزيزي وفيق

كنت قد وعدت سامي أن أقابله في يوم الخميس الـــذي يتلو الخميس الذي يتلو " خميس العهد " (و خميس العهد هنـــا هو الخميس الأخير الذي قضيته معك).

ولعلك تذكر أنك قلت لي " حتى ميعاده ميعاد فلسفي ".

وأخيرا جاء الخميس الموعود .. وعلى رغم انه لم يكن لدي ما يشغلني فإنني لم أرد أو لـــم أســـتطع أن أذهـــب ... لماذا؟.. ليست أدري .. كل ما أعرف أنني لـــم أســـتطع أن أجعـــل قـــدمي تطيعـــاني فأذهـــب إليـــه.. وهكـــذا اخلفـــت الميعاد..وأشعر بشيء من الحزن.. والكآبة.. وفي يوم السبت التالي.. ذهبت أروح عن نفسي بالمشـــي علـــى الكـــورنيش.. تعرف المثل القديم " الي يخاف من عفريت يطلع له " وهكـــذا

"طلع لي ".. مع الفرق طبعا، فليس سامي عفريتا، ولست خائفا منه بل كما تعرف أحبه..

ووجدته يمشى مع عبده افندى ميخائيل حوالي الساعة السابعة والنصف... وقد قضينا ساعة في حديث عادي.. واعتذرت له اعتذارا له نصيب من الصحة قلت إنني كنت مشغولا بإعداد المعدات للسفر إلى دمنهور ...

وبعد نصف ساعة.. اعتذر عبده افندي بالتعب.. ثم انسحب. ومن الساعة الثامنة.. إلى الساعة الحادية عشرة والنصف.. كنا نتكلم.. أو على الأصح كان هو يتكلم .. وكنت أصغي.. لم أدر ماذا حدث له ولي.. فقط كان يتكلم بحماس واخلاص وبراعة وروعة.. والواقع أنني كنت أصغى إلى حديث رائع نادر مشوق.. وأخذنا نسير تحت ضوء القمر الطاغي.. وجلسنا على العشب الأخضر أمام بناء محطة مصر.. وصمتنا قليلا..

وفي السكون... سكون الساعة الحادية عشرة، جاء صوت كروان ساحر.. وانطلق سامي بعد ذلك يتكلم، ويتكلم، في انشودة ساحرة..

فيما كنا نتكلم؟ أنت تعرف.. فلسفة وأدب .. وفن.. إلخ، كان يتكلم عن الفن.. والفنان.. بالنسبة للحياة.. وعن " الفكرة الإنسانية " وعن " السبب الكافي " وعن فكرة اللامتناهي، وعن غائية الفن، وتصوف الفلسفة، والانتشاء الصوفي، والصمت الروحي، وعن اعتدال أرسطو .. والأدب الروسي، والسيريالزم والاجتماع، وعن إدراك الغاية، وعن فلسفة الحقيقة.

وقد أجد الوقت الكافي للكلام عن كل ذلك في خطاب قادم لك، إلى هنا كان الأمر عاديا، فكثيرا ما كان يكلمني عن مثل ذاك..

أما أن يتركني في الساعة الثانية عشرة، لكي يعدني باللقاء في الساعة الثامنة صباحا.. ففي ذلك بعض الغرابة، أليس كذلك؟

قابلته فعلا في الساعة التاسعة صباح الأحد، وكنت معتزما السفر إلى دمنهور في الساعة الواحدة..

وبين التاسعة والثانية عشرة، حدث الشيء الغريب.

أخذ يتم بعض حديث الليلة الماضية، فتكلم عن خصائص الفن.. وعن مزيفي الفن، وعن فن طاغور، وعن فكرة أرسطو عن المقولات، وعن كتاب لإسماعيل أدهم " لماذا أنا ملحد؟ ".

ثم أخذ يتكلم عن الأدب المصري، وعن التعبير عن الروح المصري وأخذت بعض الكلمات تتجمع وتتير في ذهني.

شرع يتحدث عن امانية في الأدب المصري، ورجائه أن يظهر أدب مصري حق، يعبر ببساطة وصراحة وصدق عن الروح المصري الذي لم يجد أديبا واحداً يعبر عنه، كما عبر طاغور عن الروح الهندي، وكما عبر أدب الفراعنة عن روح الفراعنة.

قال إنه يأمل أن أكتب شيئا عن الروح المصري.. أدبا إنسانيا وعالميا.

وقال لي " هل تعرف انني أتصور أن فيك كل العناصر، وكل الخصائص التي تتيح لك ذلك؟ لك أيضا تذوق عظيم لنشيد الانشاد، وهو الأدب البسيط الصريح " .

هكذا قال.

كنت أتصور أنني لم أجد في حيـاتي كلهـا إلا صـفير الرياح بين السحب السحُبُ المتهجمة ثم ها هـو ذا صـديقي يقارنني بطاغور، ولو على سبيل التمني.

الإنسان الوحيد الذي قال لي هذا، هو الإنسـان الوحيـد الذي لم أكن انتظر منه شيئا من مثل هذا، على الإطلاق.

بهت بالطبع .. ودهشت .. بل – بكل بساطة – صعقت.. وصمت صمت القبور.. بينما أخذ هو يشرح ويتكلم، ويـتكلم ويشرح.

وأنا صامت ساكن، أمشي بجواره، مشيا آليا.

ضاق صدره اخيرا فصاح بي: ايه ... ما رأيك؟

قلت: بديع.

قلتها مكورة مختلطة متحشرجة، اختلطـت فيهـا البـاء بالعين..., ولم يستغرق نطقها ربع ثانية، ولم أثن بكلمة واحـدة بعد ذلك، لكنه قال، كأنه لم يلحظ شيئا: " أليس كـذلك بـديع جدا".. قالها بحرارة و إخلاص، دهشت لهما، وعـاد يـتكلم ويشرح، ويتكلم، وعدت أصمت.

لم يكتف ... بل قال لي إنه يهمه أن أكتب له، وأعطاني عنوانه، وأعطاني كتاب " جمهورية أفلاطون " .

وفعلا سافرت.. مثقل القلب، لست أدرى لماذا.. وكتبت له منذ أيام ... ولم يرد على بعد.

الآن ما رأيك في هذا.. ألست تجدها صدمة.. حسنا، هكذا حدث، وإن كنت لا أعرف لماذا حدث، أحقا يجد في، في أنا، بعض أو كل الخصائص التي تكفي لكتابة أدب مصري حقا، إنساني حقا، أيجد في مثل هذا الجوهر؟

لست أدري.. لقد كنت معتزما قبل أن يحدث هذا، أن أكتب رواية " ضخمة " أجعل الريف مسرحها، ولست أدرى كيف علم بهذا، على رغم أنني لم أحدثه بحرف عنها، ولم أحدث أحدا بحرف، عنها لكنه لم يتكلم إلا على الريف المصري، وعن " نفسية " الريف المصري، فهو يعتبر أدب تيمور، أدبا صناعيا، وأدب محمود كامل أدبا بورجوازيا أي انه أدب العامة أو الطبقات الوسطى العادية، وتوفيق الحكيم له أدب لا شخصية له.. أدب لا نكهة له..أدب يستطيع أن يغير من أسماء أبطاله فيصبح أدبا فرنسيا مثلا أو انجليزيا أو

ألمانيا، لأنه ليس هناك الروح المصري.. ومـــذكرات نائـــب "رواية مائعة " .. أما عودة الروح فهو لم يقرأها.

ولكن أنا – أنا – في كل العناصر الكافيـــة لانتـــاج أدب مصري إنساني.. يا للسخرية.... !!

لست أدري – ولا أهتم – إن كانت الأيام ستحقق أمنيـــة الفيلسوف إلا أنني سأقضي حياتي عنكبوتا ينسج في الظـــلام، نعم لست أدري، ولا أهتم، لأنني ســـأحيا ... وســـاموت، ثـــم أذهب زبدا باطلا....

(وبعد خمسين عاما – أكثر – كتبت " حجارة بوبيللو "، هل حدث ما تمناه سامي؟)

عزيزي المحبوب

لقد طال حديثي وطال جدا.. كما طال تأخري.. فـــأرجو المعذرة عن الحالين.. نحن الأدباء المساكين مسرفون في كـــل شيء.. متطرفون في كل شيء..

فقط أرجو أن تتطرف وتتطرف.. في الإسراع بخطابك.. وفي إطالة الخطاب إلى الحد الأقصـــى .. ومـــا وراء الحـــد الأقصى.. نعم أنا في حاجة شـــديدة ملحـــة إلـــى مثـــل هـــذا

الخطاب.. لأنني منذ أن نزلت دمنهور يوم الأحد الماضى إلى الآن.. لم أجد إنسانا واحدا أكلمه.. بل قل.. لـــم أتكلـــم علـــى الإطلاق.. اللهم إلا الألفاظ الباردة العادية التي تسقط من الفـــم سقوطا كلما جاءت الظروف..

فقط.. قرأت.. وقرأت.. حتى سئمت حتى القراءة..

عزيزي وفيق

أرجو أن تكون في خير حال يمكـــن أن تكـــون فيـــه.. وأرجو أن تكون قد رجعت إلى صوابك.. وأن تتكلم كما يتكلم العقلاء إذا شاء " الرب القدير "، وهأنذا منتظر مـــن الآن ردك الحافل الطويل السريع.. وأرجو فقـــط أن تنـــتقم منـــي لهـــذا الخطاب الذي طال، وطال جدا.

والعجيب أنه لدي الكثير جدا مما أود أن أفضى لك به.. ولكن اطمئن فإنني لست مستغنيا عنك.. أو مفرطا فيك حتـــى افعل شيئا من هذا القبيل.

وأخيرا.. تحيات وأشواق المخلص

١٦ / ٧ / ١٩٤٢

" العنوان كما هو .. واحترس من علامة التعجب اياهـــا .... "

تجيء الرسائل تترى، تنهمر على من الزمن، ألها زمن؟

بعد ثلاثة أيام فقط، كان هذا الخطاب يكتب الي:

عزيزي... افندي تحية وبعد،

يؤسفني وقد كلفت الرد على خطابك، أن أتأخر كل هـــذا الزمن، الأمر الذي لم أكن أريد، ولكن أرادني عليه الكسل، اما لماذا تتسلم خطابا من قدال وقد كنت تنتظره من سامي، فهـــذه مفاجأة، أتركها لآخر الخطاب، والآن وقد كلفني سامي الـــرد عليك فإنني أجد من حقي القانوني أن أرد بما يعن لي، لا بمـــا قد يعن له، ولكما أن تعتقدا ما تريدان اعتقاده، بل وأن تفعـــلا بعد ذلك ما تريدان فعله.

عزيزي...

كلمتان على خطابك، لك أن تقرأهما أولا، ولكني متـــيقن انك لا بد ستقرؤهما، وإن كنت قد زعمـــت نفســـك صـــموتا صموتا فلست يا عزيزي عيي اللسان، ولعله خطأ أو صواب، لست أدرى، من المقادير، أن توقع خطابك بين يدي، بـــل وأن

تمنحني حق الرد عليك، أنا الذي عرفتني مجادلا منافحا طويل اللسان كثير الصياح محبا للكلام والجدال، أنا الــذي عرفتنـــي معارضا أينما كنت، وحيثما اتجهت، ولأي فــرد أردت، وأن تضعني أمامك يا من تصف نفسك بالصمت والعى والبعد عن الكلام، وتزعم نفسك مريضا بشلل اللسان، فيا لها من فرصـــة أتيحت لبرجين مختلفين مفترقين متباعدين في الســماء، كـــي يضيئا كل بطريقته فتتقابل الأشعة، فينطمس كلاهما أو يقــوى أحدهما فيأسر الآخر أو يتعاونا معا فيضيئا العالمين.

ولعل أول ما يلاحظ طول خطابك الممل، لا إلـــى فــرد عرف بالنضال كشخصي الضعيف بل إلى فرد كســامي، وأن تلجأ، وهذه زلة أخرى، إلى سعة صـــدره، بعــد أن أوســعته حديثا، وكلت كلاما طويلا غثا، فسامي كما قد فاتك أن تــدرك لم نعرفه في اية لحظة من لحظات الحياة التي عشناها معــا، واسع الصدر رحبه بل ضيقه متبرما، ولــم نعرفــه صـــبورا ضابطا لنفسه بل عرفناه ثائرا ضجرا، هذا إلى أن جل حديثك كان عن آلامك الشخصية، والمحن التي تمر بها فـــي قبـــرك بدمنهور، ذلك الذي يؤكد أنانيتك التي اعترفت ببعضـــها فـــي

الخطاب، إن الفرد منا، ليطوى جناحيه على مــا هــو فيــه، وليتحمل آلامه ومشاقه، وليظهر البسمة والسرور اللذين خــلا منهما قلبه، إذا ما قابل فردا مثله وصديقا له، حتــى لا ينتقــل الألم إليه، ولعل الألم ليس شقاء وظلاما، ولعله محــك الــنفس واختبارها، ولعله يا صديقي سعادة عابرة، انحدرت إليك مــن روح قديسة، فطوبى لذلك القلب الذي يتألم، وطوبى لــه فقــد حلت به قبسة من الطهر والنبل والقداسة، فإن كنت الذي يتألم يا صديقي ولا أظنك، فعض على الألم بناجذيك.. أنه ســعادة مشرقة، لا تمر بكل من حولك إلا في لحظات طــاهرة نبيلــة معطرة.

نقطة أخرى، يا صديقي، فإن تلك الجثث الحية الملطوعة على مقاهى قبر دمنهور، تريد منا أن ننفرد لها عجالــة مــن خطابنا، فإنها لفردية أو بالأحرى أنانية منك، لا يرضاها لــك صديق مثلي، فإنهم عبيد ظروف جعلتهم كذلك، تماما كظروفك التي جعلتك عي اللسان صموتا كما تزعم، فــدع عنــك هــذه النظرة الفردية، والفكرة الذاتية، وكن إنسانا يبحث عن مشقات الغير فيواسيها، وعن أمراضهم فيداويها، وكــن إنســانا مــن

الأناسى قبل أن تكون نفسك، ولا تحدث مثل سامي بمثل حديثك، فمثلي يتغاضي عن كلامك، ولكن سامي صاحب النظرة الكلية الإنسانية، لا يغفر لك ذلك، واعمل على سعادة الإنسانية، فإن ذلك طريق الكمال الوجودي، وسبيل تحقيق إنسانيك، ولن تكون إذا لم تعمل كذلك كاملا.

ولم أر في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام

عزيزي ....

لقد طلبت من سامي أن يتفنن في أملالك، هل هو قد اتبع أحسن طريق لذلك، فرزقك بي، لكي أملك مللا لا هروب منه، وأن أفتح دماغك لا أن أغلقه كما تقول.

ولعله من الذوق أن أتمني لك الخير والعافية في آخر خطابي، قبل أن أفاجئك بالمفاجأة التي حدثتك عنها، فقد ذكرت ألمك لمرض أختك شفاها الله، فما بالك إذا كنت أنت مريضا، أو إذا كان من تطلب مواساته من أصدقائك مريضا، فإن سامي يا صديقي مريض، ولهذا كلفني بالرد عليك، وأنا آسف جد الأسف لذلك، ولأن خطابي جاء شديد اللهجة فظيعا، ولكن

افرض انك تقرأ خطابا من زكي عبد السلام مبارك، وليس من صديقك المخلص

محمد عبد المتعال قدال

٥٠ شارع القنطرة المتفرع من شارع مسجد حجاج

بالاسكندرية

١٩ /١٩٤٢/٧

زرت قدال، مرات قليلة، في شقتهم تلك، بشارع القنطرة، على بعد خطوات من المدرسة بالقرب من كنيسة العذراء، هل كنا في الثانوي، نعم، بالتأكيد يعني، على الأرجح.

هل كانت غرفته – مثلنا جميعا – ضيقة ورثة، يتـزاحم فيها السرير المغطي بغطاء كثيف من الصوف بألوان زرقـاء وحمراء وبنية، ألوان نوبية مأثورة، ومائدة خشنة، مـن قبيـل المكتب، ودولاب الملابس الخشبي بضلفته الرمادية تقريبا من القدم والاستعمال؟ وهل كنت تدخل إلى غرفتـه مـن طرقـة مبلطة، طويلة ومعتمة، فيها نفثات متلبثة كسول مـن رائحـة طبيخ خاص (هل هو الأكل النوبي الخاص؟ حريـف، عطـن قليلا على، وراكد ؟).

وهل كانت غرفته تطل على منور مربع يعطيهــا، مــن النافذة، قليلا من الاتساع، ونوافذ الجيران الداخلية المطلة على المنور نفسه، منافذ على عوالم مجهولة لي – هل كان هو على معرفة بها؟ – ومشوقة، لأنها خفية؟ وهل كانت، فيما أتصور، لا تختلف كثيرا عن بيوتنا، متراكبة، متشابكة، ناصلة النســيج وكثيفة الحشو معا؟

كان قدال أحيانا يصمت فجأة، يقطع سيل حديثه المنهمر الفصيح (بالعامية المصرية المثقفة طبعا)، ويرفع رأسه، بشعره القصير، الأجعد، المفلفل، القــوى اللفلفــة، وصــفحة وجهــه الداكنة، وعليها الندبات العريضة المتوازية – علامات قبيلته – لون الجلد فيها أفتح قليلا، وفكه المصمم العنيد.

عمود الأخلاق المكين، كما كنت أقول عنه، بحب، وقليل من الغيرة.

وينصت.

الصوت النسائي، صوت بنــت بلــد مجريــة ومحنكــة النبرات، صوت ملئ بجسمانية تامة، يسقط من المنور:

– يا عزيزة.. يا عزيــ يــ... زة..! يا بت يا عزيــزة إنت فين يا بت؟ ما تقبي بره بقى.. ادى حنا نازلين أهوه.. ! !

الصوت يحمل إلينا كل نسوية الجسم الفتي المغوي.

يقول لي قدال، بسرعة: يا الله بينا، ننزلوا نشموا الهــواء شوية..

وفي لحظة نحن في الشارع، والملاية اللف المطوية بلا عناية حول جسمها تحكم ضمة ردفيها فقــط، وهمــا يهتــزان بموسيقية على الشكربينة المفتوحة واطئة الكعب تــدق أرض الشارع النظيف، شبه الخاوي، في آخر نور العصر، وربــوة العباسية الثانوية بنباتها الأخضر " العسول " شامخة وأنيسة.

كنت أحسده قليلا على هذا النوع من الغــزل المتســتر المفضوح معا، لأنني لم أكن أعرف – عندئذ، وربما حتى الآن – كيف تكون مثل هذه المراودة الملاغاة التشابك المفتوح دون ارتطام.

وانقطعت بيننا الوسائل بعد ذلك سنين عددا، حتى عرفت بموته الفاجع إذ صدمه ترام الرمل، وهو يعبر الشريط كان قد

أصيب بالصمم، ولم يكن يضع سماعة ولم يعرف – فيما أظن – كيف أتاه الموت.

كان الظرف الــذي جــاءني، بعــدها بأيــام، مختومــا بالإنجليزية24 JL 42 830A ياه..! هل أرســله هكــذا فــي الصباح الباكر، لحضرة الأخ الأديب.. افندي..

عزيزي..

تحية وبعد،،

إن كان خطابي صدمة بشعة لك فإن خطابك كــان لــي صدمة مثلة مضحكة، فإنه لم يكن منك إلى قدال بل من توفيق الحكيم إلى العقاد (وأظنك قرأت مهاترات الاثنين).

فقد أتيت بملخص فني جميل لخطابي، ثــم بــدأت ردك "بعزيزي "، ولم يفتك أن تعرض بي، فأنا أبلغ درجات الظلام، سعيت فيه يا عزيزي، وأرجو أن تظل علــى اعتقــادك هــذا "بانك شخص ضال ينتظر الفجر بعد ليلة طويلة مروعة، وإذا به يفاجأ بأن يجد نفسه في منتصف الليل "، وأني لأوافقك على أن أكون ليلك المروع الطويل، وكابوسك المريع، الذي يأخــذ

بخناقك حتى يأتيك الفجر، إن إذن به " من خلق الدنيا في ستة أيام ثم استراح على العرش ".

يا صديقي... إن البرجين بدآ يتناطحان ويتلاكمان، فـــإن تخيلك أنني " أهدر بهذري الطويل على منبر المدرسة " قد أعد إلى مخيلتي حقبة جميلة، مليئة بالنضال، فانني يا سيدي لم أكن أعمل لنفسي، فبعض زملائك وأظنك تعرف من أعني، كـــان في طريق أقل ما يقال فيها أنها طريق خاطئة ضارة، أراد أن يقضى على نظام مدرسة، وأن يملأ بالأفكار الثورية الشــريرة عقولا فتية، وقلوبا طاهرة، وأظنكم جميعا، وأنت يا صـــديقي الأول المبرز، كنت تعادونه ولكن لا يجــرؤ علـــى مقابلتـــه بالعدوان احد إلا قدال، كبش الفداء، بهذرة الطويل، ومهاترتـــه السمجة في رأيك، وأظنك سمعت المدرسة تمتلـــئ بصـــيحات السخرية، ومسرحها يطفح بهتافات الهزء، إذا ما تقدم للخطابة قدال، وأظنك – واسأل قلبي لا ذكاءك الإ بليســـى كمـــا قـــال المغفور له الشيخ عبد الرؤوف – أظنك توافقني على أن مـــا اجتمعت تلك القلوب الشريرة الثائرة على السخرية به لا بد أن يكون خيرا، وأن من يقف أمام ذلك التيار الفظيـــع لا بـــد أن

يكون شجاعا، وأظنني تحملت، حتى في الفصل، عداء الطلبة دونك ودون زمرتك، وماذلك إلا لأنك وهم تخفون الغضب وتحرقون أنفسكم دون ما أحساس من أحد، ولكنني أبي "شكلي" لا أرضى بذلك، لست أرضى بالتواضع، ما دام الحق فيما أقول، ولست أرضى بوصف ما كنت أقول بالهذر الآن، وقد كنت توافقني عليه إذا ما أطل عليك وجه " مجدي نبيل "، وليس الذنب ذنبي فيما قلت ولكنك ألجأتني لذلك فأسفا إن أردت على ما قلتَ وقلتُ.

يا صديقي.. من أقوال علماء البلاغة، إن لكل مقام مقالا، لذلك كنت أهدر على منبر المدرسة، ولهذا كتبت لك ذلك الخطاب، لأنكم جميعا لا تفهمون سوى الشدة، ولهذا أيضا عارضتك يا صديقي في خطابك الأول، فإنك كتبت تقص على سامي آلامك، فما كان قوله؟ أميط عنه اللثام، مضطرا، اضطرني إلى ذلك لجاجك فلا علي.

قال " هذه مقالة صحفية، ليس لديهم أبدا ناحية إنسانية ".

هذا رأيه في خطابك، فلا تحدثني يا صديقي مرة أخرى عن الفرق بين صداقة الاجتماع، صداقة الضرورة، وأحس أنك

تلوح إلى بها، وبين النوع الآخر من الصداقة الروحية، وبين أن تبوح بآلامك لشخص معين من أصدقاء المجتمع... أو لشخص آخر، إذ يجب عليك أن ترى ميول ذلك الصديق الروحي، فليس لمجرد أنك قد أحسست بصداقة خالصة نحوه، تغمره بآلامك، وتصب عليه كل شجونك، لربما كانت طبيعته مغايرة لهذا، ولربما كان مسعاك يسيء إليه، أفتقدم على ذلك، وقد عرفت، أم تظل على جدالك يا صديقي؟

تظن يا صديقي أن المشاركة في الألم تنطوي على نوع رفيع من السعادة، أوافقك مبدئيا، ولذلك حثثتك على أن تغير أفكارك من ناحية الجثث الدمنهورية، على أن لي اعتراضا يسيرا على ذلك، وهو... هل ظنك.. أو ظني يحتم على غيرنا أن يوافقنا على رأينا؟ أو هل لإعتقادنا بذلك نصدم بآلامنا كل من يقابلنا حتى نشركه في ذلك النوع الرفيع من السعادة الذي لا يؤمن به؟ ثم إذا عرفت أن رأيه مغاير لرأينا أفنظل على اعتقادنا ونتحفه رغم ذلك بالسعادة التي لا يعتقدها؟ إن كنت مجيبا بنعم فأنا مجيب بلا. ولقد أعجبني تهربك البديع " أن كل أديب إنما يرى الإنسانية مركزة أو ممثلة في شخصه يا

صديقي.. لذلك فهو إنما يؤدي وظيفته الإنسانية، تامة كاملة... حين يتكلم عن نفسه.. واقصد الكلام الجدير بالأدب ".

ذلك حسن، ولكن هل تظن خطابك الأول قطعة أدبية، صدرت عن قلب أديب؟ إن كانت فأنت واهم، إن خطابك مقالة صحفية، كما يقول سامي، وقطعة من اللغو فارغة يكتبها جاهل لا يدرى مناحي نفسه، كما أقول.

وليس هذا الكلام موجها إليك كما عرفتك، فأنت أديب ولكن إلى كاتب ذلك الخطاب، محكوما عليه بما كتب في ذلك الخطاب.

" أتعتبرني إذن مخلوقا لا يمت إلى الإنسانية بصلة.. ألست إنسانا؟ ألست أتألم – إذا فرض حقا – كما يتألم الإنسان؟ ألست أفكر كما يفكر البشر.؟ ألست أعبر – ولو بضعف – عما يحس به الشر؟ " لم أقل أبدا أنك لست بإنسان، وأظنني في هذا الخطاب نفسه، اعترفت بأنني أعتقد من زمن طويل بأنك أديب، ولكن اسمح لي أن أطبق أسئلتك على قوم قد حكمت أنت عليهم بأنهم جثث حية، أليسوا مخلوقات تمت إلى الإنسانية

بصلة؟ أليسوا أناسا؟ أليسوا يتألمون ويفكرون ويعبرون – ولو بضعف – كما يفعل البشر؟

عزيزي...

أراك تتخيل الألم قطعة من اللحم الشائخ.... ولست أدري، أهو أدب البطون امتد أثره إلى خيالك، أم هو غلاء الحاجات اليوم له أثره في ذلك؟ أم أنك تسخر من قولي "فعض على الألم بناجذيك " فإن كنت تسخر كما أظن، فدع عنك هذا، إن خطابك الأول في يد سامي، اقرؤه عندما أريد، وقد لاحظت عليك غلطات لغوية، ولكن لم أحدثك عنها، لكي لا ينصرف أهتمامنا عن الفكرة والمعني إلى اللفظ والوسيلة، فدع عنك هذا و إلا....

ولعل من مظاهر سخريتك الكامنة في " أعاميق " فؤادك، تساؤلك عن كيف تكون إنسانيا " في عرفي ".

إذا كنت لا تريد أن تكون طبيبا يربت على الأكتاف في الطرق، فكن إذن كدون كيشوت تهاجم كل من تقابل في الطرق.

أما سامى فقد شفى تماما وعاد إلى حالته الطبيعية، ولو أنه مازال في المستشفي، طبقا لقوانين المستشفي التي تقضي عليه بأن يظل فيه بعد الشفاء مدة طويلة تحت المراقبة. وهو يتحرق شوقا إلى الخروج، فاطمئن يا صديقي، واكتب إليه إذا أردت، على أن يكون خطابا إنسانيا يستدعى رده، و إلا، وهذا تحذيري، أهمله، والذنب حينئذ ذنبك.

وأسفي على تأخير الرد، فقد عرفت كسلي، وعرفت أيضا أنني لم أتغير من عهد أن عرفتني صديقك المخلص الوفي.

محمد عبد المتعال قدال

في حدة انفعالي الصبياني بتلقي الخطاب، أجد عليه تعليقات، لماذا كتبتها بالإنجليزية Really ? you'd better go to hell ...... دخلت ملحق الكشف الطبي، بهت طبيب العيون وهو يكشف علي، كما بهت الممارس العام، قال لي طبيب العيون بعد الكشف: يا بني كيف كنت تسير، وتقرأ وتكتب؟

عندما وضعت النظارة على عيني، وخرجت للشـــارع، ومشيت على البحر، تغير وجه العالم الغائم، واكتســب حــدة وسطوعا لم أكن أعرفها، أم لعلني كنت نسيتها تماما.

(الآن يغيم وجه العالم من جديد)

أما الممارس العام فقد التفت لزميله – كان القوميســيون الطبي شيئا جادا عندئذ – وقال له:

– لا، ليس عنده شيء، نكتب خطابا لأهله نطمئنهم، هذا النحول والقلة، ليست عن مرض، ربما يحتــاج إلــى تغذيــة أحسن. (لم تكن صناعة – وتجارة – الفيتامينات قد راجت، لم نكن نعرفها).

كنت قد غامرت – وحدى، وبحمق كامل، واندفاع،ودون أدنى استعداد أو دراسة – بان أصبح "نباتياً " خالصــاً ، عــن استبشاع (رومانسي بلا شك)، للقتل وأكل الذبائح، ولمدة سنة تقريبا أوشكت أن أهلك، لم يكن عندي أي نوع من التوازن أو التكامل في نظام الأكل، والمحنة في البيت كانت ضاربة، كان أبي وأمي (وبقية الأهل، على الهامش) على وشــك اليــأس والجنون، مني، كنت عنيداً حتى الآخر، وركبت رأسي حتــى

الآخر، وما نفعت عندي ضراعتهم وإغـــراءاتهم وحنـــانهم أو قسوتهم. عدلت فجأة، في عيد القيامة، عدولا تدريجيا، حتـــى نسيت الحكاية كلها.

عندما تخرج سامي في ١٩٤٦، وكان الأول في دفعتـــه، ورشح لبعثة في الخارج، وذهب للقوميسيون الطبـــي للكشـــف الروتيني، اتضح أن عنده درنا في الرئة، وكان الدرن عندئـــذ شيئا مرهوبا.

نشرت " الأهرام " في ٢٩ منه، الإســكندرية لمراســل "الأهرام الخاص":

" أذاعت إدارة كلية الحقوق في جامعـــة فـــاروق الأول نتيجة امتحان الليسانس في الحقوق، وهـــي تلخـــص فـــي أن الطلاب الذين تقدموا لهذا الامتحان كانوا ١٠٢ وقد تغيب ستة منهم لأسباب خاصة، ونجح ستون طالبا فكانت نسبة النجـــاح ٦٥ في المائة.

وقد فاز الطالب حسن حسن كيره افندي بمرتبة ممتـــاز ولذلك نال الجائزة السنوية المقدمة من النائب المحترم محمـــد محمود جلال للفائز الأول في امتحان الـــدور الأول لليســـانس

وقدرها ١٠ جنيهات. وفاز كل من الطلاب الثلاثة أحمد عبد الله الديب، وإبراهيم عوض الله احمد، وأنور أحمد عبد الرحيم فراج بمرتبة جيد جدا، ونجح ١٨ طالباً بدرجة جيد و٢٨ طالباً بدرجة مقبول ".

وكان كامل الصاوي ممن تخرجوا بتلك الدرجة في تلك السنة، معي، وفي تلك السنة، وفي ذلك اليوم، نشرت "الاهرام" أن الطالب النجيب محمد سيد أحمد حصل على البكالوريا القسم الفرنساوي وكان الأول على دفعته بالقطر، وتلقى والده سعادة سيد أحمد باشا كثير من التهاني.

" اجتمعت اللجنة الاستشارية لبعثات الحكومة صباح أمس، برياسة معالي وزير المعارف، وقررت ترشيح الأساتذة الآتية اسماءهم للبعثات التالية:

جامعة فاروق الأول:

كلية الآداب: (الجغرافيا البشرية): محمد فاتح عقيل (أصلى) محمد إبراهيم حسن (احتياطي)، الفلسفة: مصطفى صفوان أبو الفتح (أصلي) محمد فتحي الشنيطي وزكريا إبراهيم بقطر (احتياطي).

الاجتماع: مصطفى محمد احمد حسن الخشاب وعلي أحمد عيسى (اصلي)، التاريخ القديم: لطفى محمود عبد الوهاب.

اللغات السامية: حسين محمد توفيق ظاظا (أصلي) السيد يعقوب بكر (احتياطي).

علم النفس التجريبي: مصطفى زيور.

هذا وستستأنف اللجنة عملها في جلستين في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم وفي الساعة السابعة مساء للانتهاء من نظر باقي بعثات جامعة فاروق ومن الترشيح لبعثات جامعة فؤاد الأول.

وتأجلت بعثة سامي سنتين، قضاها في العلاج والاستشفاء، في حلوان، والإسكندرية، وبدلا من أن يذهب إلى إنجلترا لدراسة تاريخ العلوم (سافر الاحتياطي صديقنا عبد الحميد صبره الذي أصبح اليوم علما وثقة لا يضارع في تاريخ العلوم عند ا لعرب) سافر سامي في ١٩٤٨ إلى فرنسا، لدراسة الفلسفة في " الايكول نورمال "، ومنها إلى علم النفس التحليلي.

هل بذلك تغير مصير رحلته العقلية والروحية؟ أم أنها في الجوهر لم يكن يمكن أن تتغير...

٥ شارع أحمد دقله – محرم بك

الإسكندرية في ٣٠ اكتوبر ١٩٤٧

عزيزي...

غادرت لتوى المستشفي، وكنت آمل في لقياك أثناء إقامتي بها ولعل لا تعرف اني في حاجة إلى كتب أترجمها كما اتفقنا من قبل. وأحب أن أعرف ما قمت به في هذا الصدد. ولست ألح عليك، ولكني أحب أن أراك على أية حال. وصحتي لا تسمح لي بمغادرة المنزل، لذلك تجدني في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل (أو ما بعد الليل !) وبهذه المناسبة أنبهك إلى أني غيرت منزلي وأنا الآن أسكن عند أختي وليس يصعب عليك أن تجد المنزل إذا عرفت أن الشارع في مقابل مخزن الترام في بداية (أو نهاية) محرم بك.

وأني أتوقع أن أراك قريبا... فإلى اللقاء..

سامي

لماذا في ذاكرتي، مع ذلــك، أننـــي زرت ســامي فـــي مستشفاه بحلوان؟ وأنا أعرف أن ذلك لم يحدث؟ أنني رأيته في حديقة المصحة – رملية، فيها مساحات خضراء قليلة – جفاف هواء حلوان عندئذ ونقاؤه يملأ الروح، هو مستلق على كرسي من القش في الشمس، شمس الربيع، متلف بروب دي شـــامبر خفيف، النور يتخلل شعره، وعيناه العميقتان قد غاصتا قلـــيلا في محجريه، وأنه كان قليل الكلام، على غير عادته، الكـــلام مجهد في مثل حالته، وكان الآخرون متناثرين فـــي الحديقـــة. كان مبنى المصحة على الطراز الكلاسيكي الجديد، بأحجـــاره الكبيرة المتينة، نوافذه طويلة باهتة الزرقـــة قويـــة، وأبوابـــه الخارجية لها عقود نصف دائرية؟

ما زالت في داخلي أثارة حس بالإثم لأنني لم استطيع – أو لم أقرر – أن أزوره في المستشفي في حلوان. هل كان في مصحة، حقا، أم كان في بيت؟ بيت من؟

لكننا كنا قد تخرجنا وكنت عاطلا لم أجد عمـــلا وكنـــت غارقا إلى أنفي في خضم الحركة الثورية، لا أكاد أفرغ إلـــى شيء آخر.

وكلها تعلات، طبعا.

١٣ شارع نوبار باشا – شقة رقم ٢٢

حلوان في ١٩ يناير ١٩٤٨

عزيزي...

علمت أن جريدة الأساس محتاجة إلى من يتــرجم لهــا الأنباء الخارجية ففكرت فيك وفاتحت شرف فــي الموضــوع فأبدى استعداده لتقديمك إلى رئيس التحرير. لذلك ســاءني ألا أجدك في الساعة والمكان اللذين حددناهما من قبل. فلعلنا كنــا فرغنا من هذه المهمة أمس. ولكن ما علينا؟ فلعل أمرا عاقــك عن المجيء أم تراك نسيت؟ يحسن أن تفكر في الحضور فــي أقرب فرصة تعرض لك وأحطني علما بما يستقر عليه رأيــك وكيف نلتقي. ولست أقول أن المسألة مضمونة (ومن يستطيع قولها؟) ولكن لا مفر من المحاولة والمركز يفتح أمامك طرقا طالما فكرت في طرقها. والمرتب ١٥ جنيها وهو كما تــرى ليس فخما. ثم هناك صعوبة إقامتك بالقاهرة. ولكني أعتقد أنها كلها صعوبات سرعان ما تزول. فــأرجو أن تتــدبر الأمــر وتكتب إلى بما تعتزم.

أما أنا فأقضى النهار مغمورا في شمس الربيع، غير أن الربيع قد زال على الأرجح وها نحن نصطلى بلهيب الصيف، وأذرع النهار الضيق وأنا اقرأ أو أرسم، ومن حين لآخر أتحدث إلى صديق، وصحتي أحسن حالا، غير أنني أرجئ التفكير في المستقل إلى حينه، ولك مني خالص تحيتي وودي.

سامي

أما منزل شارع احمد دقله في آخر محرم بك فقد كنت – على رغم الحركة الثورية وما فيها من غمار الاضطرابات – أتردد عليه، وخاصة بالليل، اذكر الأباجورة ذات الضوء الرقيق، ودفء الغرفة وحميمتها، وهدوءها الليلي، سامي هنا علىفوتي منجد، والروب دي شامبر في الشتاء ليس من النوع الخفيف، والحديث متصل وصاف عن الأدب المصري – والعالمي – وعن محنة أهل الريف وعن الروح المصري الذي لا يسحق ولا يموت، وتفصيلات طويلة وحماسية مني عن دقائق تاريخ الثورة البلشفية، والخلافات بين ستالين وبخارين وتروتسكي وانتحار مايكوفسكي ومحاكمات موسكو ١٩٣٦،

وكان يصغى إلى بذوق، وأدب، وصداقة، ومن غير أدني اقتناع أو تورط.

ها قد طوفت في الأرض وفي الزمن، وكتبت قليلا، ولم أضع قط روايتي " الضخمة " عن الريف المصري، وإن كنت قد تلمست أحجار أبوللو، ولم ينطفئ ظمأي قط إلى تلك البلدة – ذلك الموقع كأنه في داخلي – وليس في الزمن، هل هو جرن من الطين نشعت فيه البركة أيام الفيضان وترقرقت مياهه الخصيبة، منبثق من الأرض، وحولها بيوت الفلاحين، بالليل لا ينيرها إلا القمر وأنوار مهتزة مخايلة من مصابيح الجاز التي كنا نسميها " الشيخ علي "، والجامع غير بعيد، والكنيسة العتيقة غير بعيدة ، وجسر النيل عال والجنية لم تطلع لي قط على الرأس الحجري الداخل في المياه؟ أم هو ميدان دائري – أمام كركون غيط العنب؟– محطة ترام ملونة مرسومة على علبة الخياطة القديمة التي كانت عند أمي؟ البيوت تطاولها وتظللها أشجار التوت والكافور والجميز الوارفة مبسوطة الأكنان، وكثيفة الورق، أو هي بوابير الطحين، ومخازن القطن، مكسوة سقوفها بالقرميد الأحمر،

وكأن البحر يضرب سور الكورنيش بأمواجه الشتوية، ويغمر أحجاره البيضاء، يطس أرض الرصيف على الميناء الشرقية؟ أم هي بوابات ضخمة في حيطان ساقمة في الصعيد، عالية ومبنية بالطوب النيء الرمادي المتين، كأنها قائمة من غير زمن، ليس فيها نوافذ، العيش " الشمسي " يصوح تحت الشمس الموقدة على السطوح، ولكن في المنضرة، تحت، طراوة منعشة، وأصداء ترانيم خفية، وعبق بخور قديم؟

في هذا الموقع ما زال حيا أوزير سيدنا الحسين حتحور مار جرجس والسيدة زينت ستنا دميانة، لم يمسهم عنف الظلام ولا دوى قنابل الديناميت والكلام، ليسوا أطيافا بل هم معي، الآن، هنا، أهل البيت، ما أبعدهم فيما يبدو، أيضا، لا، ليسوا بعيدين.

في ذلك الموقع الذي لا نوافذ له سعة لا حدود لها.

كيف أصل إليه؟لا أعرف.

فكيف لي أن أعرف؟

لماذا ينبغي لي – ينبغي بحرقة – أن يكون في ملء المعرفة؟

٣ – مراسي الأوهام

السلالم معتمة في الشتاء
والمعني اللا محدود إبريُقُ زجاجه مشروخ
هل هو مملوء بالماء أم ينز بدمي؟
ايروس انظر إلي.
هل ضربني الفساد؟
العناقيد الحجرية مدلاة من حديد الشرفة، والرخام دفئ
الساقية الخشبية مغروزة في الطين، لا أستطيع تسلقها
البنت التي أحبها لا تساعدني.
ثديها ساقط في حجري، نهمة.
ولم تقل لي: أحبك.
أسقط في منتصف الطريق،
فخورا.
شارع الإسكندراني موحش وخاو بالليل.
مجنون مجنون مجنون،هكذا قال :
ودوت طلقة رصاص واحدة.
رسم شبكة عنكبوت مقطوعة.

هل صدقت النبوءة؟

عزيزي...

لعلك قد عرفت أين أنا الآن.. وإن لم تكن قد عرفت بعد.. فأعلم أنني في مكان قد لا يخطر لك على بال.. مرسى مطروح.. ذلك المكان الذي اكتسب في الحرب الأخيرة شهرة تكاد تكون خرافية.. أجل.. أنني في مرسى مطروح حيث لم أكن أحلم يوما بأنني سأذهب.. وأرى.. وألمس مكانا وآثارا تاريخية.. يتمنى عدد كبير من الناس لو رأى ولمس...

والواقع أنني أنعم في هذا المكان بما لم أنعم به مطلقا... من سعادة ومتعة.. البلاج هنا رائع... والبحر فريد.. والبلدة من أصلح أمكنة العالم لأن تكون مصيفا.. ومصيفا وحيدا في نوعه.. الهدوء شامل.. والهواء لا مثيل له.. والبلد على حال لم أكن أتصوره من قبل رغم كل ما سمعت وقرأت عنها.. كنت أتصور أنني سأرى صحراء واسعة.. وبعض الخيام المبعثرة بها.. وشاطئا صخريا أشبه بما نرى في السينما من الصخور التي تدور عندها رحى الحرب..

اجل كنت أتصور أنني لن أرى سوى بعــض الوجــوه العربية... وبمعني آخر كن أتصورها واحة... وإذا بـــي أرى مدينة.. ولو أن ثلاثة أرباع مبانيها أنقاض وخرائب من أثــر الحرب اللعينة إلا أن الربع الباقي لا يقل عن عدد كبيــر مــن المدن الصغيرة التي نراها في الوجه البحري..

مبان.. وبعض المقاهي، وسينمات أي والله سينمات، إلا أن أفلامها عربية وقديمة تكاد لا ترى ولا تسمع فيها شــيئا.. ولكنها على كل حال أكثر مما كنت أتوقع.. والبلاج.. ســأدع ذكره حتى ألقاك.. فما هناك من وسيلة تكفى للتعبير عما يبعثه في من المتعة..

ولعل أبدع وسائل التسلية هنا هى التجديف.. والملاحة.. فالأمسيات جميعها أقضيها على سطح المــاء.. فـــي قــارب شراعي لثلاثة أفراد.. طلب مني صاحبه أن أدشنه.. فأســميته "Red Shadow" (الطيف الأحمــر) أو فـــي قــارب ذي مجدافين لشخصين اسمه " هدى " والحق أني أصبحت ملاحــا بارعا.. في كلا الفنين.. فن الشراع.. وفن التجــديف.. أمــا الصباح فغالبا ما أقضيه في التحــدث مــع بعــض الأســرى

الألمان.. الذين يملأون البلدة.. متمتعين بكامل حريتهم.. وقد حصلت من كثير منهم على معلومات لها قيمتها عن أموار كثيرة كنت أود معرفتها.. وهم على العموم شباب ظرفاء مثقفون ثقافة عالية.. يشتركون جميعا في السخط على هتلر ويكادون يرددون عبارة واحدة وهي: I wish he is .....dead

اقرأ هنا بعض الشيء.. ولكن ليس كثيرا.. فإني أخشى أن آخذ من وقتي هنا ما قد احتاج إليه في هذا الظرف غير العادي بالنسبة إلي... ولعل للقراءة متسعا من الوقت في الأحوال العادية.. وكذلك الكتابة،.. حاولت أن أكتب ما يشبه اليوميات.. أو المذكرات عن هذه الرحلة.. ولكني أجلت ذلك لحين أجد فراغا من الوقت يكفي لذلك.. أما عن الطبيعة.. فلعل هذه البلدة تتمتع ببعض المناظرٍ LandscapeS التي لا توجد في مكان آخر.

ونسيت أن أحدثك عن الرحلة نفسها.. تسع ساعات كاملة قضيتها في الطريق.. ولكنها مرت سريعا فيما عد الساعة الأخيرة التي تكون في العادة ساعة الترقب والانتظار.. يسير

بك القطار في صحراء واسعة.. هضبة عن يمينك.. وغيرهـا عن يسارك.. وفي كل مكان آثار معركة.. وفي كل مكان آثار انسحاب.. وتراجع.. وفي كـل مكـان أنقـاض وخرائـب.. وحطامات.

وعلى العموم المكان يستحق المشاهدة ويستحق الزيارة.. وأنا أعتقد أنني قد اكتسبت الشيء الكثير من هـذه الزيـارة.. ولعلك تعجب حين تعلم.. أنني استيقظت في العاشرة صباحا.. وفكرت في السفر.. ثم رجعت عن الفكرة.. وعـدت إليهـا.. وترددت.. ولبثت حوالي ساعة في تـرددي.. ثـم عزمـت.. واستعددت للسفر وسافرت في الساعة الثانية عشرة إلا الثلـث من نفس الصباح.. وقد كان لهذه الرحلـة.. وهـذا المفاجـأة طرافتها...

لعل الإسكندرية بخير.. ولعل الصحاب في نشاط.. ولي كلمة هي أنني أشعر بشـيء مـن الحـرج لمـوقفي هـذا.. ولمغادرتي الإسكندرية وحالنا كذلك.. ولكنها كانـت فرصـة وكنت أعلم أنها لن تعوض فانتهزتها..

والسلام

حسن

طبق الأصل، بدون تاريخ.

وهل يهم التاريخ، حقا؟

هل كان ذلك قبل قصة غرامه بسمية، وقبل أن يهيم حسن في طرقات حبه وطرقات إسكندرية، وقبل تعلق سمية بصبحي غريمه، وقبل أن يقتل منير نفسه، وتدخل الفاجعة حياتنا؟

إسكندرية، إسكندرية التي أوشكت أن تصبح وهما قد ولى، لكنه وهم رأس راسخ، وصخري، في قلب أمواج السنين قاتمة الزرقة، ها نحن نتركك، وهل نستطيع حقا أن نتركك؟

نقترب من المرسى، ولكن لا رسو هناك ولا قرار.

المراسى هفهافة تلعب بها رياح الخماسين تارة، ونوات الشتاء المعتم أحيانا.

على هضبة قلوبنا قليلة الارتفاع تخففت دقات الأتوبيس المكتظ المنهك السعيد بالوصول، وتصمت، نبضات داخلية لها طريق آخر، أما هذا الطريق فيتحدر إلى لا نهائية غير مرئية، ولكنها في متناول أيدينا، كأنها أعمدة النور والتلغراف الخشبية

متعاقبة بلا نهاية، وأسلاك تربط بينها، تتراخي وتتوتر، في وحشة، تراكمات استغاثة من رعب جمال لا يحتمل.

قطعان مفككة من البقر المقدس تجوس بين رمال السماء القاحلة وخضرة ذابلة، تجتر، ببطء، خطايانا.

وبعد سنين، ستنوح هنا وردة الجزائرية، مرثية حب مهدر على طعم الكركديه البارد ودقات زهر الطاولة وخشونة كلمات بدوية معلهش يا زهر.

بيوت بدائية غيامات حجرية جحور أظنها دفيئة، قليلة ومتناثرة بين فجوات الوحشة، على جانبي هذا الطريق.

حتى تتفتح (كزهرة نائمة) زرقة لا زوردية صامتة الموج، زبدها الأبيض ناعم.

وروح نسمات نقية نقاء فقدان كامل.

على طرف الخليج البعيد تهاويم صخور متوهمة لها قوام غير متحقق.

مئذنة الجامع وحيدة، سامقة وواثقة، شيء لله يا سيدي العوام.

وبعد سنين، ستأتي هنا أفواج التتار في أتوبيساتهم المكيفة، وسيأوون، على نفقة نقاباتهم وجمعياتهم ومؤسساتهم، إلى فنادقهم الجديدة الرثة المتفشية كأورام مهندسة مستقيمة الحيطان.

محجبات، من سن الخامسة فصاعدا، ملففات في ثياب ضافية، لأن الوجه عورة والجسم عورة والحياة عورة. وباعة الكوكاكولا والذرة المشوية على الفحم تطقطق وحباتها تنفجر بفرقعات خافتة، وقفف الجريد وقبعات الخوص العريضة التي لا تباع، والآيس كريم الملفوف في ورق لامع ملون، وملتحون بكروش ناتئة وجلاليب بيضاء قصيرة، وواجهات المحال المضاءة بقوة تضج بموسيقى مملة الإيقاع مرتفعة جدا، وسوف تعتم الزرقة ويغيم صفاء الحلم اللازوردي، وطيور المراكب المجنحة – على الرغم – ما زالت تحلق وتسف على شطوط الروح المختلجة بالغضب والرغبة.

البحر يغمر غرفة الفندق ويغرق شكواها الخافتة ولا يطامن سقم المعدة ولا تطلعات عقيمة إلى المستحيل المستحيل. تدخل المياه من على النافذة بين ملاءات السرير (غير النظيفة

تماما) وتتموج فوق المصباح الصغير المشتعل. أشباح قديمة غير مستريحة، قتيلات لم يذهبن بعد، ترود الغرفة المطمورة بالبحر والكوابيس، وتئن بالليل.

قرص الشمس قرص العجين الحار جاكلين متموجة وشامخة قلعة منسابة الأبراج مرتجة ومتناسقة التلاطم، عارية الصدر تلقي بالجيشان في جسومنا وأرواحنا، باهرة.

دون جوان الشلة الأربعيني، فتى المظهر، أنيق حتى أطراف الأنامل ومحكم اللبس على وسط صانه لعب التنس بانتظام من التضخم أو الترهل، حذاؤه لامع ضيق البوز عالي الكعب قليلا عن حصى الشارع العريض غير المسفلت الذي يفضي إلى البحر، يتحدث إلى جاكلين بما يبدو أنه همس حار يقرب وجهه الذي بدأت تغزوه تجاعيد خفيفة تظهر الآن في شمس فاضحة، دون حاجز، وليس هناك إلا صخب الوصول ونداءات البنات على أحداهن الأخرى والبحث عن الحقائب ومساومة العربجية الصغار على متن الكاريتات التي تجرها حمير فارهة حينا وقميئة مقروحة أحيانا.

لكن ماريز، كلها حيوية في هذا الظهر اللاسع الذي تهدئ من حرقته نسمات البحر القريب، تغني، ممشوقة تبدو نحيلـــة، ولكنه نحول خداع، فاللدونة تنعم كل حنايـــا الجســـيم القليـــل، والصوت الخفيض – إذا ارتفع – فيه بحة فتاة توشك أن تكون امرأة، أو لعلها خجلة من معرفة حديثة العهد بالجنس وشـــطح نشواته لكنها تأخذ هذه المعرفة في طيات حضن مستسر خفي.

روبير يصاحبها في الغناء، ويرتجـــل موســـيقاه، مـــرح دائما، ضحوك، عنده النكتة جاهزة والقفشة جاهزة، اصله ابن بلد من كرموز وتعلم في دون بوسكو، جائع دائما نهـــم إلـــى السندوتشات والمشويات والمخللات والأكل المسبك بلا تفريق، ونهم أيضا إلى الحمام بالأرز في الطواجن، معمول في الفرن، والى الدجاجات الرشيقات المتخطـــرات الآن فـــي الشـــورت الملون القافز إلى أعلى الفخذين، غلمته إلى الأكـــل والشـــرب والنسوان لا رى لها، مع انه يبدو ضامر العـــود، هـــل لأنـــه محترق من الداخل؟

كان فيليب، وعلى رأسه كاسكتة سوداء صغيرة تعطـــى عظام وجهه المحددة في الشمس نتوءا وحدة، يحمـــل حقيبـــة

جانين، يرفع ثقلها بالكاد إلى الكاريتة بينما كانت قد جلست – وهى تضم فستانها الحريري الواسع إلى ساقيها – على الدكة الصغيرة المنجدة المكسوة بقماش صوف غير مريح الشكل، كانت جانين يوغسلافية الأصل، وسلوكها فيه نفحة ريفية محافظة، أما نادية السمراء الصغيرة فقد وثبت إلى الكاريته بحرية، دون حرج، في بنطلونها الضيق الأحمر الصارخ بلونه وبما يحويه من تدويرات جسمها مضبوط النسب.

وشلبي، ساكن الطير، واسع العينين، داكن البشرة، يراقب عملية الوصول، باعتباره مسئولا، يتحقق من وصول الحقائب كلها، ويوجه العربجية الصغار إلى الفندق، وراء مبنى التليفون، في الشارع الذي بعد الجامع مباشرة، على اليمين، والبنات يزقزقن ويضحكن ويتصايحن بأصواتهن الثاقبة أو الناعمة في فرحة الوصول وبدء الرحلة، وإحساسهن بعناية الرجال الكبار في المجموعة، ومداعبات الشباب الصغار، وتحرر الأجسام من حبسة الأتوبيس الطويلة ومقدرتها على الحركة وتشوقها للانطلاق.

الفندق بالليل – كأنما جوهر الحياة لا يصفو ولا يستقر إلا في الفنادق، وفي الليالي – والشرفة العريضة الواسعة التي لا ترتفع كثيرا عن أرض الحديقة مبلطة ببلاط أسود وأبيض متناوب عليه رمل خفيف. لها سور منخفض، وقد تناثرنا، بعد العشاء، على كراسي القش وعلى حجر السور وعلى مخدات أحضرناها من الغرف وجلسنا عليها، والكوكاكولا والسينالكو على حساب الرحلة. كل واحد أخذ واحدة ؟ فتحي يسأل بالعربية والفرنسية، وشجر الكازورينا الفارع يصد رياح البحر المتقلب، غير بعيد، ولكن الفراغ الرملي الفسيح بينه وبين الفندق ، من غير عوائق ، عبر شارعين غير مخططين وعبر مساحات مسورة غير مبنية، يؤكد حضورا قويا غير مرئي للبحر الذي يأخذ من النفس حسا بالرهبة.

الحديقة الواسعة أرضها مكسوة بأوراق إبرية دقيقة ملتفة على بعضها بعضا، جافة، لها خشخشة تحت أقدامنا، لماذا نتحدث الآن بصوت خفيض، وهبات هواء البحر الملح تفاجئنا ثم تتحسر؟

عتمة الليل مشعة بضوء النجوم وحده، فتات متسرب من نور مصابيح الشارع التي تغلفها كثافة الشجر.

حلمى العنيد لم يتفتح، راقدا بين ذراعيهـــا، لا تعــرف، هي، أنه في حضنها.

ظلال الشجر، بعد كم سنة، تلعب على السور الاصـــفر في ليلة صيفية أخرى، ونحن نأكل الزبادي بالعسل الأبيض في الهواء الطلق، وموسيقى رخو متهالكة تأتينا من القهوة الأخرى المضيئة بلعلعة بذيئة من الكريات الكهربائية.

التشوقات، اللهفات، أطيـــاف النشـــوة تطؤهـــا حـــوافر حتحور البقرة الذهبية الصدئة المتسكعة على مهل أمام القهوة، تخلت من زمان عن عرش ألوهتها.

عندما سقط الكوب الطويل الذي أشرب منه، تكسر على الرصيف، لم أجمع شظاياه، لأنني وجدتها منذورة، كانت تلمع في النور المهتز، زجاج الجسد المصلوب الممزق غير ملتـــئم وإن بدا محكم التعشيق، لحم حاد الحواف ولكنه محطم السنان.

الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٥٥:

" اليوم بعد الظهر لم تحيني، نظرت إلى نظرة غريبة، بعيدة، وللمرة الأولى لم تحيني، لا بابتسامة، ولا بهزة رأس، كأنني لست هناك.

ها هي ذي بداية النهاية إذن.

ما كنت انتظره منذ أبد طويل؟

القطيعة النهائية؟

لا أعرف.

بل لا أعرف ما إذا كنت أحبها حقا. أعرف فقط أنها وثيقة الارتباط بي، بحياتي نفسها، هذا أعرفه، قريبة بشكل ليس بعده حميمية ولا قربي، بلا انتزاع، بلا فرقة.

كم أحبك، بيأس...

وبعد كل هذه السنين، أما زال اليأس قائما؟

هل عرفنا أحدنا الآخر حقا، بينما كان جسمانا واحداً، وروحانا غائبين؟

أهي غيبة النشوة، أم غيبة التوحد، أم هي، فقط، مجرد غياب؟

في " القبر الجميل " في شهر الحصاد، في شارع العاشقة، بين جسمينا آباد، بينهما ميادين مكتظة بالناس والسيارات، مسدودة باختناقات المرور، صحارى خاوية لا عبور لها، فهل روحانا متآلفان أو – حتى – متعارفان؟

كنت اطل، عند اكتمال العقد، على منور فيه براميل القمامة الحديدية السوداء.

زجاج النافذة مغبش، والستارة لا تغطيه تماما. وكان التليفون صامتا لا يجيب، ودموعها قريبة، وعندما جرحت ذقني أثناء الحلاقة، قالت لي: " يا عيني ".

جسمى كله صرخة شوق إليك. لا تجد – بالطبع – ردا. لأن الصراخ، كما هو معروف، لا يجدي ولا معني له.

فما معني هذه الدموع الآن؟ أليست متأخرة قليلا ؟

الإسكندرية في ٢٣ يوليو ١٩٤٢

عزيزي وفيق..

إننا نجرى وراء الأوهام، نجرى حتى تتقطع أنفاسنا، وتدمى أقدامنا ثم نسقط في النهاية، وعلى شفاهنا بسمة، وفي عيوننا دمعة.

إننا نرمى المتع الرخيصة، وننفر من الحيــاة التافهــة.. المتع التي يعتبرها كل شخص هي الحقائق، نرمى كــل ذاك.. لنجرى وراء الأوهام.

ولكن.. من يدرينا أن هذه الأوهام ما هــي إلا جــوهر الحقائق الثابتة الخالدة، ألم يقل الكثيرون إن الحياة حلم؟

والإنسانية نفسها ألا تنقاد لأوهام غريبــة مغرقــة فــي الغرابة.. ألم يعش الإغريق خمسة قــرون.. وهــم يتغنــون بالأولمب وآلهته وصراعاتها وغرامياتها على انها حقائق ثابتة لا تتزعزع.

ألم ينقد البشر آلاف السنين للأساطير الجميلة أو الرهيبة عن الآلهــة والمســوخ والشــياطين والنيمفيــات والهــولات والايرينيات، وتجسداتهم واستحالاتهم ومؤامراتهم ومكايــدهم، ذكورا واناثا وأنصاف ذكور وإناث، وكيف ساروا في الأرض وسيروا الصواعق وعذبوا وضربت النسور أكبــادهم وطعــن الجنود جنوبهم بالرماح وسقوا السم والخل والعسل...

أتلك أوهام أم حقائق؟ أم أنها شيء فوق الـوهم وفـوق الحقيقة؟ شيء لا أعرف كيف أصفه ولا أعرف له كنها؟ تلـك التي يصدقها ملايين البشر؟

وهذه أحقائق أم أوهام. تلك التي لا يدين بهـا إلا النفـر الغريب، أوهامنا نحن الذين نقول عن أنفسنا اننا نذرنا أنفسـنا للفن؟

من يدري؟.. ولماذا ندري؟.. أو نحاول أن ندري؟.. ليت شعري لماذا لا نضرب بكل ذلك عـرض الحـائط.. وننثنـي لنعيش كما ينبغي.. أصحاء.. نأكل ونشرب ونستمتع بالحيـاة الموفورة؟.

لأننا خلقنا زبدا، زبدا في موج البشـرية، زبـدا سـوف يذهب جفاء، لأن كل شيء باطل، وقبض الريح..

في " المقتطف " أنهم صنعوا منظارا عاكسا مـن مـرآة لست أدرى على التحقيق مدى قطرها، وأن هذا المنظار الهائل الرائع سوف يتيح لأعيننا البشرية أن ترى من الكون إلى مدى ٩٠٠ مليون سنة ضوئية (والسنة الضوئية كما لا أحتـاج أن

أذكرك هي السنة التي يقضيها النور سائرا بسرعة ألف ميل في الثانية الواحدة).

هل لك أن تتصور هذا المقدار الذي نراه من الكون، ليجمد عقلك أو ليتحطم ولتضرب رأسك في الجدار ما شئت، لكي تتصور هذا القدر الضئيل الذي يمكن لعيوننا الضئيلة أن تراه من الكون. حكيت هذه القصة لأحد أقربائي، شخص "عادي " اسمه بقطر، أنت تعرف طبعا هذا النوع، ولما انتهيت من روايتي، حدق في بعيون واسعة فيها بريق شك وعجب، ثم قال بلهجة مضحكة قليلا: " إيه؟... هم عايزين يشوفوا ربنا؟ ".

صديقي.. ألسنا بعد كل شيء.. نصنع ضجة كبير لا مبرر لها.. ماذا نكون؟ وماذا تكون البشرية كلها؟.. وعلى الأكثر ماذا يكون شخص مثل وفيق بسطوروس أو مثلي في كون نرى نحن منه فقط ٩٠٠ مليون سنة ضوئية؟.. ولا نعرف كم من ملايين أو مليارات السنوات الضوائية لا نراه.

هل تعرف رأي أينشتين: أن الكون، الكون كله، أشبه شيء بكرة محدبة، يقع فيها مالا عداد له من الأجرام، من الداخل، أما في خارجها فلا شيء إلا الفراغ، بل الفراغ كلمة

لا تفي بوصف ما يقع خارج هذه الكرة المحدبة، والكون دائما يتسع، يتسع ويكبر. كيف؟ لا أحد يدري أنـــت لا تســتطيع أن تنفخ كرة مثلا إلا إذا كان خارج الكرة حيزاً فارغـــاً لا جســـم فيه، فكيف إذن يتسع الكون، دون أن يكون فـــي الخـــارج لا فراغ ولا شيء، لا أثير، ولا فراغ، ولا عدم مطلق؟.. يقـــول أينشتين إذ ذاك أن الكون أشبه بقوة عقلية ذهنية.. فهل للقـــوى العقلية حدود؟ هل يمكن أن تتسع، وتتسع، على حساب ماذا؟ لا شيء.. فليس هناك بالطبع شيء خارج القوى العقلية، لا فراغ ولا عدم.. وهذا لا يمنع اتساعها وتمددها. هكذا الكون كلـــه.. يتسع دائما وباستمرار.

هذا ما يقول عقل فذ أنتجته البشرية وروجت له الصحف السيارة.. ويؤيده العلماء، والفلكيون.. فهل لك أن تستنجد يـــا صديقي بالأبالسة، وبالجحيم، لكي تدرك تماما ما معنـــي هـــذه الحروف التي كتبتها لك، معني " الكون " الذي هو يشبه قـــوة عقلية والذي يشبه كرة محدبة، الكون الذي يتسع على حســـاب لا شيء، ذلك الذي له حدود، وليس له حدود ! هـــل تـــذكر الخيام.. انه يقول:

" أتراهم وقد تولت قرون

أعجزتهم كاف وواو ونون ".

أتذكر يا صديقي نوبة عميقة مريرة من نوبات الشك عصفت بي؟... أفضيت إليك بخبرها في نزهة لنا على رمال الساحل.. بالطبع لا تذكر، فهذه الأشياء التافهة كثيرة، يهمني أن أذكرك بأن سببها كان هذه المسألة: الكاف والواو والنون.

خفت أن أذكر لك ذلك.. لئلا تعتقد أنني أصبت أخيرا بالجنون الحقيقي... وبالأكثر لأنني لم أكن هضمت المسألة تماما؟ (وهل يعني أنا هضمتها الآن؟).

ما جدوى كل هذا الهراء؟ لا شك انك تشعر بالصداع ولكن هذا إنما هو من بعض مصائب الصداقة وخاصة مع شخص مثلي...

على أي الأحوال، معذرة، فكل شيء باطل... وقبض الـ... إلخ... إلخ.

مع تحيات

المخلص

(........)

(١٩٤٧)

عزيزي..

بعد التحيات والسلامات...

حضرت اليوم ولم أسعد برؤيتك، وقد أسفت جـدا لهـذا لأني كنت أريد أن أحدثك في هذا الموضوع بنفسي. ولعله من الأفضل أن تتكرم بالحضور إلى الكلية غدا في الساعة الثانيـة عشرة "١٢" إذا لم يكن عندك مانع لكي أزيدك إيضاحا.

والمسألة وما فيها أن في مخازن وزارة المعارف مركز خال وهو سكرتير على ما أظن لإلهـام مردلـى الرسـام أخ إحسان مردلي وصديق أحمد صبري. وهو يعمل مديرا لأحـد أقسام هذه المخازن وقبولك في هذه الوظيفة يتوقف على موافقة اسكندر بك عيسى – أبو مجيدة عيسى.

فأرجو أن تذهب إلى المنطقة (إدارة المنطقـة يعنـي) وتستطيع أن تجد عنوانه في دفتر التليفون وتطلب مقابلتـه – ويجب أن تقابله بأية وسيلة. لأنه لن يردك خصوصا وأن الهام مردلي سيوافق على قبولك فورا. فأرجو أن تضع بعضا مـن

الأمل والحمية في صدرك هذه المرة، وتـذهب لمقابلـة أبـو اسكندر وستكون النتيجة خيرا كما سترى.

وإذا أردت زيادة في التأكيد أمكنك رؤية وجهي الصبوح في الكلية غدا الساعة ١٢ بالتمام والكمال (انظر خلفه).

أنا محتاج لكتاب فرجينيا ولف The 2nd common Reader في دراستي فهل يمكن استعارته؟

وألف شكر..

وفيق

فهل كانت هذه آخر الرسائل الوفيقية، في تلك الأيام؟

ذهبت حميا الرومانتيكية، وحمى البوح الحميم، وهوس التأملات وانثيال العاطفية. ولكن بقى الهم – أو الاهتمام – فهل ذهب هذا أيضا؟

ستكون كل خطاباته القليلة، فيما بعد ذلك من السنين، مشغولة بأمور عملية، محددة، كأننا قد استفدنا رومانتيكية سنوات الأربعينيات المبكرة.

ما كنت أظن أنني سأعيش حتى أبلغ العشرين من العمر، هكذا كان الوهم المستحوذ على صباي، كأنما كان في هذا التوهم المتملك نوع من التوحد بأبطال رومانتيكيتي الأولى:

شيلي، كيتس، بيرون، وأولئك " الرعاة " الذين يموتون حبا وهم يعزفون على قيثاراتهم على هضاب جبال خيالية وتحت أنظار آلهة خيالية.

ما أن بلغنا العشرين من العمر، فعلا، حتى ضربت هذه الرومانتيكية، على الأقل في تجليها المراهق الأول، كما هو المعتاد، والمتوقع، ونضبت الرسائل الحارة بين صبيين تغذوهما وتعذبهما أشباح الموت والحب والفقد والفن.

وضعت في صدري شيئا من الحمية، والعزم، وذهبت، وقابلت إلهام مردلي، بالفعل.

أتخونني الذاكرة أم تصور لي خيالاتي شيئا أكثر واقعية من أي " واقع " فعلي، أم أن هذا " ما حدث " فعلا؟ (ما شأن ما أكتب هنا بما " حدث " فعلا؟ هل " ما حدث " أكتبه؟ وما أكتبه " حدث "؟ ثم ماذا يمكن أن يكون قد " حدث "؟).

ذهبت إذن إلى " المنطقة " (إدارة منطقة وزارة المعارف العمومية، أليس كذلك؟)، ولقيت إلهام مردلي.

لم أكن قد رأيت شيئا من لوحاته، وإذا كنت مررت بها فلعلني لم ألق إليها كبير بال، لم أكن أظن أنه رسام كبير، أو حتى مهم.

صعدت سلالم رخامية متهدمة في بيت من البيوت التي تشغلها الإدارات الحكومية بعد أن كانت سكن عز قديم، حميمة، أخذت حيطانها يتساقط طلاؤها الجميل، وأخذت أشجارها القليلة تذبل وتجف قليلا، وخشب الشبابيك الطويل قد بهت لونه، وفي البيت أطياف ساكنيه القدامى، أشباح لم تركن إلى راحة بعد. كأن منهم فتاة الروب الأزرق التي لم أعرف اسمها قط، وكانت تسكن أمام بيتنا في محرم بيه. وكنت أحبها على البعد – عبر شارع لا عبور منه – (شارع بني مروان المتفرع من شارع عرفان) – من شرفتنا التي تقابل شرفة بيتهم. لم تكن تخرج إلا خطفا، تسطع، جسمها ملفوف في الزرقة الناعمة الحريرية، للحظات. أظل أترقبها طويلا، بالساعات، وما تكاد تشرق ويمتلئ العالم بها وهجا، حتى

تؤوب إلى الداخل الخفي عني، البيت المكنون على أسـرار ه، والحديقة بأشجارها الخلفية ونخيلها الذي لا يلوح منه إلا سعف متكاثف علوي. كان عندي أيامها ثلاثة عشر عاما.

كان إلهام مردلي يجلس وراء مكتبه المكـدس بالملفـات والأوراق في غير نظام كما يبدو، وطبعا لها نظام خاص عند صاحبها، فيما أظن. أم أن لها نظاما، حقا؟

وقف من وراء المكتب نصف وقفة، ومد إلى يدا وجدتها طرية من غير قوة شد ولا حرارة لقاء، وجلس بسرعة.

كانت الغرفة معتمة قليلا، هل كان الشباك القديم الطويل مواربا أو مغلقا؟ وهل كان المصباح الكهربائي العاري المدلي من السقف يسكب ضوءه الأصفر الشحيح في النهار؟ تتخايـل لي الآن الملفات الكثيرة، مكومة ومكدسة عليها غبار وأغلفتها رمادية من القدم، هل كانت ملفوفة، كل دستة مثلا بدوبارة؟

كان إلهام داكن اللون مستطيل الوجه قليلا ونحيل العـود – ظننت انه مريض – على خلاف شقيقه إحسان مردلي فـي ذلك كله. ولقيني بترحاب متحفظ – أو بـتحفظ فيـه مسـحة الترحاب – وأظنه قد طلب مني أوراقا وشهادات واسـتمارات

كثيرة. كان " موظفا " حقيقيا الآن، لم يكن " فنانا " – أيا كان معني ذلك – ألم أكن أنا نفسي بعد ذلك، عند الكثيرين جدا "موظفا " (كبير أو غير ذلك) فقط، لا غير؟ أو " موظفا أيضا" على أية حال؟

كانت تقف أمام خيمة البدو، في مرسى وهمي، بيدها بندقية صيد مصوبة للأرض، وكان شعرها غزيرا وناعما مقصوصا الا جارسون، وابتسامتها حيية وبكر، صائدة، وصيدها قد أصيب بطلقة مُصْمِية.

وكانت الخيمة من جلود الماعز والجمل ضربتها الشمس وبللتها أمطار نادرة ولكنها هتون، فضرب لونها إلى رمادى مغبر قاتم، والوبر ما زال منتقضا ومستفزا من الخارج، أما دفء الداخل فمن يعرفه؟ احتضانات شهوة مستنفدة وخشنة البحة، ووطء أجساد نسوية بكر أو محنكة، واختراقات هواها، وتهلكة أحلامها غير المتشكلة وغير المصاغة أيضا، على أبسطة صوف منسوجة بأيدي النساء و البنات، مبسوطة على رمل مسوى منعم ممهد الوحشية.

النسيج القبطي القديم من الصوف العتيق على جدران في شارع رصيف البوربون فى جزيرة القــديس لويس،برعيانـــه وعناقيده ورسم "بان" أسود الجسم عارم العزف على نايه الذي يظل يصدح بلا صوت مئات السنوات،فيه اثارة مــن أبســطة البدو المفروشة على رمل الصحراء،صــلبان أرديـــة الكهنـــة الأرثوذكسية متكررة بين أغصان العنب المتجمـــد المحتشـــد بعصارة مدفونة لا تفيض .

"السين" داكن ومظلل وعميق وضيق تحت سموق أبراج نوتردام ،غير بعيد ،أنزل ،من فندق دي لابيه المنـــدثر الـــذي يطل على الحى الرابع من طرف جزيرة القديس التيد المتنسك المحارب أسير المنصورة ،اجراس الكنائس تدق السادسة تدعو إلى قداس المساء.

نستمع معا ،أنا وسامى وجبريل،إلى ترتيل مـــن الشـــيخ رفعت بصوته القدســـي الـــذي يتماســـك وينهمـــر وينســـاب ويصلب،حنينا إلى جنات موعودة مشتهاة وفرقا مـــن جحـــيم الهالكين .وبيننا،على المائدة الصغيرة الوطئة، تغريبـــة بنـــى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزنـــاتي خليفـــة

وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة ،وسـيرة بنـي هلال الكبرى الشامية الاصلية من أصل تناسلهم من الزير سالم إلى أبى ليلى المهلهل.

عشاء حميم وأحاديث شهية، أفى ١٥ شـارع رصـيف البوريون أم فى ٤ شارع تورنفور ،فى البيـت ذي الأعمـدة الخشبية الضخمة ،جذوع ضربها سوس قـديم قـد طهـرت خرومه العتيقة منذ أيام سكنى بروسبير ميريميه، كأن دقـات البيانو تعزف اشعاراً أنيقة عن كارمن التى أغوت فارسها حتى هجر ناسه واعتنق قيما لم تكن له ولن تكون يوما من الأيـام، وانتهى بفاجعة بعد أن نبذته المعشوقة المستباحة المنيعة عليه، المعطاء العصية عليه، أم نحن في شارع الفراعنة في الحـي الإغريقي السكندري العريق، في القاعـة الفسـيحة، وارفـف الكتب الرصيفة غير المثقلة تحيط بنا، والأباجورة ذات النـور الرحيم.

تأتي قافلة الرجال من حافة أفق الدلالات، تشير إلى مـا هو غير معروف على صفحة رمال متقلبة، الجمال تنيخ وهي تزمزم وتخور، و يهبط الرجال في وسط حلقة مـن النسـوة

الجالسات القرفصاء علـى الرمـل العـاري، لهـن غمغمـة غيرمستبينة من وراء براقع قصيرة مثبتـة، بمخـازم ذهبيـة محززة، على الأنف، مربوطة بطرحـة الـرأس. ويـرقص الرجال في داخل الحلقة الأنثوية أهي رقصة الصائد أم طـراد القنيصة المحاصرة ؟

نور مصابيح " السين " الموضوعة بحذق وتوخ حريص ومرهف للجمال، تتخلل أوراق الشجر على الرصيف وتلقـى ظلالها المهتزة على مياه النهـر وأرض الحديقـة المكسـوة بأوراق إبرية ملفوفة مخشخشة تحت هبات الهواء، وقد غابت أصوات السيارات المتلاحقة موجات تعلو وتنخفض وتعلو من جديد من وراء حيطان باريس العتيقة وأبراج قصـر العدالـة المدورة السوداء، ذات القمم المخروطية، ومئذنة الجامع المطل على الخليج الأزرق وبرج الجرس الذي يعلو كأنه خاشع أمام شكاة عاشق لا تخمد بمرور الزمان.

دفء العشاء المعد بعناية وذوق مصـفى مـع سـامي وجيزيل، عبرت إليها بوابة خشبية ثقيلة مصفحة بحديد مشغول قديم الطراز، وفناء واسعا مرصوفا بالبازلت ما زالـت فيـه

أطياف وأصداء مكتومة لعربات بائدة وخيول مطهمة منـــدثرة وصلصلة سيوف مغمدة تحت عباءات ثقيلة فضفاضة وقبعات واسعة ذات ريش وخيلاء.

لم تكن إلا نقطة ضئيلة الحجم، ملفوفـــة علـــى جســـمها الصغير، قدها الضئيل جامد وثابت دون أدني نأمة، ملئ بطاقة عرامة وحشية مكتومة، تخفى وجهها السافر الصـــبوح بـــين ذراعيها .على إيقاع بطيء كأنه ينبع من تحت سطح الصحراء نفسها يتماوج الجسم القليل الذي يبدو فجأة انه يمـــلأ الســـماء حتى آخر الأفق، تصطفق القدمان واليدان بدقات ارتطام شبقى مبتل وصلب معا.

وقصة فيروز شاه ابن الملك ضاراب بمجلداتها الأربعة، وسيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن البطـــل الكـــرار والفارس المغـــوار صـــاحب الـــبطش والاقتـــدار المعـــروف بالغزوات المشهورة والفتوح المأثورة، في مجلـــداتها المغلفـــة بورق كرتون ملصق عليه صفحة الغلاف الخـــارجي الباهـــت الصفرة أو الشاحب الحمرة أو الأبيض الفاتح الخضرة كعوبها الحمراء الزرقاء القماشية مشبكة مغراة.

امتدادات الرمل تعلو وتنخفض ثم تعلو من جديد ورغاء الجمل الشاهق الذي يحط بخفيه الأماميين أولا ثم يهبط بجرمه الجسيم على خفيه الخلفيين، يخور كأنما يشكو، وينـــزل مـــن خطمه خيط ابيض من رغوة القهر أو الانصياع أو الرضـــى، وفي عتمة الخيمة حدقة البطارية الكهربائية واســعة متفتحــة بنور محدد مدور يومض ثم ينطفئ علـــى الجســم الأنثـــوى المستكين تحت ثياب زاهية وثقيلة موشاه بقطـــع مـــن العملـــة الذهبية العثمانية تصلصل وقد انفك الحزام الأحمـــر الســـاتان العريض عن البطن المدور الهضيم، المحبوك بقـــوة ربانيـــة، والجسم يحط على البساط الصوف المصبوغ بخطوط حمـــراء زرقاء متعاقبة، وصمت تحقق الشهوات.

نفتح صدفات المحار المخضرة المضلعة ونلتقط لحمهـــا الدافئ المتبل بمسحة طيارة من الزبد والبهار وعجين أعشـــاب برية عبقة، ونرشف النبيذ الأبيض ثم نثنى بالعـــدس الأســـود المطبوخ على البط اللدن متماسك اللذة يـــذكرني بمـــا كانـــت تصنعه لنا أمي في أيام الإسكندرية الرخية التي لن تعود.

وقصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمـــزة العـــرب على حصانه الذي يشب على قائمتيه الأماميتين, وذيله غزيـــر الشعر، والأمير مدرع مزود على رأسه خـــوذة مدببـــة فـــي مقدمتها شبه ثعبان الكوبرا الملكي، وفي يديه رمـــح مشـــرع مرفوع مسدد إلى صفوف أعداء لا نراهم مـــن وراء غـــلاف الكتاب وعلى جنبه سيفه الصقيل الطويل مخوف الطول. وقـــد ضربت طبول الحرب والقتال وخرجت العساكر تتسابق إلـــى ساحة النزال فهل كان في يده أم في يد خصمه كاووس شـــاه عمود من الفولاذ يبلغ القنطار وسلسلة من الحديد يعلـــق بهـــا كثير من الكلاليب وحديد الأوتار؟

تلويات القد الدقيق في الثوب البدوي الســـابغ .محكمـــة ضمته على الردفين ثم ينداح على الساقين العبلتين تحدس ولا ترى حركتهما بنغم سريع لا تكاد تحس انتقالاته مـــن الهـــدوء إلى العنف ومن النعومة إلى الصخب البدني صـــارخ الـــدعوة صارخ الاشتهاء فيصرخ الرجال صرخات قصيرة مقطوعـــة بصوت أجش يأتي من أحشاء موجعة متطلبة ترد على النـــداء البرى بالنداء، حتى يهوى الجسم الذي أسقط الصحراء في هوة

ساطعة النور، وهي تنهج، تناثرت من تحت قمطة رأسها خصلات شعر ناعمة فاحمة السواد مشعثة، وكأنما عادت كل الطاقة المتدفقة فجأة إلى داخل بؤرة عميقة في ذلك الجسم الملفوف على نفسه، نقطة ملمومة مطوية من جديد، متحصنة من وراء حدود مغلقة الآن مهما كانت عذوبة انسيابها الذي جمد فجأة، أغلقت الزهرة كل أوراقها، وضمت نفسها إلى نفسها، تماما، ونهائيا لم يعد يراها أحد.

جيزيل دقيقة الاصابع دقيقة الملامح دقيقة الكلمات، نحيلة وشقراء جدا، مسننة الوجه، تكاد تحس أنها ستتكسر الآن لو هبت عصفة ريح أو عصفة من الحديث أم من الأحداث، لكنها من الداخل صلبة قوية السند لسامي، مع حدة المرد ورقة الملامسة معا، رسومها المنمنمة بتركيبية ألوان خفية النسق سوناتات سناها يترقرق ساجيا من تحت السقف المثلث والأعمدة الجسيمة التي تبدو كأنها شفت وفقدت جسمانيتها نفسها مع أصداء موسيقى تنسحب إلى ماض يومض في سماء باريس.

توت القط الإلهي الحكيم بعينيه الواسعتين وجسمه المرن الكبير ناعم الشعر أسلافه من سيام أو من أيام سنوحى المصري تحت صروح أخيتاتون المنقضة، وينزلق بين ذراعي جيزيل رأسه في سحاب باريس المشع بنور ابيض هي نفسها نوت المرفوعة فوق جب يحملها ابن رع يده عند ملتقى ذراعها بالصدر المقبب ويده الأخرى عند ملتقى الفخذين سحرت صباي هذه السماء الشبقية، توت فجأة على سطح البيت جماع الحقب والعصور مرجع الأسلاف والأحفاد أذناه منتصبتان كأنما تتصتان إلى حسيس أو وسوسة لا يسمعها سواه، أيستعبد هناك سيماء أبيس أم القرد آله هرموبوليس الأشمونين أم الثمانية آلهة وهو التاسع الأخير؟.

لوحات سامي السارية بتلال منسابة ذات أزهار مونقة وخرائط الإسكندرية التاريخية والقط بست الجاثم موسيقى ربضة جسمه المتوازية على شفا أبدية لا تنتهي وصور آدم حنين كثيفة التخطيط والصوفا التقليدية الكراسي الرقيقة بلونها الكستنائي الذهبي الذي صقلته ونعمته مساعى سنوات من أجل تصالح الناس مع النفس ومع العالم، نشرب القهوة الفرنسية في

الصباح، جافة عميقة الوقع مع قطعة واحدة من السكر البني الخام غير المبيض في كأس مستطيلة من الخزف الطيب الملمس على الشفتين والستائر البيضاء تهفهف ولما تكد على شارع بوتاريل الصامت وفي واجهة الباتيسرى تحت إعلان عن " ماجريت " وأسرار الخيال.

ننزل إلى القبو على السلالم الخشبية التي لأقدامنا عليها صدى، طالما شهدت فرحة اللقاء وعناق الشوق وحرارة اللقيا، سامي يفتح الباب بمفتاح كبير، في ليلة شتوية. ننتقي زجاجة من النبيذ عليها طبقة خفيفة من هبوة غبار، بطاقة الاسم والعنوان بالخط القديم، رسم.

٤ – سطح بيت في شارع الاسكندراني

عندما التقيت بفتوح القفاص سحرني منه، على الفور، أنه بوهمي المظهر والسلوك، نسيج وحده، كما يقال .كان فريد الطراز، لا يقيم وزنا لأي من التقاليد أو المواضعات المألوفة.

كان – مثلا – في عز الشتاء يمشي بجاكتة سبور، بقميص مفتوح، من غير بلوفر، شعره أجعد وأشعث داكن السواد وغزير. وفي يده – دائما – كتاب عربي أو إنجليزي، غالي الثمن مما كان يستعصى علينا أن نقتني، نحن الذين في الجامعة بينما هو يعمل، بدبلوم التجارة المتوسطة، في شركة البيضا، بكفرالدوار، يسافر إليها من الإسكندرية، ويعود، كل يوم.

سرعان ما توثقت بيننا الصداقة.

كان – وما زال – تستطيره الأفكار (أفكاره هو) فيستشيط ويشتعل حماسة ويقذف بنفسه في جدل حام مع نفسه أو مع غيره يعلو فيه صوته، بطيبة قلب أو بشيء من السذاجة حتى، ويتناثر من فمه الكلام والرذاذ. ولم يكن عنده من كلمات السب أو الإدانة غير كلمة واحدة: " يا حيوان! " حتى لقبناه

بها، وكنا نحييه بها، ونرد على مجادلاته ومشاكساته بها: " يا حيوان ! " وهو يبتسم عندئذ، أو يتهانف بضحك خافت متردد إذ يخفض عينيه كأنما هو سعيد بالمداعبة أو على الأقل راض بها.

وكان من مرتبه في " شركة البيضا " يعول أسرة أبيه ويعلم أخوته في الثانوي والجامعة ويشترى الكتب الثمينة.

وبينما كان حذاؤه الضخم واضح الترقيع وواضح انه أضيف إليه نصف نعل ربما عدة مرات، وتشقق جلده، وعليه آثار طين ومطر قديم لا تزول، كان يشتري كل أسبوع تقريبا نصف دستة كتب إنجليزي غالية من مكتبة فكتوريا في شارع سعد زغلول، وله فيها حساب جار فتحوه عن طيب خاطر لهذا الزبون النادر، وكان لا يفلت من نهم قراءته كتاب في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الشعر أو الاقتصاد على السواء.

قرأت منه، مثلا " آلة الزمن " لـ هـ. ج. ويلز، في طبعة مجلدة بغلاف بني مذهب الكعب، وترجمات بالإنجليزية لروايات أناتول فرانس، و " دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية"

لجورج برنارد شو، و " سندباد مصري " لحسين فوزي يـــوم صدوره، وغيرها كثير.

هل كان ذلك في ١٩٤٢ أو في ١٩٤٤؟ عرفت منه انـــه اشترى " العالم الجديد الجرئ " و " بلا عينين في غزة "،"نغمة ونغمة مضادة " لأندلس هكسلي و لما كانت تفتنني – حينئذ – كتابات هكسلي ألمحت له أن أستعيرها منه، فقال ببساطة:"تعال معي خذها من البيت ".

كان بيتهم في شارع الإسكندراني.

وأيامها لم نكن نتحرج من زيارة أصدقائنا في أي وقـــت ظهرا أو ليلا لا فرق.

كنا في عز الظهيرة، مدخل البيت القديم العالي نظيـــف، رخامي، السلالم، تلمع ناصعة النظافة وهادئة، أبواب الشـــقق مغلقة على ساكنيها، روائح طبيخ الغداء: نفث تقلية الملوخيـــة أو نفحة تسبيكة البامية تتسلل من سر البيوت المكنونـــة علـــى اصحابها. كان محرم بيه أيامها فيه هبوة ارستقراطية باقيـــة، غير بيتنا في راغب باشا حيث أبواب الشقق ليست ضخمة ولا عالية محكمة، بل رقيقة الخشب ومواربة في الغالب تسمع من

ورائها وأنت طالع السلم الضيق المعتم كل ما يــدور خلفهــا: لعب الأولاد وزعيق الأمهات ودعاءهن على مقاصيف الرقبة المعجونين بمية العفاريت وطشة الباذنجان المقلــي أو نفحــة السمك المشوي بالرضة على وابور الجاز الــذي لا تخطــئ الآذان فحيحه القوي، المنتظم.

وإذ كنا نصعد أنا وفتوح القفــاص ســلالم بيــتهم فــي الإسكندراني، تتعاقب الأدوار ولا نصل. لم يكن قد قال لي في أي دور سكناه، وكنا منهمكين في نقاش – أخذت أنفاسه تتقطع قليلا، على حموة الصبا ونشوة المجادلة – حول عــدد ســكان مصر عند الفتح الإسلامي، تقديرا على الجزية المفروضة على القبط، أي على سكان مصر كلهم، وهل كانوا أربعين ألف ألف أم عشرين ألف ألف، باحتساب قيمة الدينار نسبة إلى الجنيــه المصري الآن، وكانت الحسبة كلها تكنيكية على جــدا، حتــى وصلنا إلى الكات الخامس أو السادس، وإذا بنــا أمــام بــاب السطح، وإذا نحن على سطح البيت، فســيحا، مبلطــا بــبلاط أبيض ممسوح حديثا، وإذا بيتهم هو بالضبط هذا: غرفة واسعة على السطح، فيها كل شيء.

وفيها قبل كل شيء مكتبة عامرة لم أكن قد رأيت مثلها في أي بيت من بيوتنا، أرفف خشبية مفتوحة متعاقبة محملة بالكتب العربي والإنجليزي منها المجلد النادر المنال، ومنها روايات الجيب، وعلى الأرض رصص المجلات الاسبوعية والشهرية الرسالة والثقافة وأبولو والهلال و المقتطف والاثنين وكل شيء والدنيا.

على الأرض المبلطة كليم وعليه مرتبة عريضة، وكرسى أو اثنان خيرزان ومائدة مثقلة بالكتب، وزجاجات الحبر، والريش الخشبية مختلفة الألوان بعضها مغموس في زجاجات حبر واترمان التي كان يستحيل علينا أن نشتريها – كنا في عز الحر – وبعضها قد جف الحبر على سنها الرفيع، وفي الركن كرسى حمام خشبي منخفض، وطبلية مدورة خشبها مشرب ببقع زيت لا تنجاب، وطشت كبير من نحاس أحمر مصقول، ووابور الجاز المحتوم، وحلل الطبيخ جنب الحائط، وقصرية غير بعيدة، وسائر عدد الحياة البيتية الحميمة مكشوفة عارية، جلاليب، وفساتين، معلقة على تلك المشاجب القائمة ذات الفروع الملتوية المتعددة، كأنها قرون غزلان أو

أغصان مقوسة حسنة التدوير، ودولاب ضخم بمرآة بلجيكـــي عريضة تعكس الغرفة كلها، وتكررها في داخلهــا، وتعطيهــا سعة أخرى، في آخرها المكتبة العتيدة وكنوز الكتب البعيدة.

قابلتنا أخته بملابس البيت الكستور الواســعة، شــعرها ملفوف بمدورة بيضاء مغضنة، وراعتني منها عينيها الواحــدة صفراء خضراء، مثل عيني فتوح نفسه، حادة ونفاذة البريـــق، في وجه آسر سمح مع صلابة خطوط عظامه القوية.

وكان واضحا أنها هي التي تقوم بمهمات ربـــة البيـــت، ومسئولياته الثقيلة كل شيء كان مفاجئا بمعنى ما، ومتوقعا في الوقت نفسه.

هذه الغرفة، في مرآتي، ليست تكرارا ولا انعكاسا. ماثلة الآن، وبلا زمن، لها وجود فريد.

هذه الغرفة، وفتوح، والكتب، وأخته، وأدوات الحياة.

عندما زرته بعد ذلك – بسنتين – وبعد زواجــه بتلــك البنت المغربية الأصل رقيقة الجسم حادة الــروح كالســكين (كان قد هجر أوديت بعد حكاية لقاءات– وغراميات؟ الله أعلــم ! ذائعة الصيت) في شقته الأنيقة البورجوازية الأثاث، تقليدية

عادية، كانت المكتبة الخشبية الأرفف المفتوحة قوية العضل قد حلت محلها خزانة الموجني الغالي ولها واجهات بلورية تخطف البصر حوافها مشطوفة تعكس أضواء النجفة الكريستال الكبيرة بومضات زرقاء صفراء وفضية، وبينما جلست في فوتيى الطقم المذهب وغاصت قدماي في السجاد الكثيف الوبرة، لمحت بعضها من الكتب القديمة، التي أحببتها، هناك، وراء الزجاج السميك، أغلفتها شحبت ألوانها، يمكن، حوافها تآكلت قليلا من القراءة وعرق اليدين والاستخدام العنيف، أثناء الأكل ربما وفي الترام وفي القهاوى، وفي التواليت، لم تعد زى زمان جديدة وبكرا ومقروءة أولا بأول، يمكن، لكنها مازالت تراث الصبا المذخور.

تراث الصبا المذخور؟

الإسكندرية مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٤٢

سخرية !.. ماذا تستطيع أن تسميها غير ذلك؟!..

منذ أكثر من شهر كتبت إليك ولكنك لم تتفضل بالجواب... رغم رغبتي الصريحة في ذلك... ورغم أن الخطاب وصلك في ١٣ حبيب جلبي... ولم يضع في البريد..

كما اعتادت الخطابات أن تضيع.. وإذن.. فهي صفحة تريدها أن تطوى، وهي مرحلة تريدها أن تقضى، لا بأس.. أو على الأصح.. بديع.. أليست الحياة، بعد كل شيء سخرية كبيرة..؟ على أي الأحوال.. لعلك تذكر أن يونيو سنة ١٩٤٣.. يونيو الموعود، لم يأت بعد؟ نعم.. يخيل إلى انك تهرب مني، أو كنت تهرب مني، وكنت أنا أجرى وراءك.. وهذا مضحك قليلا.. وإذن.. فلا بأس من مضايقتك أكثر قليلا.. وعلى ذلك، فسأكتب لك.. وقد أكرر الأمر، على رغم أنه يمكنك أن تثق أن كل خطاب يرد منك إلى، وهذا غير محتمل، فستكون النتيجة أن يرد إليك، مغلقا، وفي الحال....

وفيق...

أي مأساة من مآسي الصداقة، والخيانة، والوفاء، والكبرياء، والنبل، والحساسية، والحيوانية، مأساة جديرة بشخص كالشاعر راسين أو كورني، يصرخ فيها بطل، ويبكي، ويهتف، ويملؤها الكاتب بعلامات التعجب.. وقطرات الدموع!!..

نعم.. إنني لا أملك أن أفكر فـــي " اللغـــة البشـــرية ".. بغيظ.. وحقد سافر.. أنها تمدنا بكلمات كثيرة، كثيرة جـــدا، لا معني لها، ولا وجود، ولا مبرر على الإطـــلاق.. الصـــداقة.. والكبرياء.. والوفاء.. والنبل.. ! ! أشياء مضحكة.. لا أكثر.. ولا أقل.. أنني لا أريد أن أنفعل، وأحتد، فقـــط.. أحـــب أن أتكلم، وأن أكتب.. وأن أعبر عما يجيش في نفسي من مشاعر مظلمة، هادئة، كضباب يخيم على صحراء، وتخترقـــه اشـــعة النجوم الضئيلة، عند مساء محتضر..

إنها لعنة مكتوبة على طائفة من التعساء.. لعنة فاه بهـــا القدر، ترغمهم على أن يكتبوا، أو يتكلمـــوا، ويعبـــروا عـــن أنفسهم، مهما كان الثمن..

كلا.... لست أريد هستيريا من نوع الخطاب الســـابق.. ولا سخريات جوفاء ولا مشاعر الكرامة المجروحة... وسائر هذا الهراء...

هو الواقع أريد أن أعبر عنه.. في نوع من الاستسلام.. نوع من عدم المبالاة.. أنني أفكر فيك كثيرا.. ليس عن صداقة أووفاء.. كلا.. فقد تسممت نفسي.. وإنما هو نوع من الحنـــو

الأبله.. للذكريات.. نوع من زيارة المقابر.. وذرف دمعة أو اثنتين.. على أعشاب نمت فوق جدث عزيز....

هل تدري؟.. في مساء ١٥ مايو سنة ١٩٤١ كتبت في مذكراتي ما يلي بالحرف الواحد:

" نعم.. لقد تسلل " أنت " إلى دنياي الخاصة.. وهناك عاش بين المجانين الذين يملأونها.. لقد أحببته كثيرا.. واقتربت روحي من روحه كثيرا.. وتعانقت مشاعري بمشاعره كثيرا.. ولكن من يدري؟..قد يجترف الزمن هذه العاطفة.. فتمر تحت عجلاته التي تدور على كل شيء.. وتحطم كل شيء.. ولكن.. هذا الزمن لن يقوى أن يلمس ذكراها في قلبي.. لن يرفع يده لكي يحطم تمثالها المرفوع في داخل نفسي.. فنفسي معبد خالد.. يستعصى على الزمن.. مقدس .. لا يجرؤ أن يضع قدمه على عتبته ".

عجيب... أن يحس المرء بأشياء هذه.. منذ سنة ونصف.. ثم يذكرها الآن حين يأتي الزمن.. يطل برأسه.. ويتردد.. ويزمجر!!.. أليس كذلك؟...

(عجيـــب، أن تتــردد أصـــداء هـــذه الكلمـــات، هـــذه النوستالجيا، طول العمر).

نعم.. إنني أزور المقابر، وأبكي على الأعشاب الناميـــة فوق الأجداث، عند الأصيل المحترق.. وأحدث في لا نهايـــة السماء، وأنا أذكر " قبلة يهوذا "، هل تعرفها؟.. أذكــر مســاء "خميس العهد ".. والمصباح وهو يرمي بأشعته الممتقعة، على المصلوب وعلى الخائن، وأذكر الدموع المذروفة فـــي ظـــلام ركن بعيد، دموع ملتهبة مرة، ثم أذكر جثة يهوذا التعس، فـــي شحوب الفجر، تتأرجح تحت النسيم، بعد أن شنق نفسه، بـــين شبحي الندم والمعرفة....

كلا... كلا.... لست أريد أن أتمادي، أن أطياف الرموز تتقاتل في ضباب نفسي.. بروق تلتمع، وعواصف تثور، فـــي صمت، وتختنق في صمت، وتدفن إلى الأبد، في سكون..

إنها لعنة.. لعنة أبدية.. وصمت بها شرذمة من الأشقياء التاعسين.. لماذا اريد أن أكتب أشياء بلهاء سخيفة، فارغـــة ؟ لماذا أريد أن أقتنص هذه المشـــاعر المتموجـــة التـــي تمـــر بأعصابي، كما يمر النسيم على بحيرة ضحلة، ملآته بالطحلب

والحصى والرمال؟... لماذا لا أنام... كما يفعل الناس، وفي مثل هذا الوقت ثم استيقظ وألتهم طعامي.. وأحيا حياتي، وأموت، كأي حيوان عادي؟..

ما دام ليس هناك ثم فائدة، ولا سعادة..؟ إنه الجرح القديم، القديم يدمي باستمرار، ويقذف صديده، في ظلام نفسي، باستمرار...

أنني أعيش كمجنون.. حبس في جسد.. وحكم عليه أن لا يرى النور.. الجسد هادئ عادي يسير ويمتزج بالناس، والجني في قمقمه ينفث لهبا ودخانا يحترق ويختنق، ويناضل لالتقاط أنفاسه، ويحيا، في جحيم ساحق، في قمقم مسدود، مملوء بالأبالسة، والملائكة، والزهور، والجمرات، هناك شبح يعيش معي باستمرار، ويسير إلى جنبي باستمرار، شبح مخيف، لكني أحبه، وأحدق في عينيه الغائرتين المملوءتين ظلاما، لكي أبحث فيهما عن الأحلام التي تعيش في نفسي، نعم إنها فكرة الانتحار، دائما معي... دائما معي... عندما أتعلق بالسحب، وأرهف أذني لنغمات الملائكة، عندئذ فجأة تقهقه في سخرية.. هذه الفكرة المخيفة المحبوبة.. فأسقط إلى الأرض.. وأنا أحدق

في عينيها المملوءتين بالظلمة، ثم أمزق أحلامي.. في لـــذة لا يشعر بها إلا مجنون يمزق بأظافره، وأسنانه، جثة أحب الناس إليه.. لذة طاغية تقطر منها الدماء وتندلع منها النيران.. فتلف الروح في دخان خانق عطر..كما يحس المرء.. وهو يـــرزح تحت كابوس مخيف الجمال..

نعم... الانتحار، إنه صديقي.. أهمـــس إليـــه.. فيبتســـم ابتسامته الرائعة.. ثم نشق طريقنا في الحياة.. جنبا إلى جنب.. ويدا في يد..

في المساء.. عندما تسود الظلمة.. أدعوه.. في صـــيحة الطفل المنذعر.. وفي الصباح أستند إليه.. عندما انقل قـــدمي الثقيلتين.. المتعبتين من ملامسة الأرض.. وفي الليل ..أنـــام.. وأنا أحلم به.. وفي كل وقت.. وفي كل مكان.. أشعر بأنفاسه الهادئة تهب إلى جانبي.. فيغمرني شـــعور راحـــة وهـــدوء، واطمئنان مرهف جميل..

(هذا الشبح القديم ما زال ملازمي، شاخ الآن، ووهنـــت بنيته، ولكنني ما زلت أستند إليه، ولعله الآن يتكئ عليّ أنـــا، يلتمس السند).

" أسفي، ليس لي ثمة أمل...

إن قلبي لا يعرف السلام.. ولا الهدوء...

ولا تلك القناعة التـــي يجــدها الحكــيم، فـــي تأملاتـــه الساكنة...

والتي تتوج نفسه بتاج من المجد رائع

تلك القناعة التي تكبر جميع الكنوز قيمة

ليس لي ثمة قوة. ولا شهوة.

لست أجد قلبا يحبني وأحبه

وحتى الفراغ الهادئ لست أعرفه.

أنني أرى من حولي يتمتعون بكل هذا.. ويدعون الحيـــاة مسرة.. ولكنني تجرعت كأس الحياة.

كم أحس الآن.. بيـــأس هـــادئ وادع وداعـــة الـــريح.. والمياه.. الساكنة.

أنني استطيع الآن أن أضطجع كطفل متعب وأبكي حياة المتاعب والكلال

تلك الحياة التي تحملتها ويجب أن أتحملها

حتى يقبل إلى الموت كالنوم، يسترق خطاه..

وعندئذ أحس برد العدم يسرى في وجنتي، اللتين يهب عليهما الهواء الدافئ..

وتترامي إلى مسمعي الواهن.. نغمات الموج الأخيرة.

تتردد فوق قلبي الذي يحتضر... في سكون ..

هذه الأنات.. تساقطت من قلب تعرفه.. أو قد تكون نسيته.. لست أدري.. نعم.. إنها صيحات الإنسانية الممزقة.. في روح سماوية.. فان كان هذا ما يهتف به شيلي.. فكم بالحرى مخلوق مثلي.. له من شيلي أعصاب مريضة ممزقة.. وحساسية مرهفة.. ولا شيء غير ذلك؟.

(وهل بقى هذا الشبح الآخر ملازما لي أو جاثما في؟ هذا الشاعر القديم المنسى الذي أكرهه الآن؟).

إلى متى؟ إلى متي؟ ليس يدري أحد...

إنها لعنة..لعنة أبدية.. يا آله الرحمة..لو أن هناك.. لو أن هناك رحمة.

هه.. من المحال أن يستمر المرء في كتابة مثل هذا الهذيان الفذ.. وإلا انفجر في مخي شريان..أو شيء من هذا القبيل.

فهي تعرف.. أنني ذهبت إلى صفط الملوك.. لأسأل عنك خصيصا..؟ ..

وأنني علمت انك تدرس الصحافة في الجامعة الأمريكية، وأن مدير الجامعة عندما علم أن سنك لا تعدو السابعة عشرة أخذ يرقص من الفرح والعجب وكاد يحتضنك أمام والدك ويلثمك في وجنتيك لولا ..وقار العلم؟

هكذا فهمت على الأقل من والدك عندما أخذ يقص على في فخر الأبوة العجيب كيف ذهبت إلى الجامعة الامريكية وكيف قبلت هناك. آمل – لست أدرى لماذا – على كل حال.. أن تجد الحياة شيئا لا بأس به في الجامعة المذكورة... وأن تجد مخلوقات بلهاء مثلي.. تحتال عليهم نفس الاحتيال غير الشريف الذي كنت بارعا فيه.. وإن كان هذا غير محتمل.. كما أظن..

الواقع أنني أهنئك لأنك صادقت مخلوقا ابله معتوها مثلي... أهنئك من كل قلبي.. وأبدي لك إعجابي الشديد بعبقريتك غير المنكورة.. ماذا؟ نعم أنني أبله معتوه سخيف لا ريب في ذلك، وإلا فلماذا مثلا أتكلف مصاريف السفر من

الإسكندرية إلى صفط الملوك ذهابا وإيابا.. لأحادث والدك المحترم دقيقتين اثنتين لا غير.. أعلم فيهما أنك ذهبت إلى الجامعة الأمريكية وأن المدير رقص أمامك؟!! لماذا؟!!

بلاهة.. لا شك فيها..

ثم.. هل يخطر في ذهن شخص عاقل أن يفكر بمثل هذه الطريقة؟ .. أن يفكر انه قد يكون أبله وهو لا يدري وكل هذا الهذيان؟ .. كلا إن العاقل لا يفكر هكذا مطلقا.. المجنون هو الذي يشك في أنه مجنون.. أما العاقل فلا يعقل إلا انه عاقل..شيء مسل.. على أي الأحوال.

ولماذا أكتب إليك... رغم أنك لم تتنازل بالرد.. فآخذ مظهر من يترامي تحت أقدام سيادتكم.. ويرفع إلى عرشكم عينين مخضلتين بالدمع..ويتضرع في صوت مبحوح.. يطلب الرحمة والعطف؟ لماذا أكتب أشياء مثل رسائل العشاق المهجورين, لا مؤاخذة، كما سوف – لا شك – تقول؟

لماذا أفعل هذا.. إذا لم أكن أبله.. لا أستطيع أن أقدر النتائج.. روأضع الأمور في وضعها الصحيح.. وأن أحترم نفسي.. ولا أضايق غيري؟

ولماذا أظل مستيقظا حتى الآن.. الساعة الثانية صباحا.. أسود الصفحات الطوال بالهراء والهذيان.. الذي قد يضيع.. أو هو ضائع هباء..

ولماذا أقلب في خطاباتك.. ثم اتمتم بعدة لعنات بصوت منخفض كمن يخشى أن يسمعه أحد.. رغم السكون السائد.. ثم أضحك بعد ذلك ضحكة خافتة تماما كبعض المجانين؟

ولماذا مثلا تطن في رأسي نحلة شريرة.. فأجمع كمية من الأوراق التي قضيت فيها الليالي الطوال.. أضع فيها روحي وقلبي وفكري.. ثم أضع هذه الأوراق.. أشعار وقصص والسخافات التي تعرفها.. أضعها في علبة صفيح.. ثم اطفئ النور.. وأوقد في الورق النار.. فترمى بضوء مشع عجيب.. في الغرفة المغلقة المظلمة.. ثم تتطاول ألسنة اللهب.. وتأخذ ألوانا متمازجة عجيبة.. وتخفت لتأخذ لونا أزرق شاحبا.. وتموت.. كل ذلك وأنا أحدق فيها.. وأبتسم لها.. تماما كالبلهاء.. ثم أقوم لأرمي بقايا الرماد الأسود من النافذة.. وأنا لا أحس بأي شيء.. إلا بجمود غريب متحجر.. نحو هذه الأشياء العزيزة المحبوبة؟

والآن... هل اقتنعت تماما بأنني أبله.. أم تريد أن أمضى في الاقناع؟ طبعا اقتنعت.. اقتنعت.. لا شك انك تصرخ انك اقتنعت لكي أخلصك أخيرا من كل هذا العناء...

كل ذلك... رغم أنك لا شأن لك بالموضوع كله.. إنما هو أبله يكتب إلى نفسه.. لكي يقنع نفسه – لا أنت – أنه حقيقة أبله... !!

(طبعا لم تكن " علبة صفيح " بل كانت كروانة طبيخ، لكن ماذا تفعل في حُواذ التوشية الرومانتيكية؟)

أنت الآن تقطن ١٣ حبيب جلبي.. وأمامكم الفتاتان الشاميتان.. إميلي وايفيت، كما أعتقد، أم لعلهما انتقلتا وتركتا الوحشة والظلام في الشارع...؟ .. هه.. ليس لي أن أعرف جواب هذا السؤال قط..

لأنني لن أتسلم منك خطابا بعد الآن

أليس هذا شيئا دراماتيكيا مؤثرا؟

"... إن بعض الدموع تجول في عيني.. ولكني أسرع بتجفيفها في وحشية غريبة... "

كان هذا كلامك، في وقت من الأوقات..

وأخيرا إذا كنت قد عبرت هـذا الخطـاب بسـلام.. و وصلت إلى هنا.. فإنني أحب أن أشـكرك.. شـكرا عميقـا.. جزيلا..

نعم شكرا عميقا.. جزيلا...

هل تعرف أن بعض الكلمات تئن.. وتصرخ.. تحت ثقل ما تحمل من المعاني؟

في النهاية تقبل تحياتي.. وإخلاصي الأبدي.. وشـوقي البالغ الحار.. وآه.. على فكرة.. تحياتي إلى جانيـت وأسـفي لتهدف أحلامها في " غرفتي الهادئة التي تقع في ركن وكركما الجميل ".. نعم، أليست الحياة، كلها تقريبا أحلاما كوازيمودية مبعثرة؟

(........)

(لماذا – وما معني – هذه الدموع النزرة التـي تمـلأ عيني، بعد أكثر من نصف قرن؟ ياه! لا أصدق طبعا، لكن هذا الطفل الصبي النزق الغارق في الرومانتيكية، ما زال هنا، يـا سلام !)

" الجامعة الأمريكية بالقاهرة "

قسم الصحافة

عزيزي..

أو لم يعد لي الحق في أن أدعوك بعزيــزي... بعــد أن صرت أنا لا عزيزا ولا صــديقا!؟ مــاذا حــدث لعقلــك يــا صديقي.. هل أصبت بخبل من جــراء مصــاحبتك الطويلــة لسامي وجورج وأمثالهما؟

لقد بدأت خطابك الأخير بكلمة " ســخرية!"... نعــم... سخرية! ولكني لست أدري أمنك أم مني أنا؟ .. اية سخرية يا صديقي! أية سخرية في أن أموت سريعا هكذا. وأدفن. ويركع صديقي – أو من كان صديقي – الوحيد.. على العشب يبكيني فيدعوني خادعا. نصابا زائفا. محتالا !

يا إلهي !... ماذا تقول جانيت إذا عرفت كل هذا عنــي وتبين لها أنها مخدوعة، تحب شخصا يتحلي بهذا العقــد مــن الصفات.. لا تخالني غاضبا يا صديقي.. أو حتى متألما.. فأنا أعلم أي شيطان دفعك إلى كتابة هذه الكلمات، وأعلم بأي روح كتبتها.. ولكنك تظلمني يا صديقي.. تظلمني ظلمــا غريبــا..

كنت آخر من يتوقع أن يصدر عن شخص هو أنت.. اسمع يا صديقي.. وصدق أو لا تصدق...

عندما خرجت أنت في ذلك الأصيل المشئوم.. وتركتني بتلك الصورة الغريبة التي لم أعتدها منـــك.. غضـــبت أنـــا.. وشعرت بسخط عنيف عليك.. وعلى نفسي.

قد أكون أنا المخطئ.. والمسيء.. في ذلك اليوم.. نعم.. قد تكون هذه هي الحقيقة.. ولكنك تعلم أن الحقيقـــة لا تعنـــي شيئا في مثل هذه الأحوال.. فقد شعرت أنا حينذاك بأنك أنـــت المخطئ.. وتسطير هذا الشعور على.. حتى خلت حقا بأنـــك أنت المسيء وحدك.. وأنا الضحية البريئة لإساءتك.. فرحـــت انتظر يوما بعد يوم. بأمل أن يصلني منك خطاب ينهـــي كـــل هذه السخافة أو قل الدراما المضحكة! ولكنك لم تكتب. ويظهر أنك رحت تنتظر مني خطابا كما كنت انتظر منك.

وانتقلت من صفط الملوك إلى مصر – وظهرت النتيجة. ونجحت. فتوقعت أن يأتني منك خطاب بهذه المناسبة التافهة. ولكن. لا شي. وتألمت أنا وعددت الأمر كله indifference منك....

وبعد أسابيع.. أو شهور.. وصلني خطاب منك.. محولا من صفط الملوك.. ولست أحاول هنا أن أقول لك بأي شعور تلقيت هذا الخطاب، في شيء يشبه الكبرياء، أو الغيظ، يمنعني من ذلك، ولكن الذي حدث هو أنني كتبت لك الرد – بعد بضعة أيام – على الآلة الكاتبة، وكان خطابا سخيفا على ما اذكر.. وستفهم معني هذه الكلمة إذا وصلت إلى نهاية خطابي هذا.

ورحت انتظر ردك على الجامعة، لأني أخبرتك في الخطاب (أنه يستحسن أن تكتب الرد عليها، وأن يكون العنوان بالإنجليزية لأنني في ذلك الوقت كنت أفكر في ترك (١٣ شارع حبيب جلبي) والإقامة بالجامعة ذاتها.

ومرت أيام طويلة وأنا انتظر ردك فلم يصلني، ورحت أفكر في كتابة خطاب آخر لك، ولكن حدث عندئذ ما منعني من ذلك، إذ جاءت جانيت إلى الزقازيق، وأنت تعلم ما حدث طبعا، فقد طرت إلى هناك حيث بقيت أكثر من ١٣ يوما عدت بعدها إلى مصر – (أعني إلى الجامعة لأنني منذ ذلك الوقت تركت منزل خالتي بحبيب جلبي)....

وحدث أن ذهبت أول أمس إلى منزل خالتي.... فقالوا لي أنه جاء خطاب منك، وتلهفت كالمجنون إلى قراءة الخطاب، ولكن من استلمه منهم كان قد وضعه في مكان نسى موضعه فيما بعد، فأخذ يبحث عنه أكثر من عشر دقائق إلى أن وجده، وكنت أنا في خلال هذه المدة على حال من القلق والتلهف كادت تسبب عراكا بيني وبينه.

وأخذت الخطاب وأسرعت بالنزول كي اقرأه في الترام.. لعلك تذكر حالتي يوم أن وصلني أول خطاب من جانيت، لقد كنت ساعة مجيء خطابك الأخير، في حالة تقرب من هذه لهفة وسعادة وفتحت الخطاب فطالعتني، " سحرية " !!

لست بحاجة إلى أن أشرح لك أكثر من ذلك يا صديقي أو قل أنا لا أستطيع، لأنني أشعر بضيق شديد عندما أطيل في كتابة مثل هذه الأشياء...

هذه هي القصة برمتا..

لست أدري إذا كنت ستصدقها أم لا ولكن هي الحقيقة يا صديقي، وكثيرا ما تكون الحقيقة في مثل هذه الأحوال أبسط مما يتصور الإنسان.. أو قل أبسط من أن تخطر على باله.

ولكن ! العجيب الذي يضحكني في هذه المأساة كلها، أو قل السبب الذي جعلني أتقبل معاملتك بهدوء دون ألم أو غضب كثير.

وهو أنني كثيرا ما عاملت جاني مثل هذه المعاملة، لأتفه الأسباب لأسباب كنت أذهل فيما بعد عندما أكتشف كم كنت مخطئا في تصورها، بعيدا عن الحقيقة بعدا شاسعا.

نعم.. كثيرا ما كنت أظلمها – وأقول كنت لأنني تخليت أخيرا عن هذه العادة المقيتة – كما ظلمتني أنت، وكنت أقسو عليها قسوة كانت تقابلها بالدموع والاستسلام، وهأنت الآن، كأنما تنتقم لها – تعاملني المعاملة ذاتها... فأحس تماما كم كنت مجنونا.. سخيفا.. مخدوعا.. في كل ما سببته لها من آلام ! ولننته الآن من كل هذا.. إذا شئت أنت أن تنهي هذه المسألة السخيفة.

... والآن يا صديقي.. هناك بعض أشياء في خطابك أود أن أنبهك إليها، كتابك الفرنساوي – la Maison de la mort certaine مع جاني، وقد طلبت إليها بنفسك أن تكتب

لك فيه الكلمات الصعبة، وقد قاربت الانتهاء من قراءته كما أظن وفعلت كما طلبت أنت منها وسترسله لك قريبا.

أما عن الشيء الآخر، الذي تزيح عه كلمة " Simply Dev " الستار في ضحكة مستهترة، وتلقى عليه ضوءا غادرا فاجرا فلست أدرى ما هو.

وإذا كنت تعني ولعي بالكذب، فهذا الشيء لا أنكره، بل أنا دائم التفاخر به، ولعلك تذكر أن صداقتنا كلها قامت على أساس ذلك اليوم الذي أخبرتك فيه " أنني من العباقرة في الكذب والأختلاق ".

لقد أحببتني حينذاك لأني أخبرتك بأنني كذاب، ولست أفهم لماذا تحتقرني اليوم لا لشيء إلا لأنني، كذاب.. هذا هو كل شيء يا صديقي..

ويخيل إلي الآن أنني خلصت كتفي من حمل ثقيل، هو تلك الأشياء العجيبة التي صببتها على دون حساب !.. إنني برئ من كل ما تنسبه إلي، وهذا يشعرني بأنني أفضل منك كثيرا، من هذه الناحية على الأقل.

نعم... أنني برئ يا صديقي – أما إذا شـئت أن تعتقـد وتؤمن بغير ذلك فهذا شأنك وحدك، ولك أن تعيد إلى خطـابي هذا، دون أن تكلف نفسك عناء كتابة خطاب آخر مـن عينـة خطابك الأخير.

انك قاس يا صديقي. قاس إلي حد عجيب علـي وعلـي نفسك انني تعس يا صديقي لا أستحق إلا عطفك.. وحبك، بدلا من احتقارك وكراهيتك.

آه لو تعرف أية حياة أحياها الآن يا صـديقي القاسـي؟ ولكن لا... إن الكبرياء اللعينة تمنعني من أن أقول شيئاً أو قل هو احترامي لهذه الآلام هو الذي يمنعني من ذكرها لئلا تظنها وسيلة وضيعة، أستدر بها عطفك وأستعيد بها حبـك، أو قـل صداقتك التي شئت أن تميتها وتدفنها في قبرى الـذي زرتـه مبكرا !

.. هل تتذكر " أوسوالد الفينج " ذلك الفنان الـذي خلقـه إبسن في مسرحيته " الأشباح " وشاء أن يصيبه (بدويان العقل) هل تتذكر حال ذلك الفنان التعس؟ إنها حالى تماما يا صديقي، مع فرق واحد بسيط، هو أن عقلى باق كما هـو – والعجيـب

أنني لم أجن إلى اليوم ! ولكن (روحي) هي التي ذابت يـــا صديقي، نفسي، احساساتي، مشاعري أحلامي، كل هذا يخيــل إلى انه ذاب ومات وتركني متثلجا باردا لا أستطيع أن أحـــس شيئا.

تصور أي هول يكمن في هذه الكلمات يا صـــديقي !.. إنسان لا يستطيع أن يحس لا يستطيع.. أن يكون ما كان يوما ما كتلة متقدة من العواطف والأحلام والأحاسيس.

إن الجو المخيف الذي أعيش فيه قد قتلني، وسأجن يوما، أو أنتحر إذا وجدت الشجاعة لذلك.

ولكن لا، مالك وهذا يا صديقي.. مالك وهراء نصـــاب، محتال قضى عامين طويلين يكذب عليك ويحتال عليك احتيالا غير شريف.

يا إلهي... ! ما أقساك على نفسك ونفسي معا.

أتعد كل ما مضى بيننا خداعا، ونصبا؟؟ انك جننت يـــا صديقي! أكانت تلك الأيام التي قضيناها معا خداعا؟ أكانت تلك الساعات الالهية التي تعانقت فيها روحي بروحك نصبا؟ أكانت تلك الساعات التي قضيتها معك أنت وجانيت كلها زيفا ورياء؟

أكان كل ما مر بيننا خداعا متصلا دائما؟

رباه إنني مجنون إذن! لقد كانت حياتي خـــلال العـــامين الماضيين تنصب في شخص واحد هو أنت، لقد كنت أنت كل حياتي خلال هـــذين العـــامين، أفكانـــت هـــذه الحيـــاة كلهـــا نصبا؟وخداعا مستورا أزيح عنه الستار أخيرا فـــي ضـــحكة غادرة فاجرة؟

إن شهرا أو شهرين قضيتهما بعيدا عنك، قـــد صـــيراني إلى ما أنا فيه الان من موت واختناق وهول دائم... ومع ذلك فكل هذا خداع ورياء.

ولم لا؟ أليست الحياة ذاتها خدعة كبيرة، رنانة، جوفاء؟

معذرة يا صديقي إذا كنت لا أستطيع أن أكتب لك أكثـــر من ذلك فلم يعد لي أقل صبر على الكتابـــة، والملـــل يقتلنـــي لمجرد إمساك القلم، أو قراءة كتاب.

أكتب إلى إذا شئت.. أنني انتظر.

وفيق

يا صديقي، هأنذا أكتب إليك، بعد مرور أكثر من خمسين عاما، فهل ما زلت تنتظر؟

أم أن كل شيء قد فات أوانه؟

غريب أنني أذكر ذلك كله في مساء ١٦ نوفمبر ١٩٩٣، فقط بفارق إحدى وخمسين سنة وستة أيام، إذا صحت الحسبة.

أذكر.. أهذه مما يدخل في باب الذكرى؟ أم أنها بلا زمن، كما أهوى أن أقول.

هل أعترف لنفسي إنني كأنما كتبت هذا الخطاب بالأمس فقط، أنني أكتبه الآن، أنني سأكتبه ربما بعد ستة أيام؟ ربما مع تعديل طفيف في النبرة، لا غير، ربما بتخفيف قليل من الصرخة، يمكن، لكن الصرخة هي هي.

هل أسخر من نفسي – قليلا – لأنني كتبت، أو سأكتب هذا الخطاب أم أنني اشفق على نفسي قليلا؟

لا أرثى لنفسي ولا أنكرها.

" الفؤاد صعبان عليه.. " فقط.

صخور الأشياء – وما في داخلها – حادة السنان، ماثلة الآن بقوة. ليست ذكريات – كما لا أني أعيد وأزيد – بل هي بكر، حارة الحضور، لم تتثلم فيها حافة واحدة لم يخفت لها وقيد.

أقول لنفسي " بهدوء " – و " بصراحة " أيضا: يا سلام يا أخي.. ! لا ينقصك إلا عزف كمان حزين وأشجان القمر الطري المسكوب.

وأقول لنفسي: لا.. لا.. حرام.. ليس ذلك بصحيح.

كيف كنت أحمل ذلك كله – كأنما نسيته – إلى اجتماعات الحلقة التروتسكية، في شقة عبد القادر نصر الله وعبد الرؤوف نصر الله، شارع عباس، محرم بيه, بعد ذلك بثلاث سنوات فقط.

كان فتوح القفاص، بطبيعة الحال، يأتي متأخرا عن الميعاد، يضرب بكل " قواعد الأمان " عرض الحائط – كما يقال – ويدخل وهو يحمل الكتب والصحف الثورية الماركسية والفوضوية، بالإنجليزي، جهارا نهارا، ثم يقتحم النقاش – أو مجرد استعراض الأحوال وتقارير التطورات، المحايدة الإخبارية – بجدل عال وسرف في الحماسة، من غير داع إطلاقا، يقاطع ويشتم " يا حيوان ! " ويعلن، من غير مناسبة، ثورته على ماركس المستبد برأيه الدوجماطيقي القاطع في حتميته، ويدين لينين، ويؤيد تروتسكي، ثم يؤكد انحيازه

لباكونين وكربوتكين وللفوضوية التي تنتفي فيها كـــل قطعيـــة وكل سلطة فوقية، هكذا، كله على بعضه، وبينما نحـــن نـــتكلم ببساطة عن تنظيم مظاهرة أو كتابة بيان نطالب فيه بتأميم قناة السويس أو نؤيد فيه اضرابا لعمال مصنع بولفارا، كان يشطح بنا نحو سماوات النظريات العلى، ويهيم في كل واد مع أفكار مجردة ومغوية، والرذاذ من فمه الواسع يتناثر دون تورع ولا حرج.

ومع ذلك لم يعتقل فتوح القفاص قط، مع أننا جميعـــا – تقريبا – قد اعتقلنا أو حبسنا فترات تطول أو تقصر، باستثناء كامل الصاوى أيضا الذي احترق بـــه ســـريره وهـــو يـــدخن سيجارة، بعد ذلك بسنة أو سنتين.

عندما خرجت من معتقل أبو قير كانت الحلقة التروتسكية قد انفضت وبادت وأمست أضغاث ذكريات، وكان فتوح رفيقا دائما أو شبه دائم على طول فترة صـــعلكة ويـــأس وتخـــبط، وبحث مستميت عن لقمة عيش، فتوح يعهـــد إلـــي بترجمـــة براءات الاختراع – ميكانيكية وكيماويـــة وهندســـية معقـــدة وتكنيكية جدا – للمكتب الذي كان يعمـــل بـــه الآن، ويملكـــه

ماجري أوفرند اليهودي المالطي الاسكندراني، أكرش، أجش الصوت، طبيب القلب الذي هاجر إلى استراليا بعد الثورة.

وعندما كان اليأس والسأم وعنف الضيق يطفح بى، في اية ساعة من النهار أو الليل تقريبا، لم أكن أعدم أن أجد فتوح في مكتب براءات الاختراع في محطة الرمل، أو في الفريسكادور – قهوتنا المأثورة التي حل محلها الآن " عمر أفندي " في شارع سعد زغلول – أو حتى في قهوة الأشباح في الخندق – الممر الضيق المعتم تحت سفح عمارة أوريكو الشاهقة. ومنه عرفت كيف أدخن السجاير الإنجليزية الفاخرة: كرافن ايه، بول مول، أو بلايرز في علب معدنية رقيقة أنيقة مسطحة. كل علبة بخمسين سيجارة، ومعه، ومع أحمد قنديل الرسام الذي أحبه، ومع رضوان القفاص، أخيه الذي كان يدرس الفلسفة في كلية الآداب، وأنطوان – أخ أوديت – الذي كان يعمل عندئذ في " الميساجيري ماريتيم " كنا نذهب إلى سينما مترو، من تلاته لستة، ومعنا زجاجة ويسكى بلاك آند وايت مبططة، وقدحين أم الخلول في قرطاس ورق متين، وفي عتمة الظلال والأضواء المتناوبة، وبهدوء وحرص وكياسة،

دون صوت تقريبا، وبينما الصور وأحلام هوليـــود الجـــاهزة المعلبة تتخايل على الشاشة، تترى، نفتح أم الخلول ونمـــتص الهلام الطري الذي يحتفظ به كنه بملح البحر – وكأنه يحـــتفظ في سر لحمه الحريف بموجه المكتوم، ونمرر زجاجة الويسكى نترشف منها حسوة بعد حسوة، جافة قراحا، ولم تكن السجاير ممنوعة حينئذ ولا كان أحد سمع بأنها ضارة جـــدا بالصـــحة، وكان طعم الكرافن أبيه بأم الخلول والبلاك آند وايت له مذاهق ونكهة خاصة جدا، وكان طعم اليأس من كل شيء هو طعـــم استماتة اللذة المندثرة بمجرد سنوحها.

وعلى أن يده كان مفلوتة العيار، أو بسبب من ذلك، كان فتوح أحيانا يبحث في جيوبه فلا يجد مليما واحدا – والمليم هنا ليس استعارة بل حقيقة لها وزنها، المليم الأحمر الكبير – مثل ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى " لورانتوس " بعد جولة مرهقـــة في شوارع الإسكندرية.

كنت قد خرجت من عملي (الذي ادعيت انه في المتحف اليوناني الروماني مرة، أو في شركة باتينيول مرة أخرى، ولم يكن بهذا ولا ذاك) بعد الظهر. كان ذلك يوم الأربعاء – وكنا

في أواخر الصيف، وكنت محبطا ويائسا وشديد الشقاء من الداخل، لأن نعمتي حبيبتي لم تكن قد اتجهت إلى لا بتحية ولا حتى بابتسامة من بعيد، بل كان في نظرتها ما تصورته انكارا أو مجافاة نهائية، ولففت على المظان المعتادة: أتينيوس والتريانون والفريسكادور وديليس وقهوة الأشباح وكازابلانكا وعلى كيفك، فلم أجد أحدا.

قدماى ثقيلتان وقلبي ثقيل وأنا أدخل لورانتوس وأعبر إلى الحديقة المفتوحة. الدنيا حر ورائحة الجيجو والجامبون والمكرونة بالفرن تحمل إلى عبقا مغويا ومنفرا قليلا، وفكرت أنني لم آكل من الصبح وأنني مع ذلك غير جوعان، و وجدتهم جميعا، بشلة المعلم، حول مائدة كبيرة مستديرة مفروشة عليها زجاجات البيرة، والنبيذ الأحمر، مفتوحة، والأكواب نصف ملآنة نصف فارغة، والمزات في أطباق صغيرة من الصيني الأصلي الملون بنقوش، قطع الكرشة الحمراء، خشنة متعرجة الجلد وطرية المرأى، والترمس الأصفر بحباته البهيجة، شرائح الخيار، والطماطم ندية، ورقائق الجامبون لا تكاد شفافيتها تتضرج بحمرة خافتة شهية، وغيرها من خيرات الله.

كانت أرضية جنينة لورانتوس مبلطة ببلاطات بيضاء كبيرة، وبينها ممرات من الحصباء معشوشبة عليها حصى كبير له خشخشة تحت أقدامنا وأضواء كرات المصابيح الزرقاء على أعمدة رفيعة، متناثرة على الموائد الهادئة، وشجيرات حسنة التقليم لها كتل مربعة من الأغصان قوية الخضرة تظللنا، وكان هواء سبتمبر ناعما.

أليست صورة ناعمة، حتى لو لم تكن صحيحة، فهي قائمة، وحية، أهي أيضا لا تعرف الزمن؟

كان هناك رضوان القفاص، وأنطوان، وفوزي، وأحمد قنديل، وطبعا فتوح القفاص الذي دهشت لأنه كان صامتا، لا يفح ولا يلعلع، يصغى إلى أخيه رضوان الغارق في شرح قضية الفمنولوجيا وكيفية انحدارها من هيجل، وكان واضحا أنهم لا يسمعون له إلا بنصف أذن فقد كان تكنيكيا جدا في مصطلحاته التي لقنها حديثا في الكلية على يدي يوسف كرم ونجيب بلدي وكازنييف.

عندما شربت – وأسرفت – انقلب النبيذ على كما كان يحدث دائما وأنا مضطرب الحس ومضطرب القلب، فذهبت

أفرغه في التواليت الضيقة اللامعة من النظافة، وعدت أحس رعشة خفيفة في جسمي وركبتي مخلخلتين قليلا وأعرف أن الدم قد انساب من وجهي، ولم أصغ كثيرا لتعليقات فتوح الفلسفية الانفعالية، وهتافه بأخيه: "يا حيوان ! اسمع.. وافهم.. !" إذ يحاول أن يثبت – بصوت عال – أن الفمنولوجيا عرفها أبو حيان التوحيدي قبل أن يعرفها هوسرل. كانت غرارة قلوبنا حارة.

جاءت لحظة الانصراف بعد منتصف الليل بقليل، على غير رضى منا، ولكن مواعيد الإغلاق، في زمن الحرب، تحكم.

حسبها رضوان القفاص بسرعة في ذهنه، ووجد أن الحساب يبلغ ٣٦ قرشا وسبعة مليمات، على وجه الدقة، واتضح انه لم يكن مع فتوح ولا مليم، ونفضنا جيوبنا حتى آخر مليم – كان في جيبي بالفعل شلن وثلاثة مليمات، وجمعنا على الترابيزة، بين أنقاض المزة والأكواب الفارغة، كومة صغيرة من القروش والملاليم هي قيمة الحساب بالضبط وبالتحديد النهائي الدقيق.

جاء ستيليو، الجرسون الجريجي الطويل، منحنى الظهر قليلا، أنفه أقنى وخطوط وجهه حادة، فـــي البدلـــة الســـوداء السموكنج والبابيون الأسود على قميص ابيض زى الفل، ينظر بعينيه النافذتين الغائرتين إلى كومة الفلوس علـــى الترابيـــزة، لمها، عدها، أعاد عد القروش والملاليم الحمراء الكبيرة، مرة، ومرتين، فقال له رضوان: " مظبوط يا خواجا؟ " قال ستيليو، صوته مشروخ وعال وهو يخبط يداً بيد " مظبوط جوى... ولا بكشيش.. ولا خاجة عشان ستيليو.. مظبوط ". واستدار وذهب وهو يتمتم لنفسه: " مضبوط يا خبيبي... مظبوط ! ".

أين كان وفيق بسطوروس راقم في هذه الحكايات؟ لماذا لم يكن له هنا.. أي حضور؟ هل كانت له شلته الأخرى، ومنها فوزى وأحمد صبرى وإيهاب ونســـوانهم، وهـــل كانـــت لـــه اهتمامات أخرى؟ لم أكن بالكاد، أراه في تلك الأيام، أظنه لـــم يكن يحب فتوح القفاص، أو لم يكن يرتاح له، على الأقل.

وكانت قصة أوديت وفتوح القفاص معروفة لنا جميعـــا، ومقبولة، بل نجد فيها شيئا من الطرافة والانعاش والروح عن النفس.

ولعل أوديت كانت تكبرنا بسنوات قلائل، يمكن سنتين أو ثلاثة لا أكثر، وكان في وجهها خطــوط المعرفــة والخبــرة المكبوتة التي لم تكتمل.

وكانا يتواعدان، أحيانا، في الفريسكادور.

تأتي، أنيقة، محكمة الجسم، ورشيقة، على عينيها نظارة نظر حريمي مذهبة الإطار، يداها في قفازين أسودين من الجلد الغالي، حذاؤها بكعبه العالي يرن بموسيقيه متزنة فيها رصانة وفيها لمحة نزق على بلاط الفريسكادور الذي كانت مقاعــده على شكل مقاعد الترام أو القطار، متقابلــة وثابتــة ومنجــدة ومكسوة بالجلد الصناعي المريح.

كانا يشربان، معنا أو وحدهما، فنجان الكابوتشينو الــذي اشتهرت جودته ونكهته الطيبة، وعلى رغوته المزبدة مسحوق القرفة أو الشيكولاته الناعم الذي يكسبه في الفم طعما فريدا، أو يأخذان كأسا سريعا من المارتيني الجاف، ثم يذهبان وحــدهما إلى السينما مثلا أو التريانون أو المونسينيور لعشاء حميم ولا بد أن يكون فخيما.

ومع ذلك، أو بعد ذلك بقليـــل، كنـــت أواعـــد أوديـــت، صديقين، نلتقى في سكارابيه في ستانلي بيه، أو في سينما فؤاد لفيلم فرنسي من أفلام جان كوكتو، جان مارييه، رأيت معهـــا "أورفيوس " و " تحت سماء باريس "، وكنت أمسك بيدها فقط، أحيانا في عتمة السينما الأنيسة، لم أقبلها قـــط – مـــثلا – لـــم أعرف طعم شفتيها.

ذلك بينما كنت أخوض غمرات حـــب يـــائس يزلزلنـــي ويبعث في نشوات وعذابات، وربما نشوات العذبات كـــذلك، لنعمتي النضرة الحيية منعشة الصبا صغيرة القد.

وبالتالي لم تكن هناك بيني وبين فتوح القفاص لا منافسة ولا غيرة ولا تقاتل، كان مفهوما – على الأقل عندي – أن ما بيني وبين أوديت صداقة لا أكثر، فهل كان هذا مفهوما عندها؟ وهل كان مفهوما أن ما بينها وبين فتوح القفاص كان صـــداقة غرامية، أم كان غراما، أو أكثر؟

ربما.

وكانت أوديت تأتي للفريسكادور أحيانا مع آرليت، أختها الطويلة التي لا أذكر منها إلا شعرها المنسدل الغزير ووجهـــا

بيضاويا واسع الفم وقواما فارعا وشهويا، على عكس أختها التي كانت منمنمة الجسم ،" مثقفة " المظهر.

هل كان في زواج فتوح بآمال الحادة القاطعة، مغربية الأصل، وفي حبي لنعمتي، كلانا، في الوقت نفسه، خيانة مضمرة – أو سافرة – لأوديت؟

ربما.

بل كنت في ذات الآن، أواعد جارتنا في الشقة التي تحت، في راغب باشا، كانت تترصد نزولي للشغل في الصبح بدري وتخرج من باب شقتها في قميص نومها قاني الاحمرار، ضيقا يحبك بطنها وأعلى فخذيها، وذراعاها عاريتان وبضتان، كأنهما فخذان، تتفجران بلحم شهوي. ولعلني الآن نسيت اسمها، كانت ممتلئة بجسمها، ومحتشدة بل محشوة بغرامها الرومانتيكي الحسي معا، وكنت أذهب بها إلى سينما لاجيتيه في الإبراهيمية أو إلى جنينة البتي تريانون في آخر شارع سعد زغلول، بعيدا عن الأنظار، فهل كان في هذه المواعدات المغامرات ما يشبه الثأر أو الانتقام، مم، ممن؟ أم جرفتني إليها نوبات يأس واستهتار بقيم كنت قد خذلتها أو خذلتني؟

ما الخيانة، وأين الأثم؟ وهل هي هناك، هــل بــادت؟ أم أنها باقية، لا تريم؟

سماء الإسكندرية، صافية الزرقة، كانت تطفــو تحتهــا ببطء سحابات بيضاء خفيفة لا وزن لها كأنها لا تتحرك علــى سطح بيت في شارع الاسكندراني الأعمدة الرخامية الكورنثية تتناوب في صفوف طويلة مع أعمــدة الجرانيــت الحمــراء المشرجة بشرايين سوداء منشعبة غارقة قواعدها في مويجات البحر المخضرة والنقوش الهيروغليفية تقول لها بالخط المقدس أسرارا لا تقص تحكي عن أمجاد غابرة ولكن ثابتة إلى الأبــد في قلب الحجر المدور المصقول كــم مــن الأيــدي الحانيــة الخاشعة نعمته والكتابات القبطية موجات مزهرة بالأغصــان المعرشة ومثقلة بعناقيد العنب ومزامير بان وداود معا زرقــة الكوبالت الفرعوني بين اللازوردي والكحلي العميق تضــيئها نجوم هندسية تومض بالطزاجة كأنها في أول يوم للخليقة وهي في كن الأعمدة تحت سقف السيرابيوم الساجي بحر ســماوي ساكن السطح محبوس في السماك العلــى لا ينســكب موجــه المرصود كأنما تجيش في دخيلتها قدسية غير معلنة وإذا هــي

تنضو ملابسها في الحرم المكنون وفي نور ينبجس من قلبهـــا من هيكل مكرس إلى الأبد من عين واحدة نفاذة سيكلوبية تخلع الفستان الخفيف أولا ثم تخطو قدماها وتتوس ساقاها في بداية رقصة صامتة النغم لا يسمع جرس موسيقاها إلاها نايرة نيرة بنجوى كونية ثم تميط عنها السوتيان ويتحرر ثدياها الصغيران تحت أعين أسماء الآلهة المحفورة في الجرانيــت الاســوانلي المصمت بدمائه السخنة وفي رخام كـــرارا الناصـــع بلدونتـــه الملساء، وفي عمق الجسم المبذول وإذا هي الآن عارية تماما تنسل بين رموز القداسة منسابة في رقصها رمزا آخر لقداسة الجسد الأنثوى الذي انجسمت فيه جثمانيته وســـرائر دخائلـــه المحرززة معا لم يعد, ثم حرص دنيوي بل سخاء كامل سرف العطاء، بلا ضن في موسيقي تموج الجسد الواحـــد المتعـــدد المتكرر بلا انتهاء المسفوح عن طواعية قربانا بلا حساب.

ضربات موج الصبا في " نوة المكنسة " على رصـــيف ابيض يظل ساذج البراءة وناصع الحجر انهمار المطر الذي لا يغسل شيئا ولا يثبت شيئا ستارة مائية مزدوجة تطس الجدران العاتية التي لا تنهار وعصف الروح لا يقتلع نخيل الصـــبوات

القديمة المورقة المثقلة بتمر خصيب يتخبط سعفه بحفيف أجش مضطرب النغم عذب وجارح الخشونة وهناك على البعد قلعة قايتباي التي لم ترمم بعد ولا وصول إليها أبدا عبر لجة السنين وهجمات بحر اللازمن.

لا وصول إليها؟

٥ – أمواج غائمة في السماء

كأنما القطار يخترق عاصفة رعدية، ونحن على وشـــك الوصول إلى محطة سيدي جابر.

ومض البرق يشق الفضاء، منشعبا وخاطفا، يضئ ركام السحاب الأسود لحظة ثم ينطفئ لتجئ بعده جلجلة تهدم السماء في قعقعة متجاوبة الأصداء، جليلة، والقطار يقـاوم عصـــف الريح وكأنما يصطدم بها وهو ينفذ في يحضنها المدوم.

وكأنما رامة بجانبي، كما كانت في ذلك القطار الذي كان يشق نفقا طويلا مظلما، وهي في حضني، رأسها إلى كتفـــي، أسلمت نفسها إلى إغفاءة قصيرة، أحس جسمها الدفئ بـــالحنو والاستسلام إلى جسمي.

وكأنما أقلب كتاب مذكراتها يومياتها، ليس فيه كلمـــات، بل صور ملونة مرسومة بحذق ومسلم بها، مأخوذة كما هـــي على علاتها.

متي رسمتها؟ وماذا تقول باللون والخط وتدوير الـــنقش ورموزه مشتجرة متشابكة؟

ما لم تقل بالكلمات.

وكأنما اختفت من جانبي، بلا سؤال ولا غرابة.

خبت العاصفة، وانحسرت، والقطار يمضي الهـويني، يبطئ وهو يدخل المحطة، وليس في يدي إلا هذه الصور التي بهتت ألوانها، كتاب مذكراتها، لا يذكر شيئا عن الحب الباقي، هذا الحب الذي كانت تخشي عليه من الزوال بسطوة الـزمن، قالت " حبنا "، لكنه لم يزل، وما زالت مع ذلك للزمن سطوته. انتهى الأمر إذن، كأنما قلت لنفسي، بشيء من الحـزن فقـط، هذا الحب باق، لكنه بلا جدوى، ككل حب، ليس هنـاك فـي حسى تفجع ولا التياع ولا مضض، قليل من الحزن فقط.

دخل – في الحزن – بقامته الطويلة، أنيقا، ربطة عنـق بابيون سوداء لم أكن قد رأيته بها قط. من؟ دار في ذهن الحلم سؤالي: ماذا؟ ألم يمت؟ ألم يكن قد قتل؟

قالت لي إن الصحراء الممتدة الفسيحة البراح تسحرها، أن العراء المطلق تحت السماء يفتنهـا، لا أحـد، لا زرع ولا نبات معشوشب حتى، ولا شيء.. الرمل المتموج في وهـاده وكثبانه قليلة الارتفاع وسهوبه المبسوطة المـدحورة والهـواء النقي حتى ليكاد أن يكون جارح الصفاء، هذا هو ما تمـوت

فيه حبا، عندئذ، قالت لي: تشتهى أن تتعرى,أن تتضوعنها كل ماهو خارجى مقحم, كما تشتهى أن تسمو، وتصفو، وتخلص نقية بلا شائبة ولا وهم عكارة ولا كدر، أمام الرموز الهيروغليفية، تحت نجوم نوت المشعة حادة الخطوط في زرقة اللازورد العميق بلا قرار، قالت لي (من قالت لي؟): "رشوت خفير المعبد، بل تحببت إليه، حتى خرج، وابتعد، وخلوت إلى هيكلي وعبادتي، في عتمته الخفيفة بين الأعمدة الجرانيتية المدورة التي تهمس إلى بألغاز الأبد واللاموت، خلوت إلى عرى جسدي أمام الأقداس، من غير رجل ولا رغبة في رجل، بل هو خلوص ونقاء ".

قالت لي ما كانت قد قالته هي الأخرى، من التي قالت؟ هي أم هي الأخرى؟

كانت السماء غائمة والبحر مضطربا وأنفاسي متقطعة من صدمة الهواء على الكورنيش وأنا أعبر الشارع المبلل من رذاذ كان قد أقلع من الصبح، ورشاش موج مازال يطس الصخر، تحت، ويعلو. يخبط الماء حافة الكورنيش ويتناثر، محبطا، فوق السور الحديدي الذي يلتمع.

وكان عبور الشارع خطرا وإن كانت السيارات قليلة لكن الأرض تحت قدمي زلقةِ.

عندما وصلت الرصيف وجدته فجأة أمامي.

بطرس طانيوس.

لكم أكن قد رأيته من سنوات، أخر مرة لقيته فيها كان في قسم الإنجليزي في كلية الآداب عندما انتقلت إلى المحمودية، وحييته تحية عابرة، ومضت بنا الأيام كل في طريق.

لكنني الآن وأنا أسلم عليه، أمام باب البناية الجديدة الشاهقة في جليم، كأننا تحت سفح صخرة هندسية ساقمة ولكن قميئة على نحو ما، غير مقنعة، وهو يسلم بصوته النحيل الرفيع شيئا ما، صوت مدرس محترف فيه رنة معدنية طفيفة، تذكرت فجأة أول درس في أول يوم لي في مدرسة النيل الابتدائية التابعة للجمعية القبطية الكاثوليكية.

لا بد أن ذلك كان في ١٩٣٢.

جئت من روضة الكرمة القبطية الارثوذكسية، وقالوا لي: هنا مكانك، كنا اثنين على التختة الأولانية، ولم تكن

الحصة قد بدأت وكنت خجلا وربما مرعوبا فلم أكن أعرف أحد حولي – كنت طفلا في السادسة.

كان درج التختة أمامنا مشتركا، له غطاء واحد كبير يرفع وينزل على قسمين يفصل بينهما حاجز خشبي، قسم لي وقسم لزميلي الذي لاحظت على الفور أنه أشقر الشعر قليلا وإن كان أجعد، أبيض، ومدكوكا.

رفعت غطاء الدرج لأضع في "درجي " حمل الكتب الذي كان يربكني، فارتفع العطاء وكشف بذلك قسم زميلي من الدرج، لم أكن أعرف عن زميلي شيئا وترددت حتى أن أسأله ما اسمه؟ وعندما نزل الغطاء سقط فجأة من يدي على كشكول زميلي.. التوى الورق واعوج الكشكول وأحسست طبعا أنني اقترفت جريمة.

هل كنت أرى في المدرس الذي أخذ رأسه صلع خفيف انحسر معه شعره الأكرت الفاتح، وعينيه المنتفختين قليلا، و وجهه الممتلئ المدور، ذلك الصبي الذي التفت إلى بغضب ومفاجأة، في أول استفتاح للسنة، وهتف بي: " مش تحاسب.... أنت أعمي ! "، ثم دخل مدرس الإنجليزي قيام وقمنا تعظيم

سلام جلوس طلعوا كتاب الإنجليزي قولوا ورايا كات مــات، وكان ذلك مألوفا لي و أنيسا كنت قد حفظته في الروضة.

في الفسحة قال لي زملاء جدد أن الولد الذي كسرت له الكشكول هو ابن أخ ناظر المدرسة بذات نفسه، هــل كانــت البداية – مثل المسيرة كلها حتى النهاية الوشــيكة – خطــرة وزلقة ومنذرة، مهما كانت تافهة؟

لكننا أصبحنا أصدقاء وزملاء، افترقنــا فـــي المرحلــة التالية فقد استمر بطرس طانيوس في مدرسة النيل الثانوية في غيط العنب، وذهبت أنا إلى العباسية الثانوية في محرم بيه، ثم عدنا فالتقينا في الجامعة وإن كان هو في الآداب، وأظن انــه كان قد نسى تماما حكاية الكشكول المعروج، وإن كنت أنا لــم أنسها – كيف يمكنني؟ – ولم أذكره بها، ولــو علــى ســبيل الضحك.

قبل أن تقام مدرسة النيل الثانوية كان محلهــا – عبــر شارع الكروم، في مقابل المدرسة الابتدائية – مبنى مــنخفض طويل خشبي السقف، كان كنيسة للأقباط الكاثوليك، المقاعــد الخشبية الجديدة الناعمة على صــفين، النوافــذ العاليــة ذات

الشراعات الزجاجية الملونة، عتمة خفيفة، رهبة الصور والتماثيل القدسية الملونة البدائية على نحو ما، والهيكل المنسدلة عليه ستارة قطيفة حمراء أرجوانية.

هل كانوا قد دعوا تلاميذ المدرسة الابتدائية لحضور القداس، صباح الأحد، أم كانت تلك مناسبة خاصة؟

وذهبت، طبعا، مع أنني لم أكن كاثوليكيا.

ولا في أي وقت من الأوقات.

أم أن الذاكرة – أو الخيال – يلعبان بي؟

كان القسيس الصعيدي أسمر الوجه صلب الملامح يلبس التوب هات الروماني الكاثوليكي، قبعة عالية مدورة سوداء تنتهي حافتها العلوية باتساع قليل، والثوب الأسود السابغ، عليه وشاح أبيض خفيف مشغول، ودهشت بل فوجئت قليلا، كان ذلك على خلاف ما عرفته في كنيستنا الأرثوذكسية، حيث ملابس القسس بلدية، ويضعون على رؤوسهم عمة سوداء، وتنبهت إلى أن القداس والترانيم كانت تتلى باللاتينية فقط، لا القبطية والعربية، لا بد أن الطقوس كلها في الثلاثينات الباكرة كانت وفق تقاليد كنيسة روما.

وعند تناول القربان فوجئت مرة أخرى بأنه كان أقراصا صغيرة، رقيقة مدورة، متساوية الحجم والكثافة والتدوير، قلت: " مصنوعة بالملكنات "، أما القربان جسد المسيح الحي الـــذي أعرفه فكان قطع الخبز البلدي المخمر الملئ، لقمة تختلف عن لقمة، لكل منها جسدانيتها وكثافتها وحميميتها؟

لم أحضر قداسا كاثوليكيا قبطيا بعد ذلك قــط. أعــرف انهم الآن يتبعون الطقوس القبطية ويقولونه بالقبطية والعربية، لكني أحس دائما وربما عن خطأ – بلا شك عن خطأ – أنهــم ليسوا أبناء بلد، أن فيهم شبهة غربة عن الوطن الأم، أنهم تبع وليسوا الأصل، كما عندنا.

بعد سنين طويلة طويلة سوف اقرأ في " الأهرام " يــوم ٢٧ مايو ١٩٨١:

شكر وذكري الأربعين للمربي الكبير الأستاذ يني ســالم ناظر مدارس النيل بالإسكندرية سابقا تتقدم الأســرة بخــالص الشكر للمتفضلين بمواساتها بالحضور والنشر والبرق وتخص بالشكر السيد رئيس الجمهورية ونائبه والسادة نــواب رئــيس الوزراء والوزراء ومحافظ الإسكندرية ورئيس أعضاء مجلس

الشعب ورجال التعليم وكلية الهندسة ومركز بحوث الهندسة الصحية وأسرة التأمين الأهلية والإسكندرية للزيوت والصابون وهيئة الطيران المدني وتفتيش ومدرسة أشرف الخوجة كما تخص بالشكر الجزيل غبطة البطريرك الكاردينال اسطفانوس الأول والاكليروس ورئيس وأعضاء الجمعية الخيرية القبطية الكاثوليكية وشعب الإسكندرية وسيقام قداس وجناز الأربعين على روحه الطاهرة الساعة العاشرة صباح الجمعة ٢٩ الجاري بكنيسة الكاثوليك ٢٩٨ شارع بورسعيد كليوباترا بالإسكندرية تلغرافيا عائلة المرحوم يني سالم بالإسكندرية.

وسوف أذكر الرجل الذي كان فارع الطول، ومهيبا، حنونا أيضا بشكل ما، هل كان بالفعل عم صديقي بطرس طانيوس، أم خاله، أم قريبا وثيقا، نسيبا للعائلة مثلا، ماذا يعنيني – أو يعنيكم – من التوثيق والتدقيق؟ أعرف فقط أنه كان على صلة قربي به، سوف أذكر كيف صعدت إليه سلالم الباب الجانبي الذي كان في شارع الكروم أمام مبنى الكنيسة الكاثوليكية الخشبية، سلالم مرهوبة لا يدخل منها إلا الناظر، والمدرسون أحيانا.

كان أبي يمسك بيدي ونحن نرقي الـــدرجات الرخاميـــة المحصورة بين حائطين من العتمة النظيفة الخافتة، ولأقـــدامنا صدى خفيف على الرخام، سوف ندخل على حضرة الناظر – الأستاذ يني سالم – في غرفته التي كانت عندي، طوال سنوات أربعة، شبه حرم مقدس.

وسوف يقوم بنفسه، شامخا ودمثا ومحني الظهر قلـــيلا، يخرج من وراء المكتب الأنيـــق الصـــغير المرتـــب بخشـــبه الموجني اللامع، ويسلم – باليد – على أبي، ويسلم علـــى أنـــا أيضا باليد، تلك من أسعد لحظات حيـــاتي وأملأهـــا بالإثـــارة والانفعال، سوف يهنئ أبي لأن ابنه قد تخـــرج بتفـــوق مـــن المدرسة الابتدائية، وكان ترتيبه مائة وثلاثة من بين اثني عشر ألفا وتسعمائة وتسعة وخمسين في القطر كله، في ١٩٣٧.

تلك من اللحظات التـــي يحـــس فيهـــا أبـــي بـــالفخر، والاعتزاز.

سوف تعوضني تلك اللحظة عن يوم الصورة التذكارية للسنة الرابعة الابتدائية.

كان قميصي مفتوحا ولم أكن ألبس كرافتة، كعادتي عندئذ ولمدة طويلة وربما حتى الآن، وأرغمني مرقس افندي مدرس الإنجليزي الذي لم أكن أحبه على أن أذهب للبيت والبس كرافتة للتصوير، قال لي كلاما لا أذكر عنفه لكني أذكر أن عيني امتلأتا بالدموع لكن لم أبك، وأجد أن عيني – في الصورة التي أحتفظ بها للآن – كانتا منتفختين من أثر دموع الحنق والغيظ والحس بالامتهان – التي لم تنسكب مع ذلك، على سبيل الكبرياء، وأجد أن ربطة الكرافتة كانت كبيرة وغير محكمة بالمرة على خلاف بعض زملاء الفصل – الكبار – الذين كانوا على سنجة عشرة، غاية في الأناقة والضبط.

كنت قد خرجت مع هؤلاء الزملاء " الكبار " إلى شارع فؤاد، والشلالات، في مظاهرة ترحب بالملك فاروق الذي لم يكن يكبرهم كثيرا، ثم صعدنا إلى ربوة الشلالات – بعد المظاهرة التي كان يحرسها بلوك النظام بعصيهم القصيرة الكاكي والشورت الطويل لغاية الركبة والألشين الملفوف على الساقين، في شاحناتهم الفورد مربعة الخطم... فهل كان معنا بطرس طانيوس؟ لا أذكر، ولا أظن، بل كان معنا، لا شك.

ولما كنت قد تأخرت في العودة للبيــت عــن الميعــاد المضبوط الذي كانت أمي ترصده لعودتي، بدقة، ولما قلت لها عن سبب تأخري، بأمانة ودون معاذير أو تعلات، لم أسـلم – طبعا – من التأنيب الحاد ومن علقة سخنة موجعة، لكننـي – طبعا – لم أبال، وكنت سعيدا، وفخورا على نحو ما، ولم أتوان عن الخروج في مظاهرات أخرى، أيامها، في ذكـرى وعـد بلفور، وفي هذه المرة كان عساكر بلوك النظــام هــم الــذين ضربونا وشتمونا بالآباء والأمهات شتيمة موجعة، وكنت, مع ذلك، سعيدا بأنني كنت في المظاهرة، وفخورا بالتأكيد.

ذلك في ١٩٣٧.

وفي الإسكندرية ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ (فقط بعد خمــس سنين.. !)

عزيزي وفيق..

أحقا أن أمقتك. وأبغضك.؟.. أحقا أنني أحقد عليك؟..

كلا.. كلا.. أي سخف !.. أنني.. كما كنت، وكما سأظل دائما، أحبك..

إن ما خيل لك، ولي أنا أيضا، أنه المقت والكراهية ليس إلا الحب نفسه، والصداقة الجريحة.. تنزف دما وصديدا.. لتعود أشد نقاء.. وأكثر انصهارا..

نعم... إنها لم تكن إلا نوبة ألم هول مجنون، فقد الوعي بنفسه، فانطلق جائحا... متنكرا بصورة مخيفة بشعة..

يا الله... كم هي مروعة.. تلك السخرية.. سخرية أحاسيسنا بنا... ألسنا.. كلانا.. روحين مريضين معذبين؟ نعم.. والأرواح المريضة.. كم هي معقدة.. ومظلمة.. ومروعة.. هل تصدق..؟.. إنني شعرت بلذة رائعة شريرة.. حينما قرأت صرخاتك الموجعة.. في خطابك الماضي.. وتلا ذلك مباشرة، شعور ساحق، معذب.. عنيد.. بالألم.. والانسحاق.. وتأنيب الضمير !..

نعم.. نعم.. أنني قاس.. قاس إلى حد عجيب.. عليك.. وعلى نفسي.. قاس.. لأن الألم يدفع المرء إلى القسوة، وإلى الجنون.. إن التعاسة تستطيع أن تحيل ا لحياة جحيما.. إنها.. كما قال تشيكوف... تفرق بين المرء والمرء... وتترك المرء وحيدا.. منسحقا.. في عالم كبير موحش.. جامد مخيف..

وأنا.. لقد كنت تعسا.. ولذلك صرت أنانيا.. قاسيا.. مخبولا.. الصدق الوحيد.. الذي فهمني.. كأقصى ما يستطيع البشـــر أن يفهموا، لأننا.. لا نستطيع أن نفهم أنفسنا.

الصديق الوحيد الــذي أحبنـــي.. لقــد ذهــب ..هكــذا اعتقدت.. بكل ما في النفس الطعينة الحساســة مــن قــوى.. وتجسمت الفكرة كائنا حيا.. جلادا.. قاسيا.. في يــده ســوط عذاب... ! !

وإلى جانبي.. أينما أدرت بصري.. انتصب جــلادي.. وعلى فمه قهقهة مجنونة مذهلة.. مذعرة.. نعم.. كان الكــون كله.. يبدو فارغا.. واسعا.. موحشا.. رهيبا.. صامتا.. كسجن فسيح..

يا إلهي.. هل أنا ملوم؟.. لست أدري..

وفي غمرة عذابي.. خيل لي أن الصــداقة ان هــي إلا مقت.. مقت يشتملني بجو أسود.. ثقيل كجو كــابوس.. وفــي حمي آلامي.. تدفقت من قلبي الدماء.. ومــن فمــي ســيول الهذيان..

هل قلت لك إن صداقتك لم تكن إلا ريـــاء.. وزيفـــا.. وخداعا؟.. هل قلت لك انك نصاب.. محتال.. خادع؟؟.

هل حقا..؟؟..

لست أدري.. إنني كنت محموما.. كنت تعيسا.. وكنـــت معذبا..

فهل تلومني؟..

كلا... كلا.. لقد انتهت تلك الفترة الشقية.. لقد انتهى كل هذا الهراء.. إننا كنا نعذب أنفسنا.. في إصرار.. وجنون..

فهل ستنتهي.. تلك السخافة.. أخيرا؟..

أجب.. يا صديقي.. أجب سريعا.. فإنني – وأنت أيضا – إنني لا أستطيع أن أعيش إلا إذا عرفت.. وأحسســت.. أن هناك قلبا.. في هذه الحياة.. يفهمني.. ويفكر في – أحيانـــا – بعطف.. وحب.. نعم.. لا أ ستطيع..

أجب... يا صديقي.. إنني في لهفـــة محمومـــة.. إلـــى خطاب منك.. رقيق.. جميل.. عذب.. كالعاطفة التـــي تعمـــر صدرينا.. خطاب.. كتلك الرسالات الحلوة.. التي كنت أقرأها لك.. منذ زمن.. يخل إلى انه بعيد.. بعيد.

صديقي....

لست أدري.... هل تسطيع أنت أن تخبرني.. لماذا كنت أفكر فيك كل مساء.. وكل يوم.. ولماذا لم أستطع أن أكتب لك إلا الآن...؟... على الرغم من ذلك؟

وهل تستطيع أن تعرف.. لماذا.. يصوغ المــرء مــن عذابه وثنا.. يركع أمامه.. ويبكي.. في إنسحاق.. وفي تلــك الدموع.. يهتف بالصلاة.. الصامتة الصارخة.. الغريبة.. التي تتردد في النفس.. ثم تتحطم.. في أنغام متهاوية.. لتجعل مــن الشقاء آلها...؟....

لماذا؟... هكذا كنت في العشرين يوما الماضية.

هل تعرف ماذا كانت النتيجة؟..

أنني الآن أفزع من نفسي.. أننــي لا أجســر علــى أن أحدق في أعماقي.. بأعين واسعة مستطلعة.. فإن الظلام الذي يتكوم هناك.. يخيفني.. ويذهلني.. ويشعرني بالدوار.. كمــن يطل في أعماق هوة لا قرار لها.. أنني الآن أجبن عن مواجهة نفسي.. عارية أمام نفسي.. لأنني أرتعد.. وأرتعش.. وأنطلق

مذعورا.. كمن يفر من ظله.. ولا يدري أنه ينقله معه.. ولـــو انكمش في أعماق الظلمة...

إن شعاعا واحدا من النور المرتجف الممتقع.. كفيل بأن يظهر الظــل.. وأن يمـــلأ الهـــارب.. بـــالهول والمـــرارة.. والجنون.. ومع ذلك.. وعلى رغم كل شيء.. أليس العـــذاب مقدورا لنا.. واللعنة مكتوبة على جباهنا؟.. نعم أننـــا ســـنذرع الحياة.. محدقين بالمجهول.. متأملين باللانهايات.. باحثين عما لا نعرف... " ناسين... ناسين دائما.. إن لا أجنحة لنا فنطير.. وإننا موثقين أبدا... إلى هذه الناحية ".. كما يقول طـــاغور... "ناسين.... ناسين دائما.. أننا نجهل الطريق.. وأننـــا لا نجـــد الفرس المجنح.. وأن فينا الفتور.. وقلوبنا.. ما تنفك تتخبط في تيهاء.. ".

إننا نفر دائما.. من الواقع.. إلى الآلام.. إن الألم ليجعلنا ننطوي على أنفسنا.. نبحث.. وننقب.. في الأكـــوان الغريبـــة المجهولة.. إننا نستشعر الظمأ دائما.. إلى ما وراء الحجـــب.. إننا نحس الشوق دائما.. إلى ما وراء المغيـــب.. ومـــا ننفـــك نبحـــث عـــن كـــل محـــرم.. مـــن الأفكـــار.. والمشـــاعر..

والأحاسيس.. لكي نستلب.. ونقتطف ونحس الحياة.. وما وراء الحياة.. بكل آلامها الجبابرة.. وأفراحها الخفيفة المرحة المتألقة.. وسخرياتها.. وجمالها.. وبشاعتها.. وروعة تعقدها.. ألسنا نحس الحياة.. ألسنا نظمأ إليها.. في جنون .. إذا افتقدنا فيها روعة عرفناها من قبل.. حتى ليخيل إلينا.. أننا نحس الموت بعينه.. والجمود.. والملل.. والفراغ... الفراغ القاتل الكبير...؟.. نعم أن الظمأ إلى الحياة.. هو ما يخيل إلينا أنه الجمود..وأنه الموت..

لذلك فلنبحث عن الحياة.. الحياة الرفيعة السامية.. في أعماق أنفسنا الحية.. الخصبة.. العامرة..

نعم.. يا صديقي.. إن في نفوسنا أكوانا.. إنها الإنسانية كاملة.. تتمثل.. مركزة.. في أعماقنا.. لنبحث عن الحياة.. بين روائع الفكر.. والفن..

لنبحث عن الحياة.. بين الآلام.. والعذاب.. الذي يطهر.. وينقي.. ويخصب..

لنبحث عن الحياة.. ولنمزق قبورنا.. ولنرتفع.. هاتفين: أيها الموت أين شوكتك؟. أيها القبر أين سلطانك؟ كما هتف

المسيح.. ابن الإنسان.. الإنسان الذي فهم الإنسانية.. وأحبها.. وتألم لها.. وقدم حياته.. ذبيحة.. ودماءه محرقة..

لنتمرد... ولنثر.. ولنحطم القيود التي تنسجها حولنا نفوسنا.. لنصعد إلى السماوات.. ولنهبط إلى الجحيم.. ولنكن من الطبيعة كلها عينها الصافية.. كما قال جيو..

لا أريد أن أكتب كثيرا.. وإن كنت أتمنى أن أظل أكتب طوال الليل.. حتى الفجر..!!

فأنت تعرف جيدا.. ذلك الجو المقدس المعبود.. الذي يعيش فيه المرء.. حين يكتب.. وحين يجعل من مشاعره وأفكاره وأحاسيسه.. كائنات حية.. تملأ الحياة حوله.. حرارة.. ونبلا، و جمالا، أنت تعرف جيدا.. لكنني أريد أن يكون خطابي القصير.. نسبيا بالطبع.. لكي أكتب لك.. في فترات قصيرة متقاربة.. وطبعا ذلك لن يتم.. إلا بتعاونك أنت.. فيجب.. يجب أن تسرع في الرد.. لأنك بذلك – إذا استعملت تعبيرا لك – " تسدي خدمة إنسانية جليلة "..

أنت لا تدري أو تدري على الأصح – تدري تماما – ذلك التلهف المعتصر.. الذي أبحث به.. كل صباح عن خطاب

لي.. في قائمة البريد.. وأنت طبعا لا تريـد أن تنـتقم منـى ..؟..هل تريد ؟.. وأحب أن أنهى إليك بعـض أنبـاء.. قـد تهمك..

لست أدري ماذا حدث لي.. حتى أصبحت أكتـب الآن قصصا صغيرة.. وقطعا شعرية منثورة.. على نمط عجيب.. لم أعهده في نفسي..

أن الآلام التي كانت تصهرني.. وما تـزال.. تـوحي إلي.. بأشياء عجيبة.. فمثلا عكفت علـى الكتابـة.. وعلـى الحلم.. كتبت قصتين: " الأبله ".... و " الأوثـان ".. وكتبـت شعرا منثورا.. وسوف أبعث بها إليك.. إذا شئت.. وإذا وعدت وعدا قاطعا بأن تردها برجوع البريد.. لأنني غالبـا.. بـل ودائما.. لا أستطيع سوى الكتابة مرة واحدة فقـط.. وأحـس بضيق شديد.. وملل قاتل.. حينما أحاول أن أنسخ منها صورة ثانية.

هذا من ناحية.. ومن الناحية الأخـرى.. فـإنني أقـرأ الآن.. كالعادة.. في جنون.. فقد قرأت ما يزيد على عشـرين كتابا باللغة الإنجليزية.. في فترة قصيرة جدا.. حتى خفت على

نفسي.. ألا أستطيع أن أكتب باللغة العربية.. ما دامت كل أفكاري ترتسم أمامي.. باللغة الإنجليزية " اللعينة "... ! ! هذا تحد.. أليس كذلك؟

وقد ترجمت عشر قطع لشيلي.. وثلاثا لكيتس.. وعدة قطع لتاغور.

وعلى فكرة.. قرأت عددين من المجلة الجديدة.. أحدهما عن الفنون في القرن العشرين.. والآخر عن الأدب المصري المعاصر.. وسوف أحدثك عنهما فيما بعد.. أو.. وهذا ما أستحسنه.. خير لك أن تطلبهما من إدارة المجلة الجديدة نفسها أو من دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا.. عندكم بالطبع.. هما عددان نفيسان حقا.

وقد يحزنك أن تعرف.. أن صخرة ستانلي.. قد تلاشت إلى الأبد.. من الوجود.

تسألني كيف؟ حسنا.. لقد رأت البلدية.. بثقاب بصيرتها النيرة.. أن تقيم عليها العشش الخضراء المعروفة.. في صفوف منتظمة.. بعد إصلاح كثير.. وبذلك ضاعت وحشة

الصخرة.. وجمالها الطبيعي.. وأناقتها الوحشية، لكي تستبدل بها الأناقة المنظمة المنسقة المملة...

أنا الآن لا أرى جورج إلا نادرا.. وإن كنت أرى سامي باستمرار.. ومن العجيب انك دائما تقرنهما أحدهما بالآخر في أحاديثك.. بكل بساطة.. وبكل جرأة.. كما يستطيع المرء أن يقرن الفراشة بالطاغوت.. أو شيلي.. بحافظ إبراهيم... ! !

أرجو.. وألح أن تبعث إلي... بكل ما يخطر في جمجمتك.. من آراء.. ومشاعر.. وحوادث.. وأقاصيص.. ربما تكون قد كتبت، وعلى العموم، بصداقتك التي أنا في أشد الحاجة إليها...

تحياتي إلى جانيت، وأملي أن تنسى كل الهراء الذي كتبته في رسالتي الماضيتين.

وأنا في انتظار خطاب رائع حافل.. " زى زمان " وبسرعة.. بسرعة.. بسرعة.

وأخيرا تحيات وأشواق..

المخلص

(.........)

انظر الآن، بعد خمسين سنة أو أكثر، وأعرف أن ذلـــك الصبي، وذلك الفتي، ما زالا هناك، يقطنان ركنا في، ما زالا ينظران إلى بتوجس من لا يعرف إلام المصير، وكيف يكـــون المآل، ما زالت فيهما حياة عنيدة خاصة، لست ذكريات، هي، كما أقول باستمرار، الآن، هي الآن.

القاهرة في ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣

عزيزي وفيق...

انقطعت بنا السبل منذ سنوات، هـــا أنـــذا أكتـــب لـــك، استجابة لطلب صديق عزيز، عن " المرأة " التي لم أصدق قط أنـها " وعاء للحمل وللولادة "، ولا أنها مجرد أداة للتكاثر، ولا موضعا لمتعة الرجل، ولا هي كما قيل عن المرأة في كتاباتي، قديسة وعاهرة في وقت معا.

ألم يقل ميخائيل من زمن بعيد: " أريد جسدك وســـماءك القاسية معا؟ " ألم يقل: " أريد الحرية، لا حريتي، بل الحريـــة معك ".

ألم يقل ما معناه انه يعرف مع رامة الندية الكاملة لا في فعل الحب وحده بل في فعل الحياة نفسه.

صحيح إنني لست ميخائيل ولكني شبيهه ورصيفه.

أذكرك بما قال جمال شحيد عني في مقال له لم يصلني إلا جزء منه ولا أعرف متى ولا أين نشـــر: " إنـــه يطـــرح إشكالية الذكورة والأنوثة دون تحيز للذكورة، لا بل يرى فـــي الأنوثة الطبيعية المتوازية سمات إيجابية تتفوق على بطريركية الذكورة التقليدية ".

ليست المرأة عندي إلاهة ولا جارية.

ليست قنيصة، ولست صيادا.

ليست موضوعا، ولا تمثالا ينفث فيـــه خالقـــه الحيـــاة، ويهوى ما صنعت يداه.

ليست أما بديلة يهرع إليها طفل مذعور ملهوف وليست طفلة يحنو عليها أب جهم الحنان.

حتى وإن كان فيها شيء من ذلك كله أو بعضـــه، كمـــا يكون شيء منه في علاقتها هي بالرجل، على ألا تحـــل هـــذه البدائل محل علاقة الندية والمشاركة حقا أمام أهوال الجمـــال وملالات الحياة، والمحن والسعادات الصغيرة، والكبيرة، التي يضفر منها نسيج الأيام.

المساواة المطلقة الندية المطلقة بين الرجل والمــرأة – على إطلاقها – هي قانون إيماني.

ولا ي مكن أن يحدث هذا في داخــل نطــاق صــراع معزول بين " الرجل " و " المرأة " بلا لا يتصور إلا في سياق تحرر للقوى الاجتماعية كلها، على مستويات عدة.

حركة " تحرر المرأة " وحدها مقضى عليهــا، فلــتكن حركة تحرر متصلة ومتداخلة الأبعاد ثقافيا وعلميــا، فرديــا واجتماعيا، سياسيا واقتصاديا.

ليست حبيبتي تمثالا أرفعه على قاعدة عالية، أتعبد تحت سفحه، ليست " شيئا " من أشيائي، ولا هي – كما لا أحتاج أن أقول – عورة وسوأة، ولا هي أي عضو منهــا – إذا أمكــن الكلام عن " عضو " – أيا كان – من غير الكلام عن " الكيان " كله، جسدا دمثا وسماء صارمة، هذه الازدواجية الزائفة التي فرضتها علينا الثقافة اليهودية – المسيحية بين الجسم والروح، فما هناك قط أدني شق ولو في رفع الشعرة بــين الجســدانية والروحانية، لا في المرأة ولا في الرجل.

نحن الذين امتزجت دماغنا برواسب راسخة من البطريركية الذكورية نضبط أنفسنا، إذ نتردى في فخ هذه الثنائية الموهومة.

ولسنا وحدنا في ذلك بل تسقط " المرأة " في الشرك نفسه، هذا إذا سلمنا مرة أخرى بصحة مثل هذه التعميمات، الإطلاقيات، " الرجل " و " المرأة " و " نحن " وهكذا، فلكل منا – رجلا أو امرأة على السواء – فردية وخصوصية لا يمكن إغفالها – أليست هذه بديهية؟ إننا هنا طول الوقت في أرض البديهيات المنكورة، ولكن التعميم هنا لا مفر منه، علامات تهدينا إلى إشارات نور على مفارق الطريق، حتى ولو كان نور النهار ساحق السطوع.

لكنك – فيما أظن – لن تقبل هذا التفلسف كله، سوف ترى فيه – ربما – شيئا من الضعف، والتخلي عن فحولة تتمسك بها حتى آخر لحظة، وإن لم تعترف بها صراحة، بل تقارف بها نوعا من التسامي – الذي فيه شيء من السذاجة.

لا، ليست منحازا ولا متعصبا – ولو في الخفاء – لسيادة ذكورية لعل الظروف المجتمعية والثقافية لم تعد اليوم

مواتية لها – حتى في عالمنا " الثالث " (أو " الأخير") – كما لعلها كانته في حقبة متطاولة من الزمن توشك أن تنحسر.

بل لعلني منحاز – كرجل – إلى جانب الأنوثة.

ألا يبدو لك هذا طبيعيا؟

المخلص

(.....)

في يوم الأربعاء ١٣ يناير ١٩٤٣

كتب لي وفيق خطابا لعله من أواخر خطاباته الحميمة:

عزيزي..

.. لست أدري ما الذي حدث حتى استطعت أن أمسك القلم أخيرا.. ولكني أظنها "يقظة الموت" كما يقولون !.. لي شهور كاملة ,لم امسك فيها قلما.. ولم أكتب شيئا..لم أكتب على الإطلاق.. إنني أعيش مدفونا يا صديقي.. أعيش سجينا في جو مختنق بالظلام.. والبرودة القاتلة..في جو من الصمت.. والسكون الخانق.. كم أحس شكرا عميقا لهذه اللحظة التي قدر لي فيها أن "أنفجر".. وأن احس في اعماقي بعض النار.. واللهب.. كم أحس الشكر لهذه اللحظة التي أحس

فيها شيئا على الإطلاق.. تصور المهزلـــة يـــا صـــديقي.. إن الإحساس في حد ذاته قد غدا بالنسبة إلـــى حلمـــا... أشـــكر الظروف لو حققته !.

وأعود فأتساءل... ما الذي حدث حتـــى اســـتطعت أن أمسك بالقلم؟... صدقني أيها العزيز حين أقول إنهـــا " يقظـــة الموت ".

كنت اقرأ خطابا جاءني أخيرا من جانيت... صـــادفتني فيه فقرة.. هي دون شك السبب الـــذي بعثنـــي هـــذا البعـــث القصير.. وأستمحيك عذرا في نقلها إليك:

"... يخيل إلى أنني أتعس فتاة في الوجود كلـــه.. لقـــد حاولت كثيرا إبعاد هذا الخاطر عن رأسي.. ولكن الأيام تـــأبي ذلك.. فهي تثبت لي دائما ما أحاول أن أخدع نفسي فأكذبـــه.. لو لم أكن يائسة.. لا نصيب لي من ســـعادة كاملـــة.. ســـعادة دائمة، لما عاكستني الأقدار في أحلى ساعات حياتي، في أجمل أيامي ولياليي الحبيبة التي أخال أنني عانقت السعادة فيها بكلتـــا يدي، فلا أدرى إلا وقد اختطفت مني كل شيء، تاركة إيـــاي، أتخبط وحدي في ظلام حالك، مشدوهة، غير مصدقة.. أننـــي

فقدت كل شيء، وأنني عدت من جديد إلــى الوحــدة.. بــل الشقاء.. إلى اليأس والعذاب.. إلى البكاء.. وانتظار الرحمــة من الأيام..إذا كانت هناك رحمة في الوجود ".

هاك يا صديقي... إنها تعيش فيما تــدعوه جحيمــا... وعذابا لا نهاية له.. وأنا أعيش مدفونا.. ميتــا.. فاقــدا لكــل عاطفة، ولكل إحساس.

.... لماذا؟... إن وجود أحدنا مع الآخــر.. يكفــي لأن يرفعنا بعيدا إلى السماء.. بعيدا عن الجحيم والمــوت معــا.. ولكن.. الحياة تأبي ذلك.

أولست أدري ما هي " الأبالسة " التــي تتحــدث عنهــا جانيت... سيان.

... أخي.

ولكن ! يا لسخافتي إذ أدعوك بهذه الكلمة الجوفــاء ! كأنما هي حقا تعبر عن مشاعري نحوك؟!

... أنني فقدت كل شيء في الحياة إلا حبي لجانيــت.. ولك.. نعم.. هذا الحب هو كل ما تبقي لي.. ولكن الحياة تأبي إلا أن تجعل منه.. قبرا لي.. أموت فيه رويدا.

.... قد أراك قريبا يا صديقي.. فأجازة نصف السنة تبدأ في ٢٣ القادم ولن تنتهي إلا بانتهاء الشـــهر.. أمـــا جانيـــت، فالشيطان وحده يعلم متي أراها.

كم أود لو ماتت هذه الفتاة، إذن لانتهى كل شـــيء فـــي عذوبة ساحرة.

أنت لا تعلم بأي جنون أتمني موت أحب إنسان إلي في الوجود.. إنها حياتي يا صديقي، ولا تعجب أن أطلـــب نهايـــة حياة معذبة محطمة محترقة كهذه.

أنها تطلب الموت بإلحاح مؤلم.. وكم أتعذب لعذابها يـــا صديقي كم أحس أنني مذنب.. وإنني جـــررت هـــذا المـــلاك المسكين معي إلى الجحيم الملعون الذي كتب علي أن أعـــيش فيه.

.. إني قلبي يذوب ألما واشفاقا لها إذ أقـــرأ صـــرختها المحترقة في هذا الخطاب الأخير... إذ تقول:

" لست أدرى ما الذي يجعلني أشك في انتهاء هذا البؤس يوما، وهذا الخاطر يؤلمني ألما بدرجة مخيفة تجعلني أنـــادي الموت نداء مؤلما يتفجر من أعماق نفسي المعذبة.. وكم هـــي

قاسية تلك اليد الرقيقة النحيلة ببرودتها الحبيبة.. يد الموت.. إنها تبخل علي – حينما أناديها ضارعة في سبيل رحمتها – تبخل على بلمسة واحدة فيها نهاية كل شيء.. فيها خلاصي من هذا الجحيم.. وفيها راحتي الأبدية.. ".

.. إن قلبي يذوب شفقة لها يا صديقي.. وأحس أنني مذنب.. مجرم.. لقد حطمت تلك الدنيا الواعدة التي كانت تتعيش فيها.. وألقيتها إلى اعماق الجحيم الذي أتقلب بين جمراته، إنها رقيقة كالأحلام يا صديقي.. وديعة كالملائكة..طاهرة كزنابق الحقل.

كم أحلم باللحظة التي يحمل الموت فيها أنفاسها الطاهرة.. وينثرها في قلب السماء.

كم أطلب لها الموت سريعا، حتى ننتهى معا، كما ينتهي نغم عابر تحمله النسمات بعيدا... بعيدا.. إلى واد وسيع.

إنها كل شيء يا صديقي.. ولكنني أعيش بدونها.. وليس في الحياة شبح من أمل في أن أحيا معا.. هنالك كل شيء يشير في سخرية مريرة قاتلة إلى ظلام حالك مخيف.. تكمن

لي في ثناياه المقيتة كل أحزان الحياة وكل أهوال هذا المـــوت المخيف الذي اعيش فيه بدونها.

آه يا صديقي.. أتذكر تلك السماء التي عشنا فيها معـــا.. نحن الثلاثة.. خلال تلك الأيام الحبيبة التي قضيناها...

حسنا.. إنني يائس من الحياة تماما.. وليس هناك شـــبح لأمل يغريني بها..

حتى الكلية لا أذهب إليها الآن إلا لكي أسال فيها عـــن خطابات لي..

غريب ! إنني لا أكتب لأحد علـــى الإطـــلاق.. حتـــى جانيت.. لم أكتب لها منذ شهور طويلة.. ولكنها تكتب لـــي.. مرتين كل أسبوع.. ولكن ما فائدة الأنين؟

أن الموت يقترب ببطء مخيف.. ولا فائدة من الأنـــين.. فلندعه يأتي في سكون.. ودعة وهدوء.. لن أراها يا صديقي.. ولست أكتب لها وهي كل حياتي.

لم يبق لي إلا أن أعيش. ميتا.. أحلم بما مضى.. كمـــا يحلم إنسان بعث.. بما كان في حياته الماضية.

بعث؟ كلا.... لن أبعث يا صديقي، هذا أمل مضـــحك، لعين ! إنني إنسان ميت.. يحلم بما مضى وما كان في حياته.

" لو كانت هناك رحمة في الحياة "...

كلا يا حبيبي.. لا تأملي في رحمة لا أقدار ولا بشـــر.. ولا تلك الخرافة التي يدعونها.. اللعنة.. كم يغلي دمي لمجرد ذكر هذه الأشياء.

أتذكر بافنوس يا صديقي حين انتهى.. صارخا.. " ولكي أرغمك على أن تدخلني جحيمك.. هأنذا أبصق في وجهــك ". يا له من احتقار.. ويا لها من سخرية هائلة مخيفة..

ولكنني جبان تعس.. لا أجرؤ..

يا للأبالسة ! ثلاث صفحات كاملة.. أكتبها أنـــا؟ هـــذا مضحك أو قل مدهش !

ولكنها على قلتها بين أسطرها المضطربة.. المحمومة.. المختلطة.. تحوى مأساة مروعة.. هي نهاية حياة كانـــت ذات يوم.... أجمل وأنقى حياة في الوجود.

أتكتب إلى عزيزي؟ على رسلك يا صديقي.

قد أكتب لك مرة أخرى، ولكني لا أعدك، قد يكون ذلك، بعد أسبوع.. بعد يوم.. أو بعد شهور.. ولكن هل تكتب لي أنت.. لست أدري.. ولكنني سأنتظر.

وعلى ذكر هذا، اذكر أن جانيت كلفتني بأن أرسل إليك خطابا كتبته هي لك.. فهل تزمع أن ترد عليه؟

.... هذا هو كل شيء يا صديقي..

نعم.. لا أظن في مقدوري أن اكتب أكثر من ذلك.

ولكن.. يا للشيطان ! ألا يكفي كل ما كتبت؟

إلى اللقاء يا صديقي.. وأنا في الانتظار

وفيق

فهل أستطيع أن أقرا هذه الخطابات الآن – للمرة الأولى ربما بعد نصف قرن، دون أن أحس أنني ما زلت أكتبها.. ومازلت أتلقاها؟ أكتبها.. أو تكتب لي.

ابتعاث هذه الرسائل من جديد، أقول لنفسي، ليس تأريخا ولا استعادة تذكر، ألم أقل ذلك أكثر من مرة، حتى الملل، لكني لا أمل من تكراره.

إنها كتابة من جديد، بل كتابة جديدة، ولعلني لا أجرؤ أن أكتبها الآن، خشية من عاطفيتها المسرفة، ربما, وهأنذا أكتبها مع ذلك بلا خوف.

أكتبها، كتبتها، سوف أكتبها، كان ينبغي أن أكتبها، لم أكتبها، لن أكتبها، لم يكن يجب أن أكتبها، وقد كتبتها، هأنذا أكتبها. بكل الأفعال.

العمالقة الغيلان التي ترود جبال ووهاد النفس، تفترس أو تحتضن المسافر الضال، حسب الأحوال، هذه الكتابات.

متى ينتهي سفري، وضلالي؟ ورحلة المسافرين في دواخلي.

محباتي الكبرى – والصغرى – قد ولدت وعاشت وسوف تموت في حضن هذه الغيلان العمالقة.

فقط لأنها جسيمة. " عمالقة " فقط لأن جِرمها – وجُرمها – كبير.

التنين العظيم، ند رامة، كان رفيقا بل حانيا بل محبا.. لكنه مع ذلك كان مفترسا ونهاشا.

ضوء الزمن الآخر ما زال يشع على العتمات الممتدة على تراب من زعفران.

عمالقة؟ أم بنات إسكندرانية – وغيرهن – أم فقط عرائس مصنوعة من مطاط كتلك التي وجدوها عند عبده أفندي شاروبيم الذي درسني الفلسفة وعلم الأخلاق في العباسية الثانوية، أو عند الدكتور عبد الرحيم العربي أستاذ الفلسفة ذائع الصيت الذي يعيش الآن في برلين، عرائس أنثوية من كاوتشوك، موضوعات شبق يخلقها المرء ويشكلها ويصوغها ويتحقق ويتدفق فيها، هل اسمها جين أو مارجو أو مارسيل أم خضرة ورشا وماجدة، تحليها الإعلانات المغوية في الصحف والمجلات البورنوغرافية، تعطيها شفاها متحركة ونهودا حسب الطلب وأجسادا طيعة وندويرات مشتهاة، وتجعلها تصدر أنين المتعة والوجع الميكانيكي المطلوب، من أجهزة تسجيل مخبأة بعناية (من غير كبير عناية بالإخفاء).

أليس مريحا أن هذه الشهقات والأنات الكلاسيكية المطلوبة والمقصودة كانت من صنعة تلك المرأة المحنكة الشهوية التي أحببت وما زلت أحب؟ عرائس من مطاط أم

تماثيل بيجماليون المعاصرة في ثقافة استهلاكية عارضة؟ أدوات تنصب فيها وتنهدر نوازع الشوق إلى المطلق الأبدي، ليست سيدة الملك القبرصي الجميلة المنحوتة من عاج دافئ، نفخت فيها أفردويت أنفاس الحياة بقوة ضراعة الملك الولهان، بيجماليون القرن العشرين.

وبالمناسبة لماذا ضبطت هذه الدمي المطاطية فقط عند مدرسي وأساتذة فلسفة؟ (ضبطتها أجهزة قمع معينة في ملابسات مريبة، كما يقال).

أو على الأقل لماذا شاع ذلك عنهم فقط؟ فهل ذلك لأنها مجرد تجريدات ذهنية، صافية نقية بمعني ما، لأنها ليست كائنات حية حسية مضطربة التكوين متقلبة المقومات؟

ولكن – أقول لنفسي في هذا الحوار الممض – أليس اضطراب الحياة وارتباكها وجيشانها المدوم وربما غير المتوقع هي بالضبط أسرار قوتها وجاذبيتها ومصدر الندية الحقة بين رجل وامرأة؟ (حتى لو كانت المرأة تلجأ لحيل شبقية ميكانيكية؟).

أم أن نقاء الصورة، وخلوصها الصافي لــك وحـــدك، وانصياعها الكامل لك وحدك – مثل كل تجريد فلسفي – ســر من أسرار الجاذبية والإغواء, أيضا؟

عمالقة غيلان عرائس من مطاط طواحين دون كيشوت طواحين الماء السواقي السبعة ذائعة الصيت التي تنعـــي لـــم طفوا لي نار؟ طواحين بن تدور، أمن غير طحن؟

طاحونة البن المدورة الصفراء من نحاس لامع، ناعمـــة التدوير من الاستخدام ومن حميمـــة قـــبض الأيـــادي عليهـــا اعتصارها في حميا تشغيلها، دافئة، متموجة العضلات، دوران المقبض المعقوف الصغير، الذي تحس فعاليته وهـــو يعـــض ويكسر ويجرش حبات البن المحمصة، بين الأســـنان الـــدوارة المعشقة بقوة، ثم يهرسها، ثـــم ينعمهـــا، ثـــم تحـــس دوران المسحوق الدمث المطوع بين التروس والنتـــوءات الداخليـــة، الملل الذي تعرفه اليدان في عمل التدوير المتكرر والإمســـاك بالجسم الاسطواني كامل الدوران الذي دفئ، وندى الآن بـــين يديك، تسنده إلى صدرك تارة وتحس صلابته، وإلـــى حجـــرة تارة لتريح نفسك قليلا، بينما المقبض يـــدور ويـــدور وأزيـــز

ارتطام التروس ونفاذها، وفاعليتها، وصوت الخشخشة الأجش النفاذ أولا ثم هسيس المسحوق المذرور المضغوط اللين بعـد ذلك، وبعد أن كنت متلهفا لا تكاد تصبر عليه عندئذ، تـذكره الآن، بعد كل هذه السنوات، بما يشبه التوق والحنان.

وكأنما تعيد إلى هذه الطاحونة المدورة الناعمـة التـي أحس تحت يدي الآن ملء جسـدانيتها، حـس تلـك الأدوات الأخرى الكهربية، مصنوعة من الصيني عاجي اللون كأنهـا مولودة غير مخلوقة، رخيمة الملمس، فتحت طفولتي عليها في بيتنا في غيط العنب، لا بد أن ذلك كان بعـد إدخـال النـور الكهربائي إلى بيوتنا بقليل، بذخ التشكيلات الكبيرة المصـقولة من الأزرار المكورة أسطوانية التدوير، ضخمة تمـلأ اليـد، السطوح اللامعة المنحوتة فيها ثقوب وحزوز سـوداء دقيقـة محكمة الاستدارة خروم صخرة سيدي جابر نافذة إلى العمـق تعج في داخلها الحميم بحيوات لا نعرفها وأنواع من الكابوريا وأبو جلامبو سراطين ميكانيكية رفيعة السيقان أقماع المصابيح مفرغة من وهجها مصنوعة من زجاج مضبب مفضض فـي لحمه الداخلي نقوش أغصان متشرجة مهندسة التفريع تنسـاب

عند سطوحها بايحاءات شكل الكمثرى لها أصـــابع مبســـوطة عريضة كالأوراق المفرودة من زجاج أبيض غيـــر منقـــوش نصف شفاف الأسلاك المتينة ناصعة التغليف قوية الالتفافـــات كأنما تحمل من الآن شحنة طاقة مندفعة ومكبوتة ولكن مـهددة دائما بالجموح حروف شفرتها مغوية وحارة وقد تكون مدمرة الدوى والحلقات والاسطوانات الصغيرة النحاســية المحـــززة حادة الحواف موسيقية الصدى متواشـــجة الدلالـــة والجـــرس والفيشات ذات الألسنة الضخمة – ألسنة قوالة – التي ســـوف تولج بشيء من الضغط هين في ثقوب البريزات المضـــبوطة على مقاسها بدقة وإحكام طقوس صارمة الصدق ولدنة تمــلأ قفة من الخوص الطرى مدفوسة تحت سرير أبى أتسلل إليهـــا بعد الظهريات ما زلت ألوذ بها في وجه الهلاك وفي عتمة ما تحت السرير المنيرة بالكاد بضوء الحياة المزدحمـــة الخاويـــة الآن أستخرج هذه المجسدات تدب فيها حيـــاة خاصـــة بـــين ذراعي الممدوتين بالوجع والنداء.

الكتابات كالأسماك طافية علـــى مـــاء الشـــط فضـــية ومفشوخة ولزجة ومنذرة بالفساد.

حارة أيضا بلا شك، تنكأ جراحا قديمة لم ترم قط.

طعنات الأنوار الكاشفة تطرد طائرات المغيـــرين عـــن قلب الإسكندرية وتدفعها إلى عرض البحر أو على الأقل إلـــى الشاطئ الرملي في ليل الصيف الحار، واذ تحاصرها الأنوار والقذائف وطلقات مدافع الأآك آك تتراجــع الطـــائرات إلـــى الشاطئ فتنطلق المدافع المضادة للطـــائرات بجنـــون وتســـدد طلقاتها بتركيز كثيف إلى الجسم الذي نراه لامعا يومض فـــي بؤرة التقاء شبكة الأنوار، يسبح صغيرا بطيئا بلا صوت فـــي العلو الشاهق، وعندئذ يسقط حمولته من القنابل (الكلمات؟) ويصعد فوق متناول الأنوار وإلى ما بعد نطاقها.

لكنها تعود، كأنما بالرغم عنها، تعود، القنابل والكتابات تعود، سقطت القنبلة الضخمة على صخرة كليوباترا الحمامات، وفي الصباح وجدنا شظايا الصخرة، كبيـــرة ومســـننة، حـــادة وصغيرة، مكومة ومتناثرة على الرمل الفسيح، وشظايا القنبلة – الطوربيد لامعة مضلعة فضية اللون مغروسة فـــي الرمـــل مازالت سخنة , وتومض تحت خط الماء الضحل الرقراق مع

بقايا الكابوريا وأبو جلمبو وفتات القواقع البيضاء المهروسة، وجثث الأسماك الطافية على الموج المضطرب، بلا حراك.

حصاد نزوات السنين، صخر كالغيم أو غيوم كالصخر؟

صخرة ستانلي بيه وقد أزالتها البلدية، كانت وعرة شعثاء فيها رائحة برية والرمال تحتها طيعة ومنسابة بين شعابها الصغيرة قائمة السنان وصرخات النوارس مدفونة فيها تتلاحق تكاد تسمع نداءات جوعها وشراستها غير مكفوكة الشفرة وصخرة سيدى جابر التي تندفع من خرومها الدقيقة أرجل الكابوريا الكثيرة الصغيرة تجري رقيقة الجسوم مرهفة الفكاك شفافة أو تكاد في نور الصبح الباكر جدا تحت شمس شتاء نصف غائم ولكن دفئ، وحنون الصخرة العالية تنبثق من ربي وسهوب غير واقعية كما حلمت به وكم عشت فيها ورياح بحر بارد بل ثلجي تضربها وأنت في بيتها ذاك الذي لم تدخله قط ولم تبارحه قط مع ذلك يعصف الهواء حول حيطانه المبنية من حجر صلد كبير برونزي اللون قليلا بلا طلاء، ينهمر المطر عليه لانثياله على الحجر وفي المزاريب خرير أنيس موسيقاه الرتيبة تثير فيك شهوات غير جسمانية يرتعد لها

جسمك ويتوتر الماء يجرى على أسفلت شوارع الإسكندرية يسقط في البالوعات عبر قنوات نظيفة تحت الأرصفة التي تلمع من النظافة ولجريان الماء صوت انسياب بهيج المطر يسقط عليك رذاذا، ثم قطرات مدورة لها وقع وثقل وأنت تمسك بيدها لكي تصلا إلى باب أتوبيس محطة الرمل – كليوباترا وتضغط بيدك على ظهرها الرقيق تحس حرارته من وراء الصوف الناعم المنسدل وتحس شريط السوتيان المحكم على الصدر البكر الصغير صخور سيرلانكا شائكة السطوح تضرب إلى دكنة سوداء، بحواف الأبدية الغائرة معها بحطام سماء بيضاء في وهج ظهر لا ينتهى صخورا غينيا على المحيط الآخر تتخايل لك هشاشتها وكأنك تراها تتفتت وأنت تعرف أنها صلبة القوام وعامرة بأحلام حقب دهرية مكتنزة بخزين القهر والعسف الذي لا تعويض له ولا برء منه وبأطياف أمجاد مندثرة أصداء صرخات الوجع التي لا يبرئها الزمن لا أتخبط بل أطفو تحت الغيوم فوق صخور السماء.

وهل أجرؤ أن أقول رعبي أمام هذه الصخور وتحت غيم هذه السماء؟

لماذا يجب أن نخبئ مفازعنا كأنها عار؟

وهل أنا أخفيها؟

هأنذا أقول. لا أخاف من هواجس رعبي.

الغيم ناعم له قبضة نهائية وغير متكررة لا تني تـــأتيني من جديد.. تحيط بعنقي، أختنق.

من جديد؟

بلا انتهاء؟

٦ – نورس وحيد على صخرة

على شاطئ البحر، رامة عارية، بضة، جلدها الأسـمر ندى غض فيه كل أنوثته الفياضة، يتحدى البحر.

لها وجه هاتور، وجه بقري حنون، غليظـة الشـفتين، كنت أذكرها رقيقة الفم ولكن شفتيها حساستان متحركتان بحياة خاصة قادرتان، أجنحتي متهدلة ساقطة على الأهرام الثلاثـة السابحة في سماء الإسكندرية، جلد السماء متخثر، كثيف، مثل جلد الحليب القديم الذي تصلب قليلا وتجعد.

الطحالب متدلية من عيني ووجهي، طويلة مبلولة تهتـز في الطيران البطئ الذي لا يقطع الزمن، ذكرى خضراء لهـا نداوة الغشاء المترقرق المتماسك وأحط على صخرة ناتئة فـي الموج الساجي الذي لا يترقرق، ارى تحتها على قاع البحـر الرملي الصافي تحت الماء السـاكن الشـفاف هـذا الهيكـل العظمي، كاملا، جافا تحت السيولة، هادئا بلا حراك، أعرفـه، أحس عظامي فيه، بل هي عظامي، وقد سقطت عني الأجنحة وراحت تطفو على سطح البحـر الـذي اكتسـب الآن تلـك اللزوجة، غشاء أبيض مجعد ولكن ثابت.

على الصخرة تنبت فروع وأغصان وقرون منشعبة مثل قرون الأيل الكبير تنبثق بصمت وتصعد، تلتف بي، قلت غريب أنني لا أسمع صوتا، امرأتي، من على الشط القريب، تنظر إلى بعينين واسعتين فيهما خضرة مألوفة ومفاجئة، دائما تبهرني.

لم يكن هذا حلما، ولا رؤيا.

أما في الساعة الحادية عشرة من مساء ٧ ابريل ١٩٤١، في فجر الخامسة عشرة، فإن اليوميات ما زالت تقول:

لا شيء... ! كتبت أشعارا محزونة فاجعة تنبئ عن ألم وتفصح عن مشاعر مختلفة أو بالأحرى عن جزء صغير من مشاعر مختلفة، فما اللغة كلها، وما لغات البشر بأجمعها، بقادرة على وصف ما يختلج في قلب بشري.

ألم يكن " روفائيل " في قصة لامارتين يقضى الساعات الطوال في حرب ضروس بين مشاعره وبين لغته... كانت اللغة دائما تنهزم فيها فلا تستطيع تحديد المشاعر، وإن كانت تظفر من ذلك بمرونة وسعة وقدرة.... نعم إن هناك ألفاظا تدل على معني مخصوص ولكنها توحى بأشياء أخرى غير

محددة لا يستطاع تعريفها بالقل.. توحيها إلى القلب فيشعر بها وإن لم يعرف لفظا يدل عليها.. هذا هو سر الكاتب أو الشاعر أو الفنان على وجه العموم.. إن هناك أشياء في بعض الصور والقصائد، يحس بها المرء ولكنه لا يراها.. وتشعر بها الروح دون أن تلمسها الأيدي أو تعرفها الحواس الخمس المحـــدودة.. قد نجد هذا الشيء الغريب بين سطور الشاعر المبدع، وبـــين ثناياخطوط المصور الخـــالق ،وفـــى زوايـــا حجـــر التمثـــال البديع،وبين أنغام الموسيقى الساحرة، هذا الشيء نجـــده هنـــا وهناك موزعا بشكل غريب، يبث في الروح انفعالات خفيـــة تخفق بخفة وترفرف في سكون ولكن في وضوح أو " إعـــلان بالوجود " أن صح هذا التعبير، هذه الانفعالات دائما تفلت من القلم وتطير منه، ومهما حاول دائما الإمساك بهـــا ووصـــفها، فهي تغافله وتتسرب من بين أصابعه، بنفس الخفة والغمـــوض اللتين تتصف بهما هذه المشاعر كخواطري، شـــرود خبيثـــة، دائما تلوح وتغري، ودائما تختفي سراعا وبـــدون أن يشـــعر المرء، دائما أحاول أن أدون ما يدور بخلدي هنا، ولكن عنـــد الكتابة يتبخر كل شيء، ويهيم الفكر في وديان جديـــدة، وقـــد

تعاود الخواطر القديمة الظهور، ولكن لتختفي ثانيـــة، كأنمـــا تبتسم في سخرية وإشفاق من هذا الشخص التعس... تعس؟.. تعس ! ! حقا.. إن السلام الملكي يترامـــي فـــي الجـــو مـــن المذياع.. فلأنته به إذن.

هل قلت إنني ما زلت أكتب مثل هذه الأشياء؟

في طبقة مضمرة من الكتابة، أظن نعم

للأسف ! نعم، قلت هذا أكثر من مرة، وما زلت أكتب مثل هذه الخطابات.

الإسكندرية ١٧ يناير ١٩٤٣

عزيزي وفيق....

من المخيف حقا.. أن يقرأ المرء مثل خطابك.. وممـــا يحز في النفس.. ومما يهز القلب من أعماقه أن يسمع المـــرء مثل صرخاتك الموجعة، ولكن.. لماذا يا صديقي؟.. لم كل هذا اليأس؟.. لم كل هذه الظلمة؟.. لماذا هـــذه النظـــرة الســـوداء المذعورة المؤلمة؟.. التي لا تطاق، إلى الحياة، لست أفهـــم.. ولا أستطيع.

إنها نوبة يا صديقي.. نوبة فقط.. نوبة قد تكون طالت. وقد تطول.. ولكنها ليست إلا نوبة، أنني لا أطيق أن أتصــور تلك الحالة شيئا دائما حقيقيا صحيحا.. فإن هذا يكون مخيفــا، يكون كابوسا مروعا، يكون شيئا لا أجسر قط علــى التفكيــر فيه.. كلا.. كلا.. إنها ليست إلا نوبة.. أؤكد لك.

إننا كلنا نتألم، كلنا ننسحق تحت وطأة الأقدام الجبــارة التي تعتصر الدموع من أعمــاق أرواحنــا، ولكــن.. كلنــا يجب..يجب بجنون، أن نناضل هذا الألــم، وأن نمــزق هــذه الظلال السوداء، يجب.. يجب بكل عنف وإصرار، أن نناضل لكي نلتقط أنفاسنا، ولكي نخرج إلى النور، ولكي نرتفع فــوق قبورنا.

الموت؟ آه.. يا صديقي.. إننا سوف نشبع موتا، فلمــاذا نتعجل نصيبنا منه..؟

هل تذكر الخيام؟.. لشد ما هو صادق.. وإنساني، فــي بعض الأحيان!.. أتذكر قوله.

وسأضطر للرحيل اضطرارا.. واختياري أن اســتطعت اختيارا.

أن أسرى عن الفؤاد الهموما.. في حياة مـلأي أسـى وغيوما.

فأدرها سلافة واسقنيها... نعمة فالوجود كان مصابا.

فقط، إن الوجود – رغم كل شيء – ليس هذا المصاب الذي يصوره الخيام.. أن فيه الخمر على الأقل... فيه " كـأس من الخمر.. وحبات من التمر.. وبساط من الزهـر... وثغـر الحبيبة الجميل... وعيناها الناعستان من النحول، وفيه.. لهـذا كله.. يحس المرء – يا إلهي.. قبلتك في قلبي ! ".

" كلا يا حبيتي.. لا تأملي في رحمة أقدار أو بشر.. ولا تلك الخرافة التي يدعونها..".

أي عمق من اليأس المرير يصطخب في هذه الصـيحة الممزقة.

ولكن يا صديقي... أعود فأسألك.. لم كل هذه الظلمـة؟ ولماذا هذا التشاؤم المميت؟

تلك الخرافة التي يدعونها.. هل هناك إنسان عاش بدون هذه الخرافة، كما تسميها، هل هناك إنسـانية واحـدة، مهمـا كانت.. استطاعت أن تنطق في طريقها بدونها؟ كلا، كلا، كلا،

مطلقا.. إن الذي يهدم خرافة ما.. يقيم له وثنا آخـــر يعبـــده.. خرافة أخرى.... قد تكون أكثر قسوة، وأكثر جمودا.. وأكثـــر بشاعة.. إن برجسون مثلا.. يحطم أوهاما قديمة.. لكي يضـــع لنفسه أوهاما – أو حقائق – أخـــرى يســـميها " الحيـــاة " أو "التطور الخالق " الذي ابتدأ خلية زاحفة دنيئة، وظـــل يتعثـــر خلال القرون، يبنى لكي يهدم، ويبذر في مادة الحيـــاة ســـرفا وإغراقا، ويناضل المادة، وينتصر، وينهزم، أعمـــى متخـــبط عجيب، محتاج إلى مساعدة من البشر... لكي يصل إلى غايته التي يسعى إليها منذ ملايين الســـنين.. كـــلا، كـــلا، إن تلـــك الخرافة.. هي الشيء الوحيد الذي لا تســـتطيع الإنســـانية أن تنساه.. تلك القوة الغامضة الرهيبة.. التي لا نحـــس منهـــا إلا شوقا حارا جامحا إليها، نزوعا مجنونا في صـــميم البشـــرية، يترامى نحو الخلود واللانهائية.

أناتول فرانس – مثلا – هو ذا مخلوق " ليس يـــدري " بكل بساطة، قد تكون هناك هذه الأوهام، وقد لا تكون.. لـــيس يدري، ولا يستطيع، " قد يحدث أي شيء، وقـــد لا يحـــدث، لكنني لا أستطيع أن أحدد.. ".

ولكن، ولكن هل استطاع أن يعيش هكذا؟.. كلا. لأنه لو فعل، فإنه سيجن مباشرة وبلا إمهال، لقد رفع من الفن، من الجمال، وثنا آخر، يسجد تحت قدميه، وعلى شفتيه ابتسامة نصف ساخرة، نصف عابدة، ثم يقدم له البخور من دماء قلبه، من أعماق روحه الكبيرة. وهكذا.. من المحال أن يعيش الإنسان، ما دام إنسانا، بدون هذا الوهم.

وأنتما... أنت وجانيت.. قد يعتريكما الشك، ككل مفكر، وقد يفترسكما الألم، ككل الأرواح الكبيرة. ولكن.. إن لكما من العاطفة النبيلة التي تعمر صدريكما، لكما منهما وهم سام رفيع، نبيل، سوف يرشدكما في يوم ما، إلى تلك القوة الهائلة الرائعة، إلى النبل المجيد.

كلا، كلا، أكرر لك، وسأظل أكرر، إنه يجب، يجب بدافع من العاطفة المقدسة التي قد بقيت لك على الأقل كما تقول، يجب أن تنهض من ذلك القبر المظلم المخيف، يجب أن ترتفع إلى النور، يجب أن تبعث، وإلا فما قيمة تلك العاطفة؟إنها نوبة وأؤكد لك – وسوف تمر، سوف تختفي، كما

تمر أجنحة طيور الليل، ثم تختفي في الفجر الرمادي الزاحف الذي يشرق في كبرياء.

أخي..

إنني أصور لنفسي حياتك تلك التي تصفها.. بكل هذا الوضوح، المؤلم الغامض مع ذلك، فأرتعد، وأخاف، وأغمض عيني، كأنما لأبعد عن نفسي صورة مخيفة، لا أجسر أن أحدق بها.

أنت لا تكتب شيئا على الإطلاق، ولا تحس شيئا رفيعا ساميا، وقد تكون لا تقرأ، وقد تكون لم تر لوحة فنية رائعة منذ أسابيع، أو لم تسمع قطعة من الموسيقى منذ شهور، أنت – فقط – " لا تنقطع عن المشارب ودور السينما والسهرات "، ثم أنت، أخيرا، لا تنقطع عن التفكير المرير المظلم، " ولا ترى حولك من يحس شيئا، أو يرى شيئا، فكلهم جامدون.. قاسون.. حيوانات ".

نعم، أي صورة مذعرة، أي موت حقا. ولكن.. لماذا أيضا، لماذا... لماذا لا تقضى أيامك ولياليك في رفقة القلوب الكبيرة التي قد عبرت بإنسانيتنا هذه، وتركت لنا حياتها الخالدة

في مختلف صور الفن المجيد..؟ لماذا..؟ وإن كنت حقا تفعل هذا، فإن هذا لن يكون بأي حال موتا، أو شبه موت.. فإنها الحياة، الحياة الحقة، الحياة الروحية، ولعلها الحياة الوحيدة.

لماذا لا تعبر عن نفسك في صور من الفن الذي تحبه؟ لماذا لا تجعل " الحياة " تنبعث من ذاتك لكي تضفيها على كائنات روحية أخرى جميلة؟ لماذا لا تكتب، أيها المجنون العظيم ! لماذا؟

الموت؟ ! كلا، إن لك روحا خصبة كبيرة، لا يمكن أن " تدع الموت يأتي في سكون، ودعة، وهدوء ".. أنا لست أتملق، ولست أحاول أن أرتدي مسوح الوعاظ والمرشدين. إنما أنا الصديق الوحيد الذي يعرفك، ويفهمك، ويحبك، إن روحك الكبيرة لا يمكن أن تموت، أؤكد لك..

ولماذا التأكيد؟... ها هو ذا الدليل بين يدينا.. فانك أنت تحس الموت، والقبر، والظلمة، في تلك الحياة التي يحياها جميع الناس بلا مبالاة وباستمتاع أنت لا تطيق هذه الحياة، لأن في نفسك نزوعا إلى شيء أنبل، إلى أفق أسمى، وأرحب،

وأكثر امتلاء بالنور... أليس في هذا الدليل على أنك لا يمكن أن تموت كما تقول.

عزيزي.... أن في " الحياة " نزوعا إلى الامتداد، والفيض، وروحك ملآنة بالحياة، ولكنك تحبسها، تضيق عليها الخناق، لا تجعلها تنطلق، تنطلق مع نغم أو صورة أو كتاب، تنطلق إلى الأجواء المقدسة، إلى الآفاق السامية، إلى حيث تصبح السعادة ألما، ويفنى الألم في السعادة.

يا عزيزي كلا... يجب أن تعود إلى إلهك الذي أنكرته.. يجب أن تركع أمام الفن وأمام الحب اللذين هما مظهران لشيء و احد، هو تلك القوة الهائلة السامية التي تحكم العالم.

نعم... إنني لا ألغز، ولا أحاول أن أعمي، فالله، الله الذي يعيش في نفوسنا، النزوع الغريب الذي لا يقاوم إلى أشياء غريبة، القوى الهائلة السامية المعذبة الحلوة التي تجد طريقها إلى الخارج عن طريق الفن أو الحب أو الدين، هذا هو الله، وهذه هي " ملكوت السموات " كما يقول المسيح.. فهل يمكن أن ننكره؟

كلا، يجب أن نحمل صلبنا ونمشـــى، تعبـــين مقوســـى الظهور، نحس بالنهك، لأننا نحمل ثقل الإنسانية فوقنا، لكننـــا نحس بالحنو الغريب الذي يملأ قلوبنا نحو هذا التعب، ونبستم.

هذا ما أتصور، هذا ما أوقن به، وهذا ما أرجوه.

عزيزي...

لست أدري... انك مجنون بلا شـــك، إنـــك " أجهـــدت رأسك حتى تعب "، إنك مريض، وبدون هذا لا يمكن أن تفسر تلك الصيحة المخبولة، هل حقا كم تود لو ماتت هـــذه الفتـــاة؟ إذن، فأنت مجنون، أنني أرتعد لمجرد ذكر هذا .كيف تعـــيش أنت إذن،وكيف تموت أنت ؟.أنت إذن تمزق أحلامك، تمـــزق حياتك، وروحك، كما يمزق المجنون جثة أحب النـــاس إليـــه بأظافره وأسنانه، ويحس بالجذل التعس، والغبطة المعذبة.

كلا... أفق ايها المجنون.. حطم الأغلال التي صـــاغها الألم حول كيانك، انتصر على هذا الألم، نعم، أن الألم يصهر، وينقى، ويطهر، ولكنه في النهاية يقتل، ويميت، إن الألم لـــن يكون قط غاية للحياة وإلا فإنها لا تكون " حياة "، إن الألم يمر

بيده الملتهبة لكي يفتح النفس ويجعل الروح تفيق، تفيق لكـــي ترتفع، وتسمو، وتخلد.

أنت تقول إنك " حطمت الدنيا الوادعة التي كانت تعيش فيها، والقيتها إلى أعماق الجحيم الملعون الذي كتب علـــى أن أعيش فيه "، " لكنك في الواقع قد رفعتها مـــن المـــوت، مـــن الحياة الخاملة الطيبة التافهة، لكي ترشدها إلى ما في أعماقنـــا جميعا من حياة نبيلة رفيعة خالدة، نعم، أن فيها الألم، ولكـــن فيها السعادة الرائعة التي تطغي على آلام الجحيم نفسها، نعم، من يجرؤ أن قول إن العمل الفني الرفيع لا يستحق أن يعـــيش في سبيله المرء حياة بأكملها كلها عذاب، وألم؟

نعم، لشد ما هي صادقة، كلمة جـــان لا هـــور: " هـــذه الأكاذيب التي تغرينا بالحياة، وتجعلنا نصفح عن هـــذا العـــالم المجنون، أحبها، وأحب معها الموسيقى والشعر والحب ".

كلا، إنها ليست جحيماً مطلقا تلك التي نعيش فيها، إنـــه مزيج من السماء والجحيم، من السعادة والعذاب، من التسامي والانسحاق، من المر والبخور.

إننا نتألم، ونموت، يا إلهي.. لنتعلم التضحية، لنتعلم النضال في سبيل تحقيق " الحياة ".

تقول لي: " أتذكر تلك السماء التي عشنا معا فيها "، نعم.. أذكرها، ولكن لماذا أنت يائس، لماذا لا تعيش، وتحيا، هل تفهمني؟ لكي تتفتح مرة ثانية أبواب الفردوس المطلقة ؟..لماذا لا تحيا حياة حقيقية , لكى ترتفع مرة أخرى إلى هذه السماء، وتحقق هذه السعادة، وتنال مرة أخرى تلك الأكاذيب التي تكمن في أعماقها الحقيقة العليا؟

لم لا؟ إنني أسأل في جنون.. ولا أظفر بجواب، إنني لست أفهم...

صديقي....

أخيرا، كم أحترق شوقا إلى نغمة جميلة منك.. كم أريد بجنون.. أن ترتفع عن هذه الوحول التي قد سقطت فيها أنا أيضا لمدة ليست بالقصيرة، وحول الألم المنطوى على ذاته، المحترق في نفسه، الألم التعس الشيطاني اللعين.. كم أريد بجنون، بكل قوى صداقتي، أن تمزق تلك الظلال السوداء، وأن تحطم هذه الأسوار الساخرة، المقيتة.. إنك لا تعلم كم

يؤلمني كل هذا.. أن التأمل يا صديقي " قد يكون في بعض الأحيان في غير موضعه، وقد يقودنا إلى طريق وعر "، لنرتفع.. لنرتفع.. لنرتفع.. إننا ننال نصيبنا كاملا من العذاب، فلنثأر لأنفسنا من هذا الألم، لنعتصرها قطرة قطرة، بكل قوى حياتنا، فإننا قد دفعنا ثمنها دموعا، وآلاما، وتعاسة.

لنحلق... لنحلق... فإن في الحياة آفاقا نبيلة كثيرة، إن في أجنحتنا التي مزقها الألم.. لقوة تستطيع بها أن ترتاد الآفاق البعيدة، وأن تحلق في الطرق المجهولة، وأن ترفع المصباح.

ماذا يهم بعد ذلك؟ لا شيء، فلنحلق.. لنحلق... لنحلق... يا صديقي.

(وبعد كل هذه السنوات، أما زالت تلك عقيدتي التي أخفيها أحيانا عن تقية، وأفصح عنها أحيانا؟ أم هل انكسرت تلك الأجنحة، كما انكسر القلب؟ هل انكسر القلب؟).

عزيزي..

إنني أود بجنون أن أراك.. لا لأي شيء إلا لكي أنشب فيك مخالبي، فأنا أريد أن أنتقم لنفسي من هذه الوريقة اللعينة

التي بعثتها تقول إنك حاضر لزيارتي في قطار الساعة ٢/١ ١١ صباح الجمعة، أيها اللعين!

فهو إذن مقلب نظيف وأنت لم تحضر قط كما هو واضح من خطابك الأخير، فإياك.. إياك أن تتأخر عن الحضور – بجد – في الأجازة المقبلة، فإن بيني وبينك لحساب!

وهل تعلم – مثلا – أنني لا أدرى إن كانت خطاباتي تصلك على الإطلاق.. فانك لا تشير إليها بكلمة.. اشتمها يا اخي، العنها،كوم عليها كل سباب الأرض فقط أذكرها بكلمة ،لكى أعرف أنك تقرأها على الإطلاق على أي حال، فإن عدم ذكرها هذا هو من أعراض الجنون الذي ترتع فيه، فهنيئا لك، على كل حال، هنيئا.. أو قد يجدر بي أن أهنيء أيضا مكانا آخر تعرفه أنت بلا شك..!...

عزيزي " الميت "...

أرجو أخيرا أن تحيا، وأن تكلمني كما يتكلم العقلاء، أو المجانين، لا كما يتكلم الأموات، ولو أن المثل القديم ما زال صحيحا فإن الأموات لا يتكلمون، وهذا دليل على انك لست

ميتا، في النهاية... والآن ألا تصـــفق إعجابـــا ببراعـــة هـــذا المنطق؟ شكرا.. شكرا... كفى.. فقد أخجلت تواضـــعي.. أي أنني أرجو أن تكتب لي، كما اعتدت أن تكتب قـــديما، والا... لست أدري على أي حال ماذا أستطيع أن أفعل، الغالب أنني لا أفعل شيئا على الإطلاق، لأنني واثق انك لن تكتب، ولن تعني، ولن تهتم إلا بأن تكوم على رأسي كومة كبيرة مـــن الخبـــال والعته...!

أخيرا... أنا شديد الأسف لأنني لم أكتب لجانيت حتـــى الآن... ولو أنني اعدك أنني ساتمم هذا قريبا جدا.. وأظـــن أن في هذا كله الكفاية وما فوق الكفاية. ولو أن في جعبتي أشـــياء أخرى كثيرة، لاعداد لها، وأنا منتظر خطابـــك قريبـــا، أنـــت تعرف أي نوع من الخطابات انتظر.

في الختام... إلى اللقاء أيها العزيز المجنون.

(............)

صخرة جرانيتية صغيرة مأخوذة عنوة من أرض هضبة الأهرام، تتناثر فيها نقط سوداء وبيضاء وبقع دقيقة من الأحمر القديم وبها أبر مشعة وخازة تومض فوق السطح الصـــخري.

شعلة وعى صغيرة متذبذبة الإشعاع سوف تنطفئ وشيكا صرخة نورس وحيد ساقط الأجنحة على صخرة سوف تطفي عليها مياه أبدية بل لا زمن لها.

كيف أقول إن النهاية تقترب جدا، وأنني أعرف، وأنني لا أهتم حقا، أقوله بصياغة لا رومانتيكية؟ وإلى متى أظل غارقا في وحل رومانتيكي؟

أسير مع رفيق القديم في شارع شريف، نتفرج، بعد المدرسة، على الفاترينات الأنيقة في الشارع الأرستقراطي، محلات الصاغة والتحف والملابس الغالية (التي رأيتها مكسورة منهوبة يوم إضراب البوليس في ١٩٤٧ وأصحاب الجلاليب يخطفون لأنفسهم ما استطاعوا ويجرون بينما العساكر في ملابسهم السوداء ينظرون إليهم بلا اهتمام ولا حركة)، وهو يتأبط ذراعي ونتحدث بحرية نادرة عما نرى وما نحس وما نحلم وما نأمل (وطبعا هذه كلها ذهبت، ما تحقق منها وما لم يتحقق سواء)، أو نذرع شارع صفية زغلول متجهين إلى محطة الرمل القديمة، والبحر يبعث إلينا بهوائه الملحي المنعش عبر أشجار النخيل على المبني

النيوكلاسيكي الصغير، ونصل إلى محل العصـــير المفتــوح حديثا، باهرا بأدواته اللامعة وإغراقه بثمار الفاكهة المكومة في سرف على الرخام، والماكنات تئز ببهجة، بعد سينما الهمبــرا (التي هدمت، وحلت محلها فرشة مغطاة، من قماش الشوادر، وتكومت فيها ركامات من الكتب التي تنذر بعــذاب الآخــرة وحساب الملكين وظلام القبر وخروج الجن من الأبــدان، ثــم احترق جانب منها وجانب من سينما ستراند وكافيتريا الغزالة التي تحولت إلى بنك بعد ذلك، وهو ما زال يتــأبط ذراعـــي بحركة ود وإخاء وإعزاز لم أعرف مثلها قبل ذلك، ولم أعرفها بعد ذلك إلا مع نساء أحببتهن كثيرا.

الإسكندرية مساء ١٥ فبراير سنة ١٩٤٣

عزيزي وفيق...

يخيل إلي.... إنني كنت مخطئا، حين رحت أنتظر ردا لخطابي الماضي، طيلة الأيام، طيلة الأسابيع، طيلــة الشـــهر الماضي كله، لست أعني أنه لم يكن واجبا أن انتظر، بل أعني انه كان يجب ألا انتظر... !

كلا.. ليس في الأمر سفسطة أو تفلسف فارغ.. فهناك فارق كبير بين " عدم وجوب الانتظار " وبين " وجوب عدم الانتظار " ففي الحالة الأولى... تكون المسألة من التفاهة بحيث لا يجب شيء ما، وفي الحالة الثانية تكون المسألة من الخطورة بحيث " يجب " وجود أو عدم وجود شيء ما...

والآن، انتظر قليلا... لا تطلق تلك الضحكة المدوية المرعبة، بل فكر قليلا، قليلا فقط..! قلت إنه يخيل إلى أنني كنت مخطئا.. كلما هممت بالكتابة إليك.. ثم رحت انتظر، يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، أنتظر ردا من صديق صامت، بعيد، مصمم على الصمت، عازم على أن يظل بعيدا.

ما أضعفنا يا صديقي.. ما أشد ضعف إنسانيتا...!

إن أقوى العواطف، أن أنقى ما يعتمل في قلوبنا منها، إن أعمقها وأثبتها.. محتاج أشد الحاجة إلى وقود دائم، إلى غذاء مستمر، يمد لهبها النهم بالحياة.. إن فضيلة الحيوان وحدها، كما يقول باسكال، هي التي تستطيع أن تكتفي بذاتها.. إن الإنسان، ما دام إنسانا، هو حلقة واحدة خافقة حية، في

سلسلة طويلة، يؤلفها جميع الناس بأيديهم المتصـــافحة، كمـــا يقول جيو..

نعم، يا صديقي، لماذا لا تكتـــب إلـــي؟.. لمـــاذا تظـــل بعيدا..؟ لماذا ترفض أن تمد يدك على البعـــد، لتتلاقـــي بيـــد أخرى، مرتجفة، باحثة، محمومة، لكي يرتفعا على الظلمـــة.. لكي يتحدا في العاصفة؟

هل هذه هي النهاية كما تقول، " نهاية حياة كانـــت ذات يوم أجمل وأنقى حياة في الوجود.. ".

كلا، كلا، إنها ليست النهاية، إنها لا يمكن أن تكون.

أنني أرفض، بعناد، أن أقبل مثل هذه النتيجة، فإن هـــذا يكون مروعا، مخيفا، مميتا....

أنني أحس، في غموض، أن هذا ليس صحيحا...

كلا.... قل لي يا صديقي أنه ليس صحيحا، وإنهـــا لـــم تكن أكثر من نوبة من حمي خبيثـــة.. مضـــت.. وانتهـــت.. وانقضت آثارها....

تقول إنك تعيش في موت دائم مخيـــف، ثـــم تصـــمت، وتصمت، وتظل صامتا..

ما معني هذا؟ ..إنني لا أبحث عن معناه، أن هذا يكون تعسا مخيفا، حقيقيا، قاتلا.. فليس في الوجود أقسى ولا أهـــول من الوحدة الروحية... من الظلمة المميتة التي تخلقهـــا هـــذه الوحدة، من العذاب – العذاب المميت – الذي يقتل من يحـــس بها....

وأنا.... لقد أحسست بهذه الوحدة، بكل قسوتها، وهولها، وعذابها، طيلة الشهر الماضي.

يا الهي.. لقد انقضت هذه الفترة، لقد ذهبت، لقد ذهبت..

لشد ما أخافها، لشد ما ارتجف لذكرها، لشد ما ارتعـــد، لأنني عارف انها مضت.. ولكنها ستأتي ثانيا.. ستأتي بأشد.. وبأهول.. وبأروع، مما أتت.. إن كان هذا ممكنا.

أنني فهمت التعس، يا صديقي، لأول مرة، فهمته علـــى حقيقته، لأنني أحسست به، في قمة طغيانه، وسطوته، لأننـــي تلويت في قبضته، لأنني عبرت جحيمه.

لقد اصبحت شيئا جديدا، بعد ذلك الشهر المميت، حتـــى لقد ارتعب اهلي، وذعروا، فقد نحلت، فيما يبدو، نحولا مخيفا، وأصبحت لا أبدو إلا واجما، عابسا، تعسا، "كمن يحمل الكون

كله على كتفيه "، كما قالوا – والكارثة أن حـــبهم هـــذا، هـــذا الحب الأعمى الذي لا يرى، ولا يفهم، كان عنصرا جديدا آخر لإلهاب النار الآكلة التي كانت تضويني.

يا إلهي، لقد انتهت هذه الفترة، وخمدت هـــذه الجحـــيم، أنني لا أكاد أصدق، أنني ارتعد، في ذعر حقيقي، عندما أحس أن هذا الهول خامد فقط، وانه قد ينبعث في اية لحظة، ساخرا، مقهقها، مزمجرا، كشيطان مجنون تعس... يريد أن ينتقم.

انني لم اكن أدرى أن في الوجود كل هذا القـــدر مـــن العذاب...

لقد كنت أغبطك، من اعماقي، على هذا الجمود الـــذي تتكلم عنه والذي لا أكاد أقبله، أما الآن، فقد اختفي العذاب في ضباب رمادي هادئ.

لقد سقطت في نوبة قصيرة كما اعرف، مـــن نوبـــات اللامبالاة الحيوانية الهادئة التي تجعلني أستطيع أن انظر إلـــى الماضي بنوع من الهدوء المتثائب الملول.

لعلك تتساءل الآن عن مصدر هذا كله، لعلك، كما آمل، تحس شيئا ما، تحس على الأقل بالفضول لمعرفة سبب كل هذا.. ما دام الإحساس نفسه قد صار نعمة نادرة بالنسبة لك.

إذن، فانا استطيع أن أجيب هذا التساؤل... وأن أشبع هذا الفضول. إن وجدا...

إنها المسألة القديمة، القديمة، إنه شيطان الشك.

انه العذاب الإنساني الكامن في الأعماق، عذاب التمرد على الوجود.

إنه الإحساس المرير بالوحدة الروحية.

هل تعرف ذلك الإحساس يا صديقي...؟ كلا، كلا، إنه النقمة المتجسدة. هو أن تفيق فجأة، فتجد نفسك وحيدا، في عالم واسع، رهيب، مخيف، عالم صلب جاف، صامت، عالم ملئ بالأنقاض.. وبالظلمة، وبالهول البارد القاتل، الجامد، المميت، هو أن تدير حولك، في كل مكان، بصرا ذاهلا، زائغا، لا يقع إلا على حطام.. هو أن تحس ملء رأسك بالحمى، وملء قلبك بالجليد.

هو أن يتخلى عنك كل شيء، كل شيء، فتجـد نفسـك زاحفا بين أكوام من الشقاء الصـامت السـاخر فـي صـمته وجموده، هو أن تصرخ، في جنون، فلا يرتد إليك إلا صـدى لصرختك، صدى ميت، مثقل، يرن في جوانب عـالم مقفـر، موحش، مذعر الفراغ.

هو أن تبكي، ثم تسخر من دموعك...

هو أن تمزق، بأظافرك أنت، ذات نفسك، وأن تقهقه في جنون، بينما تتساقط على جرحك الفاغر المفتوح قطرات مـن دموعك المحرقة اللاذعة، تمتزج بـدماء المـرارة وقهقهـات الجنون...

هو أن تركع لله ألف مرة في اليوم.. وتبصق في وجـه العالم ألف مرة في اليوم.

هو أن تتحطم، ثم تبعث لكي تتحطم من جديـد، ولكـي تبعث ثانيا لتتحطم مرة أخرى، بقوة أشد، وإلى ما لا نهاية من المرات، هو أن تلعن الوجود، وأن تدعو الموت بكل حـرارة قوى الحياة ثم ترتجف.. وترتعد... وتنسحق... أمام الوجود.. والموت والحياة جميعا...

هو أن تحمل لعنتك.. لعن الأبد – تحملها بكل ثقلها – لتجررها.. محطم الظهر.. محنى الجبين.. تجررها بين الوحول.. واللهيب.. في طريق منحدر نحو الظلام.. الظلام الصامت البارد المخيف.

هو أن تعيش تعسا، بلا أمل، ولا عزاء، ولا يأس أيضا.

هو ألا تتعزي بنبل آلامك، بل ترجعها بكل قسوة إلى آلام وضيعة مادية تافهة نذلة..

هو أن تتحطم تحت ثقل الوجود وتسخر من الوجود، وأنت تبكي.

هو أن تبحث عن شيء، مجهول.. بعيد، ساخر بلا أمل، ولا عزاء، ولا يأس أيضا.

هو أن تحترق رغبة في أن تتشبث بشيء واحد ثابت مقدس، ثم لا تجد..

هو أن تفقد كل إيمان، بكل شيء.

هو – يا صديقي – العذاب...

نعم، لقد كانت فترة مخيفة من حياتي.

إن هذه الحمى لم تستمر ابدا طـــوال هـــذه المـــدة فـــي الماضي.

نعم، فليست هذه إلا مرضا. الأصـــحاء لا يمكـــن أن يحسوا بمثل هذا...

وهذا ما يزيد العذاب.. أن يعرف المرء انه مـــريض.. وأنه تافه، وضحل، ثم لا يملك شيئا...

من يصدق أنني أفقد الايمان بكل شيء، حتى بالفن الذي ثبت لكل شيء في الماضي..

الماضي البعيد الذي ا نهار فجأة، وبقسوة..

ما زالت تلك القاعدة القديمة كما يقول باسكال صحيحة.. سافرة في صحتها، دامغة في أنها حق:

هو أن الاعتدال في كل شيء واجب وضروري.

ولكن ما جدوى كل ذلك؟

هناك جوع عميق في النفس، جوع لا يشبعه المنطـــق، ولا الفلسفة.. جوع عميق، عميق، مخيف، العمق، شره إلـــى الإيمان.

ولكن، أين هو ذلك الإيمان؟

لقد حاولت مرارا، حاولت كثيـــرا، أن أومـــن.. بـــالقيم الإنسانية، بالخضوع الملائم، لكي أجد السلام، والهدوء النبيل.

ولكني تعس – أنا أيضا– وتافه، وضحل.

لقد فشلت دائما... وفي كل مرة...

إن في اعماقي وحشا ساخرا، متدفق الحياة، قـــد يغفـــو قليلا، لكنه دائما متحفز، دائما نهم، دائما متمرد، صارخ، ينفث في نفسي الظلمة، والتعس.

إن اسمه الشك.

الشك الذي يصحبه طغيان الحساسية، وطغيان المخيلة، وكلاهما عدو للسلام، وللهدوء، ولكن ما الفائـــدة؟ ان مرضـــا آخر يعذبني..

هو أنني دائما أحقر نفسي، وأرثـــى لنفســـي بنفســـي.. وأسخر من نفسي، لذلك لست أدري... إنني ضال، تائه.

ضال عنيد، وعاجز وضعيف، لا يجد من نفسه المقدرة على اتباع " الطريق ".

لقد قال: " أنا الطريق.. وأنا الحياة.... ".

لقد قال: " تعالوا إلى أيها المتعبين وثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم ".

لشد ما يكون هذا جميلا، وسعيدا...

لكنني لا أستطيع.. أليس هذا مخيفا.. وشقيا؟

ما الفائدة. ما الفائدة من كل ذلك؟ ..لا شيء.

لا أمل، ولا عزاء، ولا يأس! حتى اليأس لا أمل فيه..

حتى هدوء اللامبالاة، لا أستطيع أن أتخذه، ولا بطولة المتشكك الذي يشق الطريق، دون أن يتحقق من شيء، دون أن يبالي بأنه لا يوقن بشيء يقينا نهائيا.

أنني احترق في جحيم حقيقية مفتحة الأبواب.. ولكنني في أعماق اللهيب انظر إلى الأبواب كلها وأعرف الطريق إلى كل منها ولا أقوى.. حتى على مجرد الخطو. قد أغفو في وسط اللهيب.. وقد أحلم.. بين النيران.. وقد أنسى قليلا.. أنني في الجحيم.. لكنني دائما أستيقظ في رعدة لكي أترك اللهب يمزق روحي.

أنني معلون يا صديقي.. ملعون.. ملعون...

وعلى أن أحمل لعنتي.. بكل ثقلها.. خلال هذا العــالم.. ومن يدري.. قد أحملها أيضا.. طوال لا نهاية معذبة.

ثم... وفي كل هذا العذاب المخيف.. انظر حوالي.. فلا أجد إلا ما يزيد من العذاب.

حتى صديقي الوحيد، يصمت، ويصمت، ويظل صامتا، بعيدا.

آه ياصديقى ..اننى لاألومك ..فاننى أعرف كل شىء.

أنني أقدر ما تعانيه أنت أيضا.. أنني اعرف اللعنة التي تدمغ حياتك أنت أيضا.. ولكن..

آه.. من ذا الذي يستطيع أن يتخلى عن الأمل؟

في يوم من الأيام.. يوم بعيد.. مشرق.. ضـــاح.. يـــوم جميل مملوء بأشعة الشمس النقية.. يوم حافــل بالأرغاريـــد.. وبالعطر.. في مثل هذا اليوم.. قد نرتفع من مستنقع آلامنا.. قد ننفض في كاهلنا لعنة الوحول.. وقد نغتسل في نار مقدســة.. وننطلق.. في السماوات.. ننطلق إلى.. بعيد.. إلـــى النـــور.. والجمال.. إلى أشياء طاهرة.. رفيعة.. مقدسة.. ونحلــق فـــي أشعة الشمس.. وفي زرقة السماء...

يا له من حلم يا صديقي...!... يا له من حلم..!

وإلى أن يتحقق هذا الحلم.. أو إلـــى أن تنتهـــي هـــذه المأساة، ويهال عليها قليل من التراب، إلى أن يحـــدث هـــذا.. لماذا ترفض يا صديقي.. أن نتعزي بآلامنا عن آلامنا.. لمـــاذا تصر على أن تظل بعيدا، لماذا ترفض أن تمد يـــدك.. علـــى البعد لتتلاقي بيد أخرى مرتجفة.. باحثة محمومة، لكي يرتفعا على الظلمة، لكي يتحدا في العاصفة،؟

(هذا النداء اللاعج، لوعة السؤال، ألا تكف أبدا؟ عرفت منها، عبر السنين، أن اليأس له وجه منير).

يا صديقي..

قد أكون أنانيا، وقد أكون تافها وغثا، وقد تكون آلامنـــا كلها فقاعة من الزبد.

قد يكون كل هذا حقا، وقد يستطاع كل هذا...

ولكن..شيئا واحدا.. لا يمكن أن يطـــاق، ولا يمكـــن أن يحتمل..

هو أن يكون ما تزعمه أنت شيئا ثابتا دائمـــا، مســـتمرا داحضا...

هو أن تصر على هذا الصمت، وأن تهمل تلك الحياة الروحية، ولو كانت كلها آلاما وعذابا، ولو كانت الجحيم هي الثمن...

كلا أن هذا النوع من الموت – وليس الموت نهاية الحياة – هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن.. لا يمكن بأية حال أن يحدث.. الصمت؟ أنه كفيل – بكل بساطة – بأن يقتلني.

أكتب لي.. اكتب لي مثل ما كنت تكتب فى الماضي.. أو اكتب لي مثل التفاهات التي أكتبها لك أو أكتب أي شيء.. فقط.. لا تصمت....

نعم.. ليس هناك مجال للمجاملات الاجتماعية.. أو للعبارات الملتوية الرقيقة الدبلوماسية.. أو لكل هذا الهراء، اننا أقل الناس جدارة بمثل هذا، للأسف الشديد.

وجانيت؟ كيف هي؟ نعم، إنه من المؤلم أن تستيقظ هذه الروح النبيلة على ضجيج الألم، ثم تنتهي آخر الأمر إلى ضجيج الألم...

إن هذا وحده يدعونا إلى الأمل لا إلى اليأس.. أو هذا ما يجب أن يكون.. نعم.. أنني ارجو أيضا أن اقرأ لها شيئا ما..

فإن في الحياة الروحية مجالي أخرى واسعة، رحيبة، جميلة حافلة بالجمال – غير الألم – وكل ما أرجو ألا يفقدها الألم هذه السعادة الأخيرة، سعادة الحياة الروحية.

(الحياة الروحية؟ ما أشد براءة هذه الكلمة، فيما يبدو وما أكثر ما تضمر من خفايا الجسد المتنزية الجائحة.. الحياة الروحية !).

عزيزي...

لست أدري... قد يبدو هذا الخطاب صرخة ممزقة مخجلة، وقد يبدو متعثرا ، أو ضحلا.. أو غامضا، ولكنه.. على أي حال – حار، وصادق.

نعم، يا صديقي، إن كلينا في حاجة إلى الآخر، ومن المؤلم حقا أن تصمت هكذا.

ان هناك شخصا واحدا كنت اعرفه وكنت أحبه، وهو الآن صامت...

وسيظل صامتا إلى الأبد، شخصا قد عبر هذا العالم إلى المجهول اللانهائي. شخصا ما أزال أذكره، دائما، في وحدتي وأبكي صامتا منسحق القلب دون أن يدري احد...

(أبكي فقدانا لا يعوض لذات نفسي .كم أفتقدك أختـــي. شق ذاتي الأخرى).

ولكن... يا الهي... أنني ارتجف.. إذا قارنتك بها.

كلا، إنك ما تزال حيا، متدفقا بالحياة، الحيـــاة الجائحـــة الرائعة التي تتألم وتصرخ وتسعد وتفرخ، وتتسلى، وتنطلق في ضحكة رائعة.

أليس كذلك؟ نعم، نعم، قل إنه كذلك.

أما ذلك القبر، القبر الصغير المجهول المنســـي، فإنـــه يعيش في ركن آخر من حياتي...

(قبر لم أزره مرة واحدة في خمسين عاما، وأزوره كل يوم).

ولكن.. يا رب الجحيم.. هأنذا بدأت مناحة أخرى.

لا بأس.. إن الروح التي تنتحب، لا يمكن أن يتســـاقط منها إلا الدموع..

عزيزي..

لست أدري إن كان يحق لي أن أنتظر أو لا يحق لي أن انتظر أو يحق لي ألا أنتظر أو لا يحق لي ألا انتظر..

نعم... فهناك فروق بين كل منها.. ولكن...

حسنا.. سأعفيك هذه المرة من هذا العقاب.. ولن اشرح لك الفروق!

نعم.. نعم.. سأجيب توسلك.. ولكن .. اياك أن تضغط كثيرا على صبري! وإياك أن تحرج صدري أكثر من حد معين.. وإلا.. أنت تعرف على اية حال.

نعم، وإذا تأخرت في الرد، فأقسم لك.. بالقوى الخفية والظاهرة، وبالجحيم والأبالسة.. أن أرسل لك خطابا، نعم خطابا واحدا لا غير، وأقسم لك، أنك ستمزق شعرك، وتحطم رأسك، وتدعو الجحيم والأبالسة، والقوى الخفية والظاهرة، ولن تفهم منه مع ذلك حرفا.. إنه يكون عقابا هائلا مخيفا قاسيا، وتكون أنت الذي سكبت المياه الساخنة على رأسك! والذنب ذنبك، على اية حال.. هيه، آمل أن يصلني منك إذن قريبا جدا خطاب، ومن جانبيت أيضا.

وإلى اللقاء

(..........)

اعرف – بوضوح – أن هذا الخطاب بالذات لم يصـــل إلى وفيق، كان قد جاء من القاهرة والتقينا، ولم نشر إلى مـــا جاء فيه بكلمة، كنا قد بدأنا نتوجس من عنف مشاعرنا، مـــن حميا القلق والمضض. كأنما فقد الخطاب مصداقيته، ومعنـــاه، لأنه لم يصل – هل كان له معني، اصلا، أو مصداقية؟ – بل كأن لقاءاتنا بعد ذلك أصبحت عبثية – كما تكـــون اللقـــاءات عندي – إلا نادرا – أدني وأهون بكثير من لحظـــات الحمـــى وسورات الكتابة، أقول " إلا نادرا " ولا أقول – للاســـف، أو لحسن الحظ – دائما.

" لولا اليأس ما انقطع الهوى ".

ما أغرب شعر جرير، حتى لكأنه غير حقيقي.

هل اليأس يبقي الهوى متصلا؟ هل اليأس هو الذي يمد الهوى بزاد لا ينفد؟ اليأس سر اتقاد الهوى؟

يأتيني أحيانا مشهد لقاء مراود.

أقول لها: لا تتكلمي. دعيني أحضنك الآن، فقط، لا أريد أن أقول شيئا. سوف نشتجر مليا، ربما، فيمـــا بعـــد. ســـوف

تلومينني ربما، فيما بعد، ولك حق، الآن فقط دعيني انظر إليك، أملأ روحي من جديد بمرآك.

مشهد يمليه اليأس، حلم كأنه حقيقة لا دحض لها. أمل أعرف أنه لن يتحقق أبدا.

" وأما اليأس فهو أخ شقيق.. كأن القحط عبرة كل أرض.. فسيان التهائم والنجود "

نعم يا بن بابك، رفيق التولج – هازئا بالأماني – في دلج لا استيضاح لها ولا انجياب.

هل ستغسلين قميصي الآن – كما كنت تفعلين في الزمن الآخر – من لوثات الامل الخداع؟ انتقع في " وشل الماء المدمن الذي يزجي سفنا مجنحة " , إلى قرار هوات بلا قاع.

في ذلك الزمن – باقيا وماثلا الآن وإلى دهر الدهور. كنت جالسة على كرسى المطبخ المنخفض وأمامك الكروانة، أم هل هو الطشت الصغير؟، ومن ورائك الغسالة الكهربائية آخر موديل، وأنت تشطفين القميص بعد أن كنت قد نقعته في الماء والصابون طول النهار، أصابعك القادرة المحنكة المكتنزة قليلا في الرغوة البيضاء الضاربة إلى رمادية خفيفة،

وعلى وجهك مسحة سهوم واستغراق، كمن يقوم بطقس أو يفى بعهد أو يقدم قربانا، استغفارا عن خطيئة غابرة أم استمطار لأمل منظور؟ أم لمجرد إتقان ما بين يديك من عمل؟ لماذا هذا المشهد لا يبارحني – من بين مشاهد أخرى – ألا لأنه في بساطته ويوميته محمل بدلالة تذهب إلى غور نفسي؟ أم لأن ترفعك وكبرياءك الروحية قد تجسدت في إيماءة اتضاع ليس فيه أدني ابتذال؟ أم لأنه، ببساطة، يقول الحب، دون كلمات؟

قلت: I care for you, I'll always do

قلت: دائما؟

أقول: ما معني انك تهتمين – أو تعنين بي؟

يا لبؤتي الجميلة الشرسة عاقلة الوجه جامحة الشهوة، عيونها مروج خضراء ناضجة، تضم ريش جناحيها على نهديها المكبوتين المتحديين، قابعة على رخام الآن ومحلقة الآن نفسه في سماء مثقلة بالسحب لم تحدث في الماضي، جناحاها شاسعان ومخالبها أظفار طويلة قانية المانيكير، ضاربة في عمقي.. فخذاها العظيمتان رابضتان على عجلة القدر الدوارة، على شاطئ البحر وأنت عارية بضة، دائمة...

هل أنت هنا، الآن، ما تزالين؟

٧ – لا وقت للنوستالجيا

هذه المرة لم تكن العينان اللتان تواجهاني معاديتين. بل كان الوجه كله غريبا، ثقلت عليه وطـأة السـنوات، وتركتـه حادا، قاطع الزوايا، تجاعيده محفورة غائرة.

كان وجها لا صلة له بي.

لكنني كنت اعرفه كما لم اعرف وجها آخرا.

هو قناعي، طول العمر.

أوشكت أن أهتف بـه: مـن أنـت؟ لمـاذا تـواجهني باستمرار؟ هل تطاردني؟ كان وجها فقـد البهجـة كمـا فقـد النضارة.

عندئذ تمنيت أن أرى وجهها – هي – محبة، وغزلـة، عيناها العميقتان مكحولتان بخط من مخمل ليلـى، عاشـقتين ومتسائلتين باستمرار، دون إدانة. تنتظران.

شفتاها قانيتان بدم الشهوة غير المسفوك، وعلى أعلـى وجنتها اليمنى تلك الشامة المدورة السوداء التي تؤكد تضـرج خديها بحمرة وردية فاتحة من تدفق الحميا الخفيـة، صـامتة

ومتطلبة في الصمت بعد ذلك بكثير سوف تأتي صرخة وجـــع المتعة.

لم أحتمل، فنزلت إلى الشوارع، وسألت نفسي: أبحــث عنها؟ أم أحاول أن أجد نفسي؟ قلت: من أنا؟ قلت: فيم بحثـــي ونشداني؟.

في قلب الحب وحشة.

أضمها إلى صدري، بكل ما في صدري من توق، فأجد بيننا حاجزا شفافا لا عبور منه إليها.

أطلال أزجي إليها التحية، أطلال هي خضر الروابـــي في روحي، نضرة، عميقة، ترف بنور ليس من هذه الأرض. تنوس على سفوحها سيقان عباد الشمس صفر السنى، رؤوسها المستديرة عيون مكحولة مفتوحة في روحي في ساحة صـــحن كنيسة هي؟ أم هو مسجد سامق عريق؟ أم هو الرامسيوم وقـــد سقطت أسواره، فقط أعرف أنه منه ينشعب شارع اليوســـيس، مستباحا الآن، بلا حرمة.

" لم يكن عهد الهوى إلا مناما.... ".

في هذا النوح صحوى الوحيد.

يا ساكني الأطلال غضة يانعة ما زالــت، مــا أنضــر محياكم !

كما لو كنت قد لقيتكم منذ لحظة، هأنذا ألقاكم الآن، لاول مرة. ماثلون أنتم، بكل بكارة النظرة الأولى، بكل نشوة اللمسة الأولى.

صدمة البحر تداهمني في شــارع شــامبليون، ثغــرة مفتوحة نحو أبدية مراوغة، والسحاب الخفيف، مثل غياب من أحبهم، يطفو على سماء زرقاء ساجية، صامتا، لكن بيني وبينه صلة ما.

كنا في الصيف، وكنت، في غيمة مضيئة، قــد شــربت الراح معه. وكانت السماء، بلا نهاية، هــي ســقف غرفتــي المتكررة التي لم تنقض قط. وكان يخايلني، يضحك ضــحكة بلورية صافية، لها موسيقي، حسها عذب ومهدد.

أجده، فجأة، يملأ الأرض والسماء، لا يهــولني. عينــاه دائما غريبتان وحميمتان، لهما ألق أنيس وخطر. ثم أجده قــد اختفى من أمام عيني. لكني أعرف انه هناك.

كنت قد قلت له: أخلع عليك نفسي أم نفسك تخلعها علي؟

لبَس القلوب عندي ليس مما تخشى مهالكه.

لكنه فقط ضحك.

هل قال لي: انزل ابحث..

هل قلت: عمن.. عم أبحث؟

أم قلت: هل البحث غاية؟ هل البحث وصول؟

عين مفتوحة في سماء جوانية ليست صافية ولا ناعمة، تضطرب فيها أمواج السحب الداكنة المتقلبة، تشقها لمع بروق تقعقع، سرعان ما تخبو.

في آخر شارع السلطان عبد العزيز كانت مئذنة جامع القائد إبراهيم هادئة الرشاقة. كنت أحبها، وآمن إليها، عندما كانت هناك ساعات للكبرياء. أما الآن فكأن فيها غرابة، ونذر غامضة.

مبنى منظمة الصحة العالمية بأعمدته الكلاسيكية الزائفة يبدو ضيقا ومقتحما، وعليه حرس. وحديقة الخالدين تحولت إلى سطح جراج تحت الأرض شكله خانق، التماثيل صامتة خرساء، لا تعني لأحد شيئا، ومقفل عليها.

وعندما وصلت محطة الرمل، على الصـــبح النضـــر، وجدتها رثة صاخبة مضطربة المسالك، مزدحمة بركاكة السلع التافهة ينادون عليها بأصوات ميكانيكية: كل حاجة بجنى وربع تعال بص وشوف.

كله م المراكب الحق بجنى وربـــع شـــرابات حريمـــي ورجالي وأتفال العب واتسلى ورق الكوتشينة بجنـــي ورُبـــع، دقدقة متصلة على الموازين القائمة لها وجوه مرقّمة دائريـــة، جافة ولامعة أخذت من أصحابها مسحة بشرية مهدرة، تجاوبها دقدقة متصلة من بويجية الأحذية يخبطون بانتظام على عدتهم بالفرش الخشبية، جالسين على الأرض، متجاورين، بلا زبائن.

(صعدت إلى الترام الأنيق الهادئ حتى في زحمة عـــز ساعة العودة، و وجدت بجانبها مقعدا خاليـــا، كانـــت جميلـــة وعذرية وبكرا رشيقة الخصر ورقيقة. وكان النخل الســـلطاني على الجانبين هفهاف السعف. قلت لها معابثا بالسؤال التقليدي المكرور الذي كأنه شفرة: كليوبـــاترا الحمامـــات؟ فأومـــأت مبتسمة بأنوثة بنت كبرعم وردة مغلق الأكمام ورقه الندى يلتم

على بعضه بعضا يكتنز عطرا شهويا مكنونا سوف يسـكرني رحيقه في قابل الأيام ".

كن يعبرن سـاحة المحطـة العاريـة، الآن، المكتظـة بماكنات الفشار وثلاجات الكوكاكولا ومقاصير بيـع الحلـوى والسجاير، سوداوات تماما، على رؤوسهن أغطية زرقاء قاتمة وفي أيديهن قفافيز مشغولة بالتريكو، أحذيتهن رجالية مسطحة الكعوب، ملففات بأردية أحسها ثقيلة، سابغة لا يبدو منها غير العيون اللامعة ببريق صلب، في أيديهن الأطفـال يتواثبـون بحيوية لا ينال منها شيء، ويرفعون إلى الخيمـات الأموميـة الملففة بالسواد والقتامة وجوها فيها براءة باقية وطلب للحنان.

" لحظة عبور الشارع إلى كافيتريا " غزالة " في الدور العلوي بعد سينما ستراند كانت لحظة استشراف اللقيـا ونعـم القربي ".

عبرت الشارع إلى الرصيف الذي يغص بيباعي جلـد الساعات وإطارات النظارات والصحف والمجـلات الملونـة وكتب أسرار الجان وعذاب القبر وعجائـب التطبـب بحبـة البركة، وكانت الشاورمة البايتة المسخنة مرات عديدة، بلهـب

البوتاجاز يلعق لحمها بألسنة كيماوية، تساقطت منهـا قشـور رفيعة مكومة تحتها على رقعة الألمونيوم، لها رائحـة فيهـا عطن خفيف من اللحمة الزهمة، تختلط برائحة بخـور تعبـق غيامتها فجأة من داخل محل الحلـوى واللعـب والسـوداني، زجاجه ملوث قليلا بآثار أصابع قديمة، والرجل يهز مبخرتـه بقوة وجلبابه الرمادي المغبر يمسح بلاط المحل ولحيته رمادية شهباء هائشة، صل على النبي صلِ ع الحبيب تكسب وكمـان زيده صلاه، وسينما فريال عليها قضـبان وأبـواب حديديـة كأبواب السجون تتردد أصداء الكلام في الصالة الأمامية كمـا لو كانت في ساحة جوفاء بين صور فريد الأطـرش وفريـد شوقي وفاتن حمامة وإعلانات كبيرة بذيئة التلوين عـن فـيلم اليوم.

لم يكن طيفها بجانبي، وأنا أمر بجانب البياعين وأمامهم بضاعتهم من الصنادل والجزم والشباشب البلاستيك صـاخبة في ركام ألوانها فاضحة في أبتـذالها، والشـورتات الرجـال اللميعة الطويلة الفضفاضة على الموضة وعلـى الشـريعة – حسب المزاعم – والقمصان الاسبور المربعات وقمصان النوم

بالحمالات الرفيعة حمراء وزرقاء من نايلون نصف شفاف توحى بأجسام نسوية ميتة على الفراش أو مدعوكة مهموكة في تحضير الطبيخ ومسح مؤخرة الأولاد والبنات والناس تأكل الفشار السخن أحس في فمي تفاهة طعمة وهشاشة قوامه، أقماع غزل البنات الحمراء الهائشة تتهشم فورا تحت الأسنان وتتعلق خيوط طيارة منها بالشفاه التي تعلق سكرها المصبوغ في سموم الصناعة من يدري في أي غرف مظلمة ساخنة وملطخة وتحت أي سلالم متهاوية وموحلة في حارات بحرى أو خرابات العصافرة.

قلت: أبحث عنها؟ قديستي المنتهكة المنهوكة والمستباحة بلا ثمن؟

قلت: هل أراها أبدا بعد؟

قلت: فات أوان الحنين.

هل برح بي الطيف الذي يسري، فزادني سكرا إلى سكرى؟

أستنجد بك يا شاعري البحتري، ولا نجدة.

قلت: سبات الروح الكمين ليس غيابا. ولا غيبوبة.

" في طريقي إلى عملي، وحبي، فـــي الشـــركة التـــي أسميتها أسماء عديدة وعرفت فيها " نعمة " صـــاعقة الهـــوى الحق، آتي إلى أول شارع النبي دانيال مـــن طـــرف ميـــدان المحطة الفسيح، من أمام مبنى التليفون والتلغراف، تهب على في الصبح الباكر رائحة الجناين المنســـقة المرويـــة بعنايـــة، ويتهادى الترام في وسط الشارع الصـــامت، منيـــرا بـــأنواره الكهربائية في وسط نور الصبح الغامر ".

مستودع زبالة السلع والكراكيب الملفوظة علينـــا مـــن الأسواق العالمية قذفتها إلينا مراكب ســـوداء محملـــة بركـــام نفايات النمور الآسيوية قادمة مـــن تـــايوان وهـــونج كـــونج وسنغافورة كله م المراكب إلحق إلحق شرائط فيـــديو رامبـــو متضخم العضل حتى الورم المكين وصراعه مع أشباه التنانين الاصطناعية، وأفلام المصارعين المرتدين أسمالا أنيقة مطرزة التمزيق، وبقايا الكتب المصفرة متلوية الورق باعهـــا تلاميـــذ المدارس بعد الامتحان، وورثة الميتين هواة القراءة القـــدامى، المجلات التي باخـــت أغلفتهـــا وبهتـــت ألوانهـــا وأصـــبحت موضوعاتها المثيرة ماسخة وغير مفهومة، تلال الجوافة أيضا

حباتها الأمامية ممسوحة بالزيت ووراءها الحبات المعطوبة طرية الجنبات – كلها على أي حال مشبعة بالمبيدات والهورمونات – والبلح الأسود لزج الشكل له حرافة عسل مخزون في لحمه المتهرئ.

هل كنت أبحث – ما زلت – عن وجهي أم عن وجهها، في أطلال سينمات شارع فؤاد: سينما رويال، وسينما بلازا وسينما فؤاد، وهل سمعت لها أنين نزع لا ينتهي؟

" أطياف مخايلة عرفت في طواياها لحظات هدوء وأناقة مع أوديت الغابرة إلى جانبي، ويدها في يدي في العتمة الرفيقة، نتلمس معني ولا نجده حتى في إيهامات جان جابان وجان ماريه وسيمون سنيوريه وميشيل مورجان وترجيعات ناى أورفيوس تحت سماء باريس ".

وهل وجدت بغية لي في شارع شريف الذي كان ارستقراطيا واجهات محلاته باذخة الجمال ؟.

كان اللاجئون السودانيون بوجوههم الفحمية لامعة السواد، وعيونهم البراقة كالخرز وقاماتهم النحيلة الطويلة المحنية، أمامهم أكوام هزيلة من البخور السوداني والعطارة

المقوية للباه أو الشافية من الإمساك والإسهال ووجع البطن والأسنان، ملفوفة في ورق نايلون عكر الشفافية ملصوق بصمغ خشن عليه بطاقات زرقاء وصفراء مطبوعة بحروف مطبعة مكسرة الحواف.

" في مكتب " الميساجيري ماريتيم " كان أنطوان، بعد ساعات العمل الرسمية، يفتح لنا المخزن ا لخلفي وفيه ماكنة الرونيو التي صنعناها بأيدينا نطبع عليها المنشورات التروتسكية، وصحيفة " الكفاح الثوري " على رأس صفحتها الأولى المنجل والمطرقة ورقم ٤ بالعربي.

أرم ذات العماد ليس مثيلها في البلاد.

ماسة الحب المفقودة، أشعتها، داخل الحجر الشفاف، ومضات طعن نفاذ ".

- وله يا حسين أنت بتلعب مصارعة حرة ولا روماني؟
- علبة النيدو بـ ٦ جني.
- مين عايز فلافل؟
- " لم يكن عهد الهوى إلا مناما ".

- بيساريا.. بيساريا.
- والله العظيم ميه في الميه.
- يا ختي عنها وما خليت لهوش، لا والنبي، ومن نبي النبي نبي، هو كل الطير اللي متنقى ع الفرازة، قلت له م اللي متنقي ع الفرازة.. آه والنبي.
- بيكا... بوتيليا....
- أيوه يا جدعان.. أما حته نتايه، طابت واستوت وطلبت الأكالة يا وله.
- البساريا.. طازه طالعة بمية البحر.
- فاجافيجو.... فاجافيجو..
- منجه عويسي وهندي وبيض العجل شيليان حمار وحلاوة بتلاتة شلن كوالين أعمر مفتاح أعمر أصلح وابور الجاااز.
- لم يكن البحر بعيدا.

أعرف أنه هناك، ينتظرني، سوف أعبر إليه الحـواري التي زحمتها أكياس نايلون مملوءة بالنفايات وأكوام صـغيرة من قمامة فيها بقع مبتلة سوداء.

وكان الصقر يحدجني، بغضب، مـن قفصـه الضـيق المرهف القضبان المعلق على حائط شارع الكنيسة المرقسية. لم يكن يستطيع أن يبسط جناحه، كان يعرف ذلك، لا يبسطهما ولكنه لا يقبل ولا يستسلم.

يصأى بصوت ثاقب، يهبط فجأة بمنقاره الحاد المقـوس العظام على غذاء الأسير: مزعة لحم نيئة حمراء مرمية على أرض القفص. كل ما بقى له من أطيـاف نـزوات الجمـوح والطراد والتحليق، جوعه إلى السماء لا غذاء له.

مولدات الكهرباء الصغيرة النقالي على رصيف شـارع سعد زغلول، حمراء مضلعة، أمام المحلات تمدها بالكهربـاء عبر أسلاك سوداء غليظة القوام شكلها شرير، تهـدر وتطـن وتزأر بلا انقطاع، بآلية متصلة لا تهن.

وجنبها، في صناديق الكرتـون، السـلاحف الصـغيرة والكبيرة مكومة تهز أرجلها بحركة بطيئة غير مجدية، أنمـاط

قميئة لديناصورات ممسوخة نسيتها الدهر داخل درقات تبـــدو سريعة الكسر وقليلة المعني.

نصبات البياعين شرابات حريمي نايلون وسادة ودانتيلا وصوف مشغولة باليد وكيلوتات وسوتيانات مفتوحة ومعلقـــة ومغلفة بماركات دولية مزيفـــة وتـــلال مـــن جاكتـــات جلـــد اصطناعي وقماش مبطن كله م المراكب الحـــق الحـــق قلـــب وشوف بعشرة جني أوكازيون المراكب يا خراب بيت الخواجا والطواقي الخليجية المدورة المخرمة المصـــنوعة فـــي الهنـــد واندونيسيا.

" صعدت إلى مكتب الاستشارات العمالية والنقابية الذي استأجره وفيق في الدور المسروق الذي تجده بعـــد ســـلالم حلزونية حديدية فوق محل الجزم، رائحـــة الجلـــد الأصـــلي الحريفة تفغمني وأنا أدفع باب المكتب الزجاجي وعليه الاسم بالخط الثلث الذهب: " وفيق راقم مستشار عمالي وصناعي ".

كنت قد زرته منذ أيام في شقته الضـــيقة فـــي شـــارع امبرواز رالي بعد محطة كليوباترا الصغيرة، وكان في البيـــت رائحة رضاع الأطفال وزهومة الأجســـام المقـــززة بكثافـــة

عصاراتها، ورحبت بي امرأته الطيبة البيضاء الممتلئة وهي ترد طرف ثوبها العلوى على صدرها بعد أن فرغت من رضاعة آخر ذريتها المتعاقبة. وكان الشارع عندما نزلت بالليل خاليا، والرذاذ يسقط خفيفا وأنا أسارع خطوي وأحس غصة حب محبوط مكتوم لم أعترف له بتباريحه، كما كان – هو – يشكو لي عذابات قلبه أيام زمان ".

وفق الآن وعائلته الكبيرة قد نزحت عن مصر من زمان، وتفرقت ذريته إلى مواقع الغربة في ميلانو و وندسور وبريتاني، لا يعرفون أنهم غرباء.

أمام طلل أطياف هذا المكتب القديم ينادى الرجل القاعد القرفصاء على الرصيف: لعبة عشان الولد لعبة عشان حمادة العروسة بتعوم وحديها في الميه اتفرج يا سلام، تضرب بذراعيها وساقيها المتصلبتين من بلاستيك غير متقن الصنع في مياه الطشت، وفوح الخبز السخن الطالع من الفرن يختلط بالأنفاس الكيماوية من صناديق الجيلاتي، محلات السجاير لا رائحة لها وعلى العربات الكارو المسنودة على عكاكيز رفيعة

أكوام فتاحات العلب والسكاكين والشواكيش وفيشات الكهربـــاء والمفكات من كل المقابيس.

عبق البن البرازيلي يحمل إلى نفث الغابات الاســتوائية والتلال المخضرة المسبعة في تنجانيقا والأمازون وصـــرخات القرود المفاجئة مع زعيق حاد للببغـــاوات وخمـــيس ســـائق السيارة القادم أصلا من زنجبار يحذرنا من النزول أو انـــزال شبابيك السيارة لأن هذه الجهة فيها الثعـــابين الضـــخام ذوات الأجنحة التي تطير و هي تحمل الرجل الجسيم إلى مـــا فـــوق الجبال لتطعمه فراخها النهمة مفتوحة الأفواه.

محل البن – والمخزن والطاحون – جوفه غائر معـــتم قليلا وعريق مازال محتفظا بآثار عز غابر.

يا من يحن إليك فؤادي..

هل تذكرين ليالي هواك. هل تذكرين عهود الوداد؟

" في البيتيه تريانون – الذين انضم إليه الآن بـــودرو – أخذت الشاي الكومبليه في حديقته الصيفية الخلفيـــة، وطلبـــت رفيقتي التي نسيت اسمها الآن شـــيكولاته مثلجـــة، وجـــاتوه بالكريمة، كانت تقول إنها تحبني وتسهر الليل في نافذتها حتى

تراني راجعا من " ملاهي " – كما قالت – بعد منتصف الليل فتنام وهي " تحلم بحبنا " الذي لم يتحقق قط، وكانت تخرج إلى من بابها في الصبح، بقميص نومها المفتوح عن صدر وفير مضغوط وذراعين لحيمتين بيضاوين كأنهما فخذان، لتقول فقط بعينين ثقيلتين بالكحل والحلم، هامسة بصوت خفيض مبحوح قليلا: صباح الخير يا حبيبي ".

هل طويت ساعات الحب؟

قالوا محطة الرمل تحترق، النار تصعد إلى عنان السماء، سينما ستراند، والفيومي، وفرع البنك الاهلي، وعلى كيفك، ومحلات الساعات، والكازابلانكا (التي استحالت صالة للأفراح البلدي وزعيق المطربين السكة والراقصات العوالم المضروبات) وشادر الكتب المجلدة المذهبة، ومحل العصير، قالوا كلها تأكلها النيران.

كنت النار.

جوانحي مشتعلة. متعة شبقية أن أتقد وألتهم وأدمر. أنشق وأنفث دخان التهابي. أئز وأفح باللظي الذي يستنفدني واستنفد به. في قلب شعاليل النار وجهها مضمخ الشفتين

مكحول العينين، حاجباها قوسان واسعان نازلان علـــى أعلـــى وجنتيها يوشكان أن يلتقيا بطرف الكحل المرهــف المســتدق تحت العينين الدعجاوين النفاذتين، لم أعرف وجه من، مـــددت إليها ذراعي في قلب الضرام لم أجد أحدا.

عندما جريت إلى محطة الرمل وجدت النار قد انطفأت وتركت ندوبا سوداء، في جنوب المبني المطعون، خبت ألسنة اللهب التي تعلقت بحيطان " غزالـــة " القديمـــة – لـــم تخمـــد موسيقاها الناعمة الخافتة ولم تطفئ ضوء أحلامها الرفيق ولا أحرقت وسائدها الطرية على المقاعد الوثيرة، لم تضـــع لقـــى الحب العذبة ولم تنقض ساعات النجوى ولم تذو أحلام مستقبل لم يأت قط.

هل يمكن أن يعاد ترميم ما لم يندثر؟

قلت: لا دثور ولا انقضاء.

لا وقت للنوستالجيا.

ليست هذه مرثية، بل ضربات غضب.

عشيقتي لماذا تركت نفسك تســتباحين؟ لمـــاذا تركـــت الغرباء ينتهكونك ثم أخذتهم – يا قادرة – إلى حضنك فإذا هم

من بعض عمق، جسدك؟ كيف تستحيلين، بالاغتصاب، إلى توحد مع الواغلين؟

شارع سيدي المتولى بالليل هادئ، وشبه خاو، مبنى المدرسة اليونانية القديمة بأعمدته الشامخة وبنيته الهيلينية ما زال مضيئا وعامرا بأنفاس اليونانيين الاسكندرانية القدامى من قاليماخوس إلى كافافيس، ومن أرشميدس إلى سلفاجو، من سكيريانيديس الدون جوان موضة الخمسينيات كهلا رياضيا متوفزا بالغزل الجسداني إلى كوستا البقال الذي على قمة شارعنا في راغب باشا في دكانه أطايب الحياة من مأكولات ومشروبات التاراما والأوزو، الباكالاه، والبلاميطا، الكونياك والنبيذ القبرصي الحلو إلى جانب الحلاوة الطحينية والجبنة الدمياطي والصابون نابلسي فاروق وصفايح الجاز ولوفة الحمام.

أمام المبنى الرشيق المهيب الذي يتضوع بأنفاس الإسكندرية الهيلينية ذات النكهة المصرية كان البيت القديم تطل من جداره الحجري الراسخ مشربيات دقيقة النمنمة

مخروطة من الحلم بصنعة المحبة، ينسكب عليها نور القمر العالي البعيد ويسيل من على خشبها المشغول الحميم.

هل رأيتها تطل منها، شعرها الغزير الوحي ملقى إلى جانب وجهها الأسيل، انهمار دفئ يدعو اليدين إلى الغوص في غماره الوحفة الوثيرة، طيف ليلة هندية وهي تلقى الأشعار، حافية القدمين انفاس الناس – وأنفاسي – معلقة بأنفاسها رخيمة الجرس أنثوية الإيقاع صوتها فيه تمكن وحصافة ويبض بالنسوية وغلمة الشبق، كنت ليلتها قد عانقتها وعرفت نعومة أغوارها، وكان بكاؤها بعد ذلك حارا وعنيفا.

وتحت بيت سيدي المتولي كان الجراج يشغل صحن الفناء القديم المسفلت الآن، له باب حجري مقوس العقد تدور عليه نباتات منحوتة وبينها خطوط ناتئة بالخط الثلث الجسور " ما شاء الله.. ادخلوها بسلام آمنين "، الجراج يبدو لعيني المجهدتين فسيحا معتما، ركنت السيارات وديعة الجسوم بالليل إلى السكون، الأرض تمتد إلى داخل لا ترى نهايته في براح خاو تتردد الأصداء فيه.

على باب الجراج الحجرى السميك غزالـــة مصـــرية، مربوطة إحدى سيقانها في عمود حديدي قصير، يحبل مضفور مجدول برقة من خيوط البلاستيك اللامعة.

رقيقة، هفهافة الجسم، رأسها دقيق فـــي ســـحبته إلـــى الأمام، وشفتاها تختلجان، عيناها واسعتان، مكحولتان، فيهمـــا دهشة.

أصغر قليلا من حمل النبيحة، وأكبر قليلا من " بست " القطة اللبؤة التي لا حبس لها ولا يمكن أن تستمر في الأســـر، حية، ناطقة، لها كبرياء.

كان الجامع يربض، راسى الأركان و وطيدا، على قمة الشارع الليلي المقمر، ضوء القمر يحـــدد نصـــوع جدرانـــه الخارجية المكينة، ويرسم، بدقة، خطـــوط المئذنـــة الجميلـــة ومقرنصاتها ودانتيلا معمارها الأنيق الذي يوحي إلى بجـــلال ومهابة ومحبة تهتز لها مشاعري وأصبو إلى حمي حنانها.

انكسر مركبي في بحر الهوى.

عصفت به الأنواء، وارتفعت أمواجه جبالا.

كم دنسوك يا قدسية الأسرار.

بدء إنقاذ آثار كوم الشقافة:

كتب – عاصم بسيوني في " الجمهورية "يوم ٧ / ٩ / ١٩٩٣:

" بدأت عمليات الترميم بمقابر كـوم الشـقافة الأثريـة بوسط الإسكندرية وعلاج مشكلة المياه الجوفية بها.

أعد خبراء هيئة الآثار دراسات علمية متخصصة لعلاج ارتفاع منسوب المياه بحفر ٦ آبار ارتوازية على عمـق ٢٥ مترا بأبعاد مناسبة عن المقابر الأثرية مهمتها سـحب الميـاه الزائدة بشكل منتظم للحفاظ على محتوياتها الهامة.

كان د. عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار قد زار منطقة كوم الشقافة وطالب بسرعة إجراء وتنفيذ عمليات إنقاذ المقابر الأثرية بعد أن هددتها المياه الجوفية بالانهيار ".

أما تحت كوم الدكة وأمام باستروديس، فقد كانت البنت ترتدي البنطلون الجينز الخشن على ساقيها العبلتـين، وحـذاء عاليا رفيع الكعب، وبلوزة حريرية شفافة ترى منها حمـالات السوتيان الأسود من على كتفيها الناصعتين، وكـان شـعرها

مفروشا على ظهرها، تسير بثقة وهي تخترق مـــوج نظـــرات الرجال، لم يكن لها زمن.

وفي أهرام يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٣ أن طبيـــب الحجـــر الصحي بالمطار " احتجز ١٥ صقرا من صـــقور " شـــاهين " النادرة الغلية (٥٠ ألف جنيه للصقر الواحد) وكانت الصقور برفقة أحد كبار الزوار، وقد استشاط الضـــيف غضـــبا مـــن الطبيب البيطري، الذي يؤدي واجبه، ورفض حجز صـــقر و احد لأن هذه الصقور، سوف ترافقه في رحلة الصيد بصحراء مطروح.

وعندما أراد الطبيب البيطري الشاب أن ينفـــذ القـــانون بحجز الصقور أصيب بخيبة أمل وحرج شديدين، بعد أن أبرز الضيف موافقة " رفيعة المستوى " بالإفراج عن الصقور فور وصولها إلى المطار.

والقصة الثانية عكس الأولى، فقد تعرض أحد الأطبـــاء البيطريين إلى ضغوط شديدة، عندما وصلت إحـــدى القوافـــل وكانت برفقة أحد كبار الزوار العرب، وكانت القافلـــة تعبـــر الحدود المصرية، إلى خارج الحدود، وقـــد حملـــت ســـيارات

القوافل لحوما، كان المطلوب أن يصـــدر الطبيـــب البيطـــري شهادة تؤكد صلاحية هذه الذبائح التي تحملها القوافل ضـــمن عائد رصيد الصيد في الصحراء المصرية للاستخدام الآدمـــي ليدخل بها حدود بلاده !.

والواقع المر.. أن صحراء مطروح تـــزدحم بعشـــرات القوافل من سيارات الصحراء الأنيقة الغالية، وقد خرجت كـــل قافلة، في رتل طويل، وعشرات الصقور، وموافقة تحمل اسم " وجود في الصحراء " (أي سياحة صحراوية) مـــن جهـــاز شئون البيئة.. ويرافق كل قافلة ثلاث مندوبين من جهاز شئون البيئة والسواحل، والأمن، وقد اشترطت التأشيرة أن يكـــون " وجودا " وليس صيدا ! وهو الأمر غير الواضح: كيف تكون سياحة صحراوية لهواة صيد قادمين من الصحراء ! وللحـــق فإن هذا العام هو أول عام يرســـل فيـــه الـــزوار الفاكســـات والتليكسات، إلى جهاز شئون البيئة، يطلبون الســـماح بـــالإذن للدخول بالسيارات، إلى صحراء مطروح، ومن ضمن شروط هذا الإذن، عدم حمل سلاح أو صقور، وتكون رحلة تأمل ! !

ولكن الوضع مختلف تماما، فالقوافل تدخل الصحاري بالصقور وتحصل على السلاح من عرب الصحراء، وعندما أراد أحد مندوبي جهاز شئون البيئة، الاعتراض على ما يجرى حدثت مشادة، انتصر فيها قائد رحلة الصيد.. فقد نهر مندوب الجهاز أو عنفه، على الاعتراض وقال له " إنني أحمل إذنا للصيد من أسيادك " ! ولما أراد المندوب أن يراقب وجوده، فشل لأنه يقوم سيارة " تلهث " وراء السيارات الحديثة المجهزة لغزوا الصحراء، وكم من مطاردات شهدتها الصحراء الشرقية ومطروح وزاغت القوافل من مندوب الجهاز.

ورغم أن جهاز شئون البيئة يصدر تصريح " الوجود " في الصحراء مشروطا بخط السير، وعدد السيارات، وأسماء المرافقين، لكن كل هذا حبر على ورق لأن المندوبين الثلاثة، يواجهون قوافل صيد حديثة جدا لهذا الموسم الذي بدء هذا الشهر وينتهي منتصف فبراير، وأمام د. عصام البدري، رئيس قسم الحياة البرية، والمحميات بجهاز شئون البيئة، ٥٠ طلبا بالموافقة، وقد أوفدت هذه الشخصيات مديري أعمالها في القاهرة – وهم لواءات سابقون – للحصول على موافقة "

وجود في الصحراء "، وكانت سابقا تخرج من حديقة الحيوان " بتصريح صيد "، والرحلة تمتد لعدة أسابيع وتتكلف أكثر من نصف مليون جنيه ! ويصاحب هذه القوافل صيادون وطباخون وسائقون وتباعون وحراس من الهند وتايلاند ومصـــر.. عـــدا سيارات الإسعاف والسيارات الثلاجة ! ".

وفي ميدان محطة الرمل، تحت جدران السفارة الإيطالية العريقة، كانوا يسيرون ببطء، يؤكـــدون وجـــودا، ويثبتـــون، بمجرد مشيته، شيئا، رتلا من الشبان ضخام الجسوم، مفتـــولى العضل، وغير ملتحين، يرتدون البنطلونات الجينـــز، قـــرأت العبارات المطبوعة على ظهور قمصانهم الاسبور نصف كـــم صفراء اللون التـــي تلتـــف بإحكـــام علـــى الأذرع المفتولـــة والخصور الممتلئة بتفجر الأبدان، بكلماتها المتطابقة: " اللهـــم ارحم شهداءنا وفك قيد أسرانا "، يحيط بها رســـم عقـــد فيـــه أغصان شائكة وزهور صلبة .وأحسست البحر غيـــر بعيـــد , وزعانف ضخمة لحيمة تثير موجا مكتوما مـــن وراء الســـور الحجري الأبيض على كورنيش المينا الشرقية.

" تخايلت لي، في زحمة ميدان محطة النار، شعرها بني فاتح مفروش على ظهرها في غدائر مفكوكة مهتزة مع حركة جسمها المحكم، لها موسيقى شهوية كامنة ".

قلت: كم لك من تجليات ... لا نهاية لك ".

- يا خوخ يا خد الجميل.
- أنت يا واد أنت وهوه يا مقاصيف الرقبة كل واحد يمسك إيد أخوه.

السماء تتدحرج إلى شق في قلب الليل، بياعة الكوكاكولا متربعة تفترش حصيرة صفراء جديدة على رصيف شارع النبي دانيال، تحت عمود الكهرباء الذي يلقى نورا قويا على بقعة مستديرة بجانبها، وهي في الظل، طفل ينام جنبها على قطعة من سجادة قديمة ألوانها بنية متربة نصلت خيوطها، وتلوح كأنما كانت ثمينة مصنوعة باليد في أطفهان أو شيراز، وحولها كسرولة الومنيوم أرى فيها بقايا طبيخ، و وابور جاز عتيق إحدى أرجله مكسورة، مسنودا إلى حجرة صغيرة، وأكواب وأطباق بلاستيك غير نظيفية لونها الضارب إلى الزرقة يميل الآن إلى خضرة زاهية في نور الكهرباء الساطع،

وجردل واضح أن فيه ماء مغطى بخيشة مبلولة، قلت: بيتهـا، ملاذها من هجوم الليل و وحشة الهجر.

صندوق الكوكاكولا الأحمر مطبق الجنبات يبدو عاليـا، وراءها في الشارع الذي أفـرغ الآن مـن كراكيـب السـلع والشرائط والفواكه والكتب القديمة ومجلات زمـان، غطيـت العربات الكارو المحملة بنفايات أسواق العالم، بدت كنعـوش ثوت فيها أشياء – كائنات – غريبة ناتئة الجسـوم ومكومـة الأضلاع، وهي تنادي: " الساقع ..! اشرب ليمون ..!كاكوولا .. !" فماذا اقول لك ؟ اقول لك " يا أختي ... يا بنتـي .. يـا امرأة أعرفها في صميم نفسي، ليس لي، حتى, حـق الأخـوة عليك، وليس لي بنات.. أنت غير كل امرأة عرفتهـا.. لكنـي أعرفك كما لم أعرف أية امرأة " .

كانت نحيلة الوجه، سمراء داكنة، وعظام كتفيها بـارزة تحت جلابيتها السوداء، أم سفرة مكشكشـة علـى زى أهـل الطرانة، وكان على حجرها طفلة ترضع من ثديها الصـغير المتهدل الملئ، قلت لنفسي أليست طفلة كبيرة؟ لعـل عمرهـا أكبر من سنتين، وكانت تمتص، بنهم، اللبن الذي يلـوح انـه

شحيح، كأنه طعام للبقاء على قيد الحياة، فقط، شعرها متــرب أشعث، قوى منكوش في نــور عمــود الكهربــاء، وعيناهــا واسعتان ومحاصرتان بكحل يبــدو أزرق كامــدا، مفتوحتــان تنظران إلى بسؤال لا أعرف إجابته.

ألم ألتق بهذه المرأة من قبل؟ وكانت صعيدية؟ قلت.

ألم أعرف هذا الكابوس، من قبل؟

لماذا التكرار؟ فيم العودة إلى أرض الكوابيس.

- صلّ ع النبي تكسب... وكمان زيد النبي صلاة.
- قبل ما تخرجي ابقي اتبخري م الحســد والعــين، بخور بس !
- أنا بقول لك أهوه... اوع تروح هنــا ولا هنــا.. عينك تزوع هنا ولا هنا.. أحسن يا الله السلامة !

قال لي، وهو بعيد، شاهق، يحاجني: أما زلت تبحث عن وفيق، عن وفقاء، عن وفيقات؟ أما زلت تبحث عــن وفاقــة، رفاقة، صداقة أو محبة موافقة؟

قلت، أحاجه: أليس التنافر ضربة لازبا في كل وفاق؟

قال لي: لن تجدها قط.

قلت: أظل أبحث.

كانت السماء تنسكب في البحر، بينما كانت أستمع إلى الصحراء، ما تقوله الصحراء، بأصوات خفيضة، نسوية، تكاد تكون مكتومة، فيها مع ذلك براح فسيح، ونعومة كم أفتقدها.

كأنما البحر لم يعد أنا، أمواجي تتكسر على حافة الصحراء، الممتدة إلى ما لا أرى، رغوات الزبد تذوب باستمرار، وتأتي من جديد.

النخيل متشابك الفروع والأصول، ينبثق من على الحافة متلوى الجذوع، ينحنى على البيت الذي لم يعد فيه إلا جدار واحد غير مكتمل، مبتور، من الطوب النئ، قائم في فناء موحش خاو.

شراع المركب الحاد معلق في وهدة بين ربوتين مدورتين من السحب المكومة الخمرية الضاربة إلى صهبة خفيفة، لدنة ومتماسكة، سلافة قديمة متوردة اللون، كثيفة بحياة نضرة، السماء عندئذ هادية ومشتعلة بالشفق، بصمت وحنو.

- من صعد إلى السماء فأخذها إليه؟
- أنا صعدت.

- من علا إلى السحاب فاحتضنه؟
- أنا علوت.

ثم هويت، بعد ذلك، وما زلت أهوى، فهل انحطمت؟

النجوم أضاءت، ليلتها، في محارسها، وابتهجت، هل كانت كانت تبعث إلى رسالة؟

- خايف يكون حبك لي شفقة علي.

من قال إن الحب والشفقة نقيضان، أو حتى متغايران؟

كأن رحمة تبطن عندي كل حب.

وأرحمتا للعاشقين، ماذا جنوا من الحب، وجنينا؟

" صار كلي قلوبا فيك وامقة، للحب فيها وللأشواق أمشاج ... "

الأصوات الآتية من طفولتي لا أستطيع الرد عليها، لا تفارقني فأين حدود طفولتي.

من غير تسايل ولا تهرؤ في نسيج العاطفة: ودع هواك وانساه وانساني عمر اللي فات ما هيرجع تاني، لم يعد وقت، لم يعد وقت، لم يعد وقت، من غير دموع، ربما بقليل من الحزن.

هل أنساك؟ هل ينسى هواك، أبدا؟

– تين يا عجمية المحفظة والحلق بجنى وربع المحفظة ع السكيـــ ... يـــ... ين .

أيوه الفريك الصعيدي يا فريك يا جوافة يا للـــي النبـــي حلاك البس الصوف بتاع الشتا يا بلح يا بنات عيشه هوه لمـــا يكون ابن جنية واجدع مخلـــوق خلقـــه ربنـــا برضـــو مـــش حيستكردني يا واد يا زلطة.. يا زلطة العنط والله وعزة ربنـــا وشه يقطع الخميرة م البيت الحلوة اللي هناك اللي لابسة حلق أخضر بجني وربع الحلق والمحفظة...

الصقر بوجهه الإنساني الصارم، أكبر مـــن الإنســـاني، يبسط جناحيه فوق حبيبتي الملقاة على سرير انتهاكها تساقطت منها قطرات دم نزر في ليلة عرسها، قالت له، متى حطمـــت قفص أسرك؟ متى انطلقت إلى السماء؟ قال: لم أكن أسيرا قط لن أسقط أبدا.

الصقر الوحش ند التنين أم هو نفسه الثعبـــان النـــاطق الحكيم، هو ذا في المدينة.

قالت لي: لا تصدق.

قلت: وهل غاب لحظة واحدة؟

قالت: الدنيا ليل والبحر بعيد.

قلت: حتى في الغياب حضور مقيم.

قالت: متى؟ متي؟

قلت: حضور لا يريم.

قالت: يا ويلي !.

قلت: كل أحد يراه.

وفي غيام الرؤية وحجابها الشفيف تهاجمني التياتين والتنانين والغيلان والدناصير، العماليق الشاهقة، والمسوخ القميئة زاحفة كالثعابين الملساء الرفيعة، والسحالي ذوات الدرقات الهشة والعناكب السوداء ذوات الأنياب المسنونة والوجوه المخططة المبتسمة عن نواجذها، منها ما هو على مقاسي بالضبط، ينظر إلى بعينين غريبتين.

" البكلاه في شارع إيزيس معلقة مشبوحة في محلات البقالين، بين المقاهي والمراحيض العمومية والمقلاة ذات الصحن المتحدر، المستدير، السخن، مائلا على الفرن المتقد على الدوام، الرجل يرفع الحمص والسوداني واللب بشيء كأنه

المذراة، إلى أعلى، يفرشها وينفضها ببراعة يد ساحرة، تصطدم الحبوب المدورة الصغيرة بحافة صحن المقلاة ثم تتحدر من جديد، ويرفعها مرة أخرى بمذراته التي لا تكل.

جسوم البكلاه ناشفة بيضاء غير شفافة، مدلاة من الخطاطيف، أكوام قمر الدين والبندق واللوز والحمص وعين الجمل والصنوبر في شوالات بضة وعضلة، بهجة رمضان تغمرني، قراءة الشيخ محمد رفعت تنسال عذبة رقراقة من الراديو الضخم ذي العين الكهربائية الخضراء المدورة، تهدهد القلب وتطامن المخاوف لكنها تحمل للفاسقين، والعاصين نذيرا صارما، كأن فيه رحمة خفية، حزينة، مسرات الروح، والحس، متواشجة، آلامها الآن منسية " .

ليس طريق الياسمين، على العكس، ببعيد.

يأتيني عبقة وأنا أدخل إليه من شارع فؤاد، في الحي الإغريقي القديم، تهب على الآن نفحته الجسدانية المتطايرة، عبر ستين عاما أم عبر عشرين قرنا من الزمان ؟ الأغصان الرفيعة مهتزة متهدلة على الأسوار الحديدية في الفيلات الكلاسيكية المعمار، بواجهاتها وأعمدتها الهيلينية، تفيض هذه

الأفنان الليلية بخضرة هفهافة تتوزع فيها نقاط الزهر البيضاء الدقيقة سهلت القطاف ، وتملأ جسد الليل الحار المبلول بشذى الياسمين.

إلى أين يفضي شارع الياسمين؟

الأشعار التي دفنتها، كأنها كنز مكنوز، تحـــت جـــدران قصر النعمان الأبيض الشاهق، تحت حيطان فنـــدق أوبـــروى الشامخة التي رفضتني في ليلة هندية قديمة، وتحت صـــخرة ستانلي بيه التي انتسفتها بلدية الإســـكندرية الهوجـــاء، هأنـــذا أحتفر الأرض لأستخرج تلك الأرصـــدة، فيطـــالعني وجهـــه الضاحك ضحكة بلورية، وفمه الذي ينفث النار.

في " الأهرام " يوم ٣ مايو ١٨٩١ من الإســـكندرية: " قلنا إن عدد الآبار في البلدة بلغ ٩٠٠ والصحيح أن هذا القـــدر في العطارين وحده، أما في عموم الثغر فيوجد ما ينوف عـــن أربعة آلاف بئر يستقي الأهالي من مياهها السامة القتالة " .

قمر القلوب أين نورك؟

حبيبتي الطيعة المنتهكة ينخر في جسدها عطب شهوات غابرة ومقيمة، تظلين مع ذلك لصيقة بالقلب بل بالجسد منـــي،

تهتز لك أشواق روحي، ومهما كنت صموتا، بل مخرسة، تظل آيات مجدك مرفوفة في هذه السماء، التي غاب عنها النور، أين أنت؟ أما تزالين هناك؟ كنت الآن أجرى، بخطو سريع منتظم، لا أحس أن الأرض تحتي، لا أنهج ولا أكاد أعرف أن لي جسما، خفيفا أجرى كأنني أطير، كأنني في حلم أطير.

البيوت القديمة، وراء سينما ماجستيك لها حدائق فسيحة مهملة معشوشبة، قوات الأمن تحتلها، ويقف أمام البوابة الحجرية الضخمة بجمالها غير البائد حرس مسلح، بالسترة السوداء، والخوذة السوداء والمدفع الرشاش الأسود الصغير في طرفه السنوكي الحاد سطحه الجانبي فيه تجويف منقور منتظم الحواف، مشرع للأمام.

سيارة حمراء مكشوفة تتعقب بنتا نحيلة الساقين تلبس البنطلون الاسترتش المحزق، أحمر لاصقا بفخذيها الرفيعتين، لا تثير في المرء – ربما – إلا قليلا من رثاء، وقد ألقت على كتفيها، دون أن ترتديها، جاكتة جلد اصطناعي سوداء مفتوحة، ومن على حافة السيارة يقول لها الولد المحفلط المزفلط المحبك

المتأنتك: " إيه يا بت اللى أنت لابساه ! ما تروقي يا متخلفة، طب اركبي ! وهي تهرول مسرعة، وخائفة، وغير مستسلمة.

دوت في سويقة سيدي بشر شحنة ناسفة صغيرة لم تصب أحدا بجراح، كان الفجر يوشك أن يطلع، لكنها دمرت الأسماك التي كانت على الرصيف أمام سينما " المنتزه " القديمة (هل تحولت إلى بنك أيضا ؟ أم تركت للخراب، مثل سينما فلوريدا، وسينما لاجيتيه ؟) وفي الشارع تناثرت أشلاء السمك، بيضاء مغسولة أو محترقة أو محموشة بالبارود وممزقة الأوصال، رؤوسها المحدقة بعيونها المدورة المفتوحة، أزرار حمراء مبتورة، ما تزال تبرق بين شظايا قليلة ومسحوق زجاج مذرور كالملح المجروش.

قالوا: مر من هنا ... !

قالوا: من المعمورة إلى العصافرة من العجمي إلى العامرية، من باكوس إلى سموحة، من سيدي بشر إلى سيدي جابر.

قالوا: من محرم بيه إلى ستانلي بيه ومن كرموز إلى كامب شيزار.

في المعمورة كانت المرأة تتجه إلى البحر، واثقة، جسيمة ومتناسقة، ملء جسدها قوة الشباب، بفستانها الكامل حريريا ناعما سابغا له طيات وشراشيب، مقفل الصدر طويل الأكمام، تخفى شعرها بعمامة محبوكة لها عدة طيات متراكبة من قماش ساتان أزرق مطرزة بحبات لامعة وخرز متعدد الألوان تحيط بمعالم وجهها وتؤكد تقاطيعه المسمسمة، وفي قدميها حذاء مطاط لاصق، وعندما ابتلت ساقاها التصقت بهما شراشيب الفستان، ثم تحددت قسمات جسمها في الموج الضحل وهي تغوص، وإذا بها تسبح بمقدرة، وتمكن، في كامل زيها، وم الشط رأيت كل تدويرات الجسم وربواته و وهداته وهي تغوص وتطفو، وصدرها متكور وراء حبوسه الحريرية إذا تصعد وتهبط بجانبيها وذراعاها تتضربان الموج في حركة السباحة المنتظمة الرتيبة.

كنت أراقبها، دهشا وخجلا قليلا، والمصيفون تحت شماسيهم الملونة المتقاربة جدا، في ضجيج أحاديث وأغنيات موسيقات الكاسيتات والراديوهات المختلطة المتراكبة، وزحمة النداءات، ودقات الراكيت المصمتة تاك تاك: إذ تعود من

سباحتها، تشر بالماء من كل قسمات جسمها، تمثالا حيا مبتلا متجسد الطوايا والثنيات، تسير، لا مبالية بالنظرات الشرهة التي تسمرت بها، والحذاء المطاط يترك على الرمل آثارا مبلولة لها صوت صرير إذ ينبثق الماء منه مضغوطا له زقزقة مكتومة.

قلت على قول سيدي سحنون: حقيقة المحبة مالا ينتقص بالجفاء.

قالوا: عند سيدي المرسي أبو العباس قالوا عند سيدي كريم في غيط العنب قالوا في الحضرة وعند المسرح الروماني، في المكس وفيكتوريا، في حجر النواتية وفي كليوباترا الحمامات، في كرموز وفي الأزاريطة، في زيزينيا وعند العامود، وعلى كوبرى التاريخ.

قالوا نشفت ترعة المحمودية تحت زعانفه الضخام، وحراشيفه الجارحة وهو يضرب طينها الرخراخ اختنقت سطوح المياه الضحلة فيها تحت ورق ورد النيل المفلطح المحنى بعضه على بعض متلويا في غضارة حوشية وبطئ السريان في تجمعات بذيئة الالتصاق بالماء النزر، وهو يشق

طريقه فيه يزيح التخثر الراكد وقد لاح قاع الترعـــة مـــوحلا لزجا لم تصوح الشمس لدونته قالوا كان يؤج منه النور والنار قالوا كان يغمره موج الظلام.

عندما التقيت به أخيرا في شارع سعد زغلـــول، كنـــت أعرفه، كما لو كنت أنتظر لقياه، كما لو كان حميما.

الشارع قد خلا فجأة من الناس والسيارات والحنـــاطير، الدكاكين أغلقت ضلفها وأنزلت ستائرها الحديدية بصوت خبط وقرقعة في الشارع الصامت، ورأيت البياعين يلمون نصباتهم وبضائعهم وباعة الصحف علـــى عجـــل يجمعـــون أوراقهـــم ومجلاتهم، والمارة يتدافعون جميعا مهرولين متـــزاحمين فـــي الحارات الضيقة الذاهبة إلـــى شـــارع ســـعيد وإلـــى البحـــر والشوارع الجانبية ناحية شارع شـــريف والفلكـــي والكنيســـة المرقسية.

كانت أقدامه – زعانفه المفلطحة لها صدمة ثقيلة مبتلـــة على أسفلت الشارع تتناثر منها قطرات مياه قليلة تبدو كثيفـــة القوام.

وضحك لي ضحكته البلورية لها صدى يتردد بين المباني العريقة إذ يعلو برقبته الفارعة الضخمة فوق السطوح ويكاد يهدم شرفات البيوت بحراشيفه الناتئة.

و وراءه من بعيد رتل سيارات المطافئ والإسعاف، جلجلة أجراسها ومواء صفارتها يبدو خافتا ضئيلا لا جدوى فيه.

قالوا كان هنا في المولد حيث كانت حبات الأنوار الكهربية عقوداً تحيط بالمئذنة السامقة وتتدلى متأرجحة بألوانها الحمراء و الزرقاء الصفراء، والصلبان الضخمة المربعة تحدها أنابيب المصابيح النايلون الطويلة النحيلة المتقاطعة، فوق الساحة المكتظة بالناس في طرفها موكب المرتدين جلود الفهود حليقى الرؤوس حليقى الأبدان المكتسين بالمسوح المتمنطقين بالإسكيم الرافعين رايات التكبير والتوحيد تخفق في هواء الليل , هل يرتلون لآمون ام يتغنون كيرياليسون ام يسبحون بالأذكار والأوراد، وجماهير المحتفلين قد استقر بهم المقام أقاموا مخيمات صغيرة أو فرشوا الحصر والسجاجيد وبسطوا الملاءات والبطاطين على حبال ممدودة بين أعمدة

النور وقوائم خشبية حفروا لها قواعد غائرة في أرض المولد، يأوون إلى كنهم المرتجل المحروس في رحاب ولي الله القديس الشفيع مرفوع المقام من الصوان والجرانيت المنقوش اسمه الواحد على صفحات القلوب والناس في حماه يعيشون ويطبخون ويأكلون ويتضاجعون ويناموان ويصلون ويذكرون ويترنمون، حاجاتهم البدنية والروحية كلها مقضية على الاسم المكنون غير الملفوظ، ويستوشمون على أذرعهم وزنودهم القوية أو النحيلة.

نشرت الأقمشة ذات الألوان الزاهية تخفق في هواء البحر من المينا الشرقية – أم هي نسمات النيل ؟ – المناديل أم أوية المدندشة والأوشحة، والملافح والشيلان الحريمي غامقة الزرقة بوبرها الناعم متقلب الألوان، وأكوام الحمص والفول والحلوى وأقفاص الفجل والجرجير وقفف التين والتوت والبلح الابريمي وأرغفة الخبز والبتاو المعجون بالحلبة والسمسم وأدوات الطبيخ الألومنيوم والخشب والطشوت البلاستيك والفخار والأباريق الزجاجية الزرقاء.

أغرقني طوفان المولد وبهجته الحميمة، منعشة للقلب الظامئ إلى القربي.

رأيت الشيخ الصعيدي ينادي: " يا دانيال ... اوع تعوج في البحر يا ولدي " وهو يرفع ذراعه فينحسر كمه الوسيع عن وشم أليف قلت: " يا عم أبو دانيال حمد الله على السلامة يا بوى! " قال: " الله يرعاك يا ولدي " . قال: " عم نيجو ننول البركة ونرمى الحمول ".

قالوا: مر من هنا.

وكانت الساحة التراب، الخلفية، من وراء الصرح الشاهق المكين تموج بطوفان الناس وفتح عينك تاكل ملبن والنداءات والدعوات والصرخات والضحكات قد غاصت في غمار عجيج الميكروفونات وتسبيحاتها والجدع يشجع الجدع وأطفال يتدفقون ويتدافعون ويتصايحون والكرة الحديدية الثقيلة على قضيبها المرتفع بانحدار، يدفعها الفتيان الاشداء والصبيان والكهول إلى أعلى تصطدم بالحافة أحيانا فيهتفون بالانتصار تاك تاك أو تقع الكرة خائبة إلى قاعدتها السفلية في أغلب الأحيان بوم م مكتومة الصدى، وتحت نور الكلوب الساطع

الضارب إلى زرقة بيضاء متوهجة، ومن أمام صفوف الدكك الخشبية التي جلس عليها أولاد البلد والفلاحـون والصـعايدة، رجالا كلهم دون نسائهم، تتمايل الغازية وتهتـز فـي ثوبهـا الأسود اللميع المطرز بالترتر الصغير يخشخشن في تحركات جسمها وتذبذباته الخاطفة بالبطن والنهـود وصـبى السـيرك يزعق في الميكروفون المرأة الكهربائية – بالفصحى – علـى بطنها تنور على وسطها تنور من كل حتة تنور ادخل يا جدع قبل ما تلعب.

قلت نعم مر من هنا، ولم يهرب منه أحد هنا، غمرتـه أمواجهم، وجهه هنا كوجوههم، متكرر منهوك دهـري القـدم أضناه العوز والنحول ولكن فيه كبرياء لا ينال منها شيء مهما نزفت دماؤهم إلى الداخل المعطوب الذي يظل عنيدا وسـعيدا ببهجات عريقة.

" المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك ".

خلعت أوصافي على محبوبي، لم يبق منـا إلا جـوهر الحب، ثابتا ومراوغا في آن , مخايلاً ولا يريم .

اهي محبه توجب سفك الدماء ؟

قد أريقت دمائي , من زمان .
شربتها رمال بيد من ورائها بيد .

كانت تمتطى صهوته، عاليا هناك، تحيط رقبته السميكة ضخمة الحراشيف بذراعيها السمراوين المدملجيتين بنضارة لا تغيب، ورأسه يرتفع فوق بناية شيكوريل، بعينين رحيمتين وصارمتين معا، ونفثات ناره الخفيفة تندلع فوق سقف المتروبول.

كانت عارية شعرها منسدل يستر ظهرها وبطنها الخمري، سابغا على كل جوارحها، جسدها ناصع السمرة تخطف منه ومضات من خلال جدائل الشعر الغزيرة المتموجة، وهي تتشبث بحراشيف عنقه الهائل العريض المتين.

وكان يسير ببطء وحذر، أسفلت الشارع الخاوي بغوص تحت ثقل أقدامه – زعانفه المفلطحة ولكنه يحرص ألا يمس الأبنية العريقة فلا تتهاوى جدرانها الشماء باحتكاك جسمه بها، كأنه يحميها من سطوة نفسه.

لأنفاسه صوت مثل فحة وهيج النار، ودخـــان أبـــيض خفيف يأتي بعد ألسنة اللهب المتطايرة من فمه حتى يصل إلى السفارة الإيطالية عبر الحديقة ومن جنب التمثال الـــذي بـــدا صغيرا ولكنه حصين.

هل كنت – وما زلت – أشرب معه الراح، صيفا وشتاء على السواء؟

" شربت كأسا بعد كأس، فما نفد الشراب ولا رويت " .

وهل قلت إن قلبي لا يرعوى عن هواك ؟

وأنت هناك، على متن سفينة شاهقة بلا شراع، ولا دفة، لا تنال.

مثل قصص كثيرة تقطعت السبل بيننا، كما يقال، بسبب من كبرياء، بسبب من أوهام، أم بسبب من مخاوف وتوجسات ملتبسة؟ هل نفد رصيد الشهوة أم تهاوى جسمان الهوى؟

أم أن الزمن – كما كنت تتخوفين – قـــد أوقـــع علينـــا سطوته ؟ وهذه هي كما يقال أيضا، سنة الحيـــاة، هنـــا علـــى الأرض؟

قلت لنفسي: لم تجد وفيقا ولا وفيقة، قط، ولن تجده أبدا.

كان الدثور عند لحظة البدء.

قصاراك لحظات خاطفة من وفاق، بل مــن نشــوة لا تصدق، من بهجة لم يبق لك بعدها من شيء، لحظات – كمــا تعرف – هي أبديات، فهل هذا قليل؟

ليست هذه مرثية، ليست هذه قصة.

تلفت حولي، لم أجد الغزالة المصرية ناعمة الجسد التي جاءت أصلا من الصحراء الشرقية، أو من أشبيلية، توحشــنى عيناها المتسائلتان، بخضرتهما الصفراء الدعجاء، توحشني.

كان الجراج في شارع سيدي المتولي خاليا الآن، رأيت الحبل المضفورة جدائله الرقيقة ملقى على الأرض الأســفلت الصلبة، حياته السارية قد بارحته، أحسه جافا وذابلا.

قلت: طارت صقورى التي وقفت على العليقة المشتعلة لا ينتهى احتراقها، ضربت في شعاب لا طاقة لي باســتبارها ولا بالتغوير في مخانقها الطرية العميقة.

تلك كلها مجازات، لا مجاز لي فيها

كان – هو – يطل علينا من النافذة العريضة المفتوحــة على فناء موحش لا يطرقه احد، وكانت النار في فوهة شدقية

المقفلين مكتومة، لم نسمع في لقائنا الأخير باخ، ولا موزار، ترددت ثم أحجمت عن أن أطلب الموسيقى، أن أطلب ما كان من حق الحب، لم يكن في لقاءنا الأخير موسيقى، بأكثر من معني.

عندما لمست يدها واستجابت لي، وبدأنا طقوس الاقتراب من أحدنا الآخر، جسدانا ينصهران رويدا، لم يكن ذلك إلا روتينا شبقيا، لم يكن ثم اقتراب حق، ولا انصهار حق، افتقاد الموسيقى توجس وإخفاق.

هل تقلبت إخفاقي عن طيب خاطر، أم كان التسامح الطيع انقطاعا للسبيل، على أي حال؟

البيت – بيتنا – رفضني في الآخر، لم أجد وسادة أضع عليها رأسي، لم تتطوع هي بأن تقول أرح هنا رأسك المنهك، هل ذلك لأنها تأخذ مأخذ المسلم به أن هنا موضعا واحداً لرأسينا معا؟ ولماذا لم أفتح درج خزانة ملابسها لكي أضع فيه متاعي القليل؟ المتاع القليل من حبيب مفارق؟ لماذا انتظرت أن تفسح هي، لي مكانا، لماذا لم أقتحم مكاني الطبيعي؟ لأنه لم يكن هناك مكان لي، لم يكن هذا بيتي الذي أويت إليه ساعات،

لم يكن بيتنا، كان وهماً ما أقوى رسوخه، وما أعذب مــراودة طيفه.

أهذه توجعات النوستالجيا، أم أنني أتوحد بها، لا أستطيع – ولا أريد ربما – أن أتحلل منها، أراها الآن كما صنعتها هي لي، كما صنعتها أنا لها، في نورها الذي لا يخبــو، الجــذوة المدفونة تحت الرماد ما زالت محترقة.

بيتنا الذي لم يكن، وما أقوى كيانه، فيــه ســعة الحــب وبهجته وسكراته، النفس فيه فسيحة ليس لها جدران، كالسماء، بيتنا الذي لم يكن، أحسه قائما في داخل جسدي، انظــر إلـــى سمائه من النافذة الرحبة الشفافة، فأرى الوحش الوديع القاتــل المحيي يطل على, جريت إليه، ومازلت أجرى، تنــدفع بـــي خطواتي، كما سأفعل دائما، حتى أصل إلى نباتات الظل اليانعة ورافة الظلال تحت الفتحة التي أرى منهــا المولــد، وأســمع نداءاته من هنا، من الآن.

أصارعه، وأصارعها، في قبضة أحضان وثيقة ســاخنة لا انفكاك لها، لا أنطفاء لها، تتقطع أوصالي من حبـــي حتـــى أعود نقطة محرزة داخل النون، أطياف وقائع حلــم مكنــون

ومكين، لأن مخالفة الحب لا تنجيني، لا أريد أن أفر من بلائه، وروحى عاجزة عن احتمال سطوة أشواقي.

يا سيدتي، يا سيدتي، هل تسمعين؟

سؤال قديم قدم الخلق الاول , لا يريم.

كانت تنظر إلي، من عل، من فوق المتن الشاهق الوطيد، بعينيها الخضراوين النجلاوين، طعنات نظراتها تترك جروحا بكرا غضة لا برء لها، ولا تريد البرء.

أريد أن يخرسني الحب فلا أنبس، بوحى انسكاب لا أملكه. وما أزال، على اليأس، أهتاج إلى لقياها، أليس اليأس أخا وفيقا؟ لا أملك فطام جوارحي عن شهوة قرباها.

ألم يقولوا " إن أمر الحب لا نهاية له " ؟ لم أستطع أن أرى نهايته، كان ذيله العظيم يضرب في غور أفق لا يرى، ولسانه المشقوق يضرب أطراف سحاب مشتعل عند قلعة قايتباي، من وراء الأنفوشي، من وراء النخل السلطاني، الذي أحترق سعفه من الجفاف والقدم، من وراء أنوار المولد التي تهتز الآن في آخر النهار، كريات مغلقة على ضوئها النزر كثيف القوام، من وراء البحر الساجي.

هذا الحلم الشاهق الغامر لا صـــلاح لـــي بغيـــره، ولا صلاح له بغيري.

الإصابة مصمية، هأنذا أقول.

خرجت من الحب إلى الحب، هأنذا أقـــول، قـــد تحقـــق فنائـي.

أعود آخر النهار، بعد أن احتضنت التنـــين، ضـــربات البحر هينة، سماء الإسكندرية صافية وسماء روحي ملبدة، لـــم أسمع أحدا يناديني: إدوار.

لم يعد هناك وقت لا للنداء ولا للعودة.

لا وقت للنوستالجيا.

لا وقت.

إدوار الخراط

٢٣ طوبة. ١٧١٠

٣١ يناير ١٩٩٤

فصول الرواية

مؤلفات الأستاذ إدوار الخراط

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

١- حيطان عالية: مجموعة قصص (١٩٥٩).

٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص (١٩٧٢).

٣- رامة والتنّين: رواية (١٩٧٩).

٤- اختناقات العشق والصياح: قصص (١٩٨٣).

٥- الزمن الآخر: رواية (١٩٨٥).

٦- محطة السكة الحديد: رواية (١٩٨٥) .

٧- ترابها زعفران: نصوص اسكندرانية (١٩٨٦).

٨- أضلاع الصحراء: رواية (١٩٨٧).

٩- يا بنات إسكندرية: رواية (١٩٩٠).

١٠-مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية (١٩٩٠.

١١-أمواج الليالي: متتالية قصصية (١٩٩١).

١٢-حجارة بوبيلو: رواية (١٩٩٣).

١٣-اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية (١٩٩٣).

١٤-رقرقة الأحلام الملحية: رواية (١٩٩٤).

١٥-أبنية متطايرة: رواية (١٩٩٤).

١٦- حريق الأخيلة: رواية (١٩٩٤).

١٧- اسكندريتي: كولاج قصصى (١٩٩٤).

١٨- مختارات من القصة القصيرة في السبعينيات: مع دراسة (١٩٨٢).

١٩- عدلى رزق الله " مائيات ٨٦ " : دراسة (١٩٨٦).

٢٠- مائيات صغيرة: دراسة (١٩٨٩).

٢١- أحمد مرسى: دراسة ومختارات شعرية (١٩٩٠).

٢٢- من الصمت إلى التمرد: دراسات في الأدب العالمي (١٩٩٤).

٢٣- " الحساسية الجديدة " : دراسات في الظاهرة القصصية (١٩٩٣).

٢٤- الكتابة عبر النوعية: دراسات في القصة القصيدة (١٩٩٤).

٢٥- " ما وراء الواقع " : دراسات في الظاهرة اللاواقعية.

٢٦- الخطاب المفقود: مسرحية كاراجيالى (١٩٥٨).

٢٧- الحرب والسلام: ليو تولستوى (١٩٥٨).

٢٨- الغجرية والفارس: قصص رومانية (١٩٥٨).

٢٩- شهر العسل المر: قصص إيطالية (١٩٥٩).

٣٠- فارالاكو: رواية غينية أميل سيسيه (١٩٦٢).

٣١- انتيجون: مسرحية جان آنوى (١٩٦٣).

٣٢- مشروع الحياة: دراسة فرانسيس جانسون (١٩٦٧).

٣٣- ميديا: مسرحية جان آنوى (١٩٦٨).

٣٤- الوجه الآخر لامريكا: دراسة ميكائيل هرنجتون (١٩٦٨).

٣٥- تشريح جثة الاستعمار: دراسة جي دى بوشير (١٩٦٨).

٣٦- الشوارع العارية: رواية فاسكوبراتوليني (١٩٦٩).

٣٧- نحو التحرر: دراسة هربرت ماركوز (١٩٧٣).

٣٨- حوريات البحر: قصص أمريكية (١٩٧٩).

٣٩ - الاسلام والاستعمار: **دراسة** (١٩٨٥)